أشياخ ومقالات

الإهداء

والهدية لا تكافئ المهدى إليه وإنما هي تنم عن الشكر يتقدم به عربي سعودي إلى هذا الإنسان الكبير هبة الله النعمة والتوفيق ليكون كل نجاح تم على يديه هو الهبة من الله أنعم بها علينا جميعا. فصاحب السمو الملكي ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء الأمير فهد بن عبد العزيز كان ولا يزال هبة من الله لشعبه، تولى وزارة المعارف فإذا المعرفة تنتشر وتنتصر في المدينة والقرية، في السهل وعلى ذروة الجبل حتى مست المعرفة مشاعر البداوة في الصحراء. ففي عام من أعوام الغيث وفي المنطقة الشرقية نادى الغيث المستغيثين فإذا هم يخرجون إلى الحماد والصماد والنفود، ولكن كيف يخرجون والأبناء في المدارس، فإذا المجال المتسع والوراثة الراسخة تدعو طلاب الكلأ أن يأخذوا أبناءهم ويأخذوا المعلمين ينصبون الخيام وبيوت الشعر فصولا في مدارس حرصا على ألا يفوت التلميذ يوم من أيام المدرسة.

ظاهرة حضارية انتمت إلى عرق أتاحها وأعطاها المدد وزير المعارف فهد بن عبد العزيز.

وانتشار المعرفة دعا إلى تأسيس الجامعات فإذا هبة الله تعطي هذا الإنسان الهبة لشعبه هبة شامخة ألا وهي أن كان رئيس المجلس الأعلى

للتعليم، أقام بناء الوحدة أبوه ورسخ الوحدة أبوه فإذا هو الأمير فهد بن عبد العزيز يمشي على الأثر يتم البناء في جامعة الملك سعود في جامعة الملك فيصل في الجامعة الإسلامية، في الجامعات الأخرى حتى أذن الله فأنعم على الملك خالد بن عبد العزيز أن يؤسس جامعة أم القرى.

فبناء الصناعة في الجبيل على ساحل الخليج كبناء الصناعة في ينبع على ساحل البحر والجامعة في اليمامة كالجامعة في تهامة، لا يعني كل ذلك إلا الترسيخ لوحدة الكيان الكبير، أفلا أجد نفسي وأنا من جيل التجربة جيل الحمد أن أكون لهذا الأمير ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء من الشاكرين أتقدم إليه بهذا الإهداء. فلولا أني آمنت به ونعمت بفضله لما استطعت أن أرعف القلم أكتب حروفا سوداء على قرطاس أبيض لا يسود به وجهي ولن أزعم أني أحد الذين أعطوا القرطاس بياضا على ماضه.

أشكر له الفضل والمنة أن أتاح لي الفرصة أن أطبع هذه المقالات وأسأل الله أن يصون بالملك خالد وبهذا الأمير وبكل إخوانه وبكل شعبه أن يصون علبنا نعمة الأمن وأن يحفظنا بعقيدة التوحيد وتوحيد الكلمة.

الشهيد فيصل العظيم

- سمعت عقول الرجال الخبر.. فاسترجعوا يرتلون قوله تعالى ﴿إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَبَتَهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا لِللّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) وسمعت القوم الخبر فأرسلوا الدموع، صامتة تتكلم، تسأل نفسها، تضع أمام عينها مناقب العظيم، صنع لهم الحفاظ على الأمن والإيمان، ورفع لهم قدراً من الدنيا كلها كأنما هو وهو ابن هذا التراب وابن هذه الأرض مآزر الإسلام ومعاقله ومسار الإسلام ومحافله قد أراد أن يعيد لنا كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، مجدها العظيم، لم يعد الإسلام فيها غريباً وكان كل مسلم أخاً قريباً، وكان كل عربي صديقاً حبيباً..

الأمهات والبنات، في القصر، كل قصر.. صرخن يقلن: واحزناه!! والأمهات والجدات والبنات في القفر، في كل بقعة من الصحراء صرخن يقلن (وافرى حبيبى فرياه)..

كل أم كانت أمه، في جنان الآملين له طول الحياة، كل بنت كانت بنته آملات الصعود إلى فوق طموحهن يصنعن به الحياة!

والأطفال في المدارس، في كل قرية بين صخار الحرار في كل واحة يسألون اليوم الرحمة لهذا الشهيد..

لقد كان الشهيد الملك فيصل روحا مسلمة سيره الإيمان إلى مكان يصل لنصرة الإيمان.

قادته الروحانية التي تقمصت وجدانه إلى ما هداه إليه من العمل.. عرفت هذه الروحانية من رؤى صادقة صدقها الواقع فمن الأمانة وقد كتمت نشرها من قبل أن أنشرها برهاناً على روحانية الشهيد.

في ليلة قبل ثلاث سنوات على مائدة العشاء وكان على المائدة سمو الأمير فهد بن عبد العزيز فأخذ الملك يتحدث عن رؤيا حدثت له وقال وعلى وجهه نور:

لقد جاء أحد الرجال (من الجربا) يطلب مقابلتي فأذنت له، فأخذ يحدثني ليقول: لقد منّ الله على أن أرى رسول الله في العام مرة - في فرأيته قبل أيام في عامي هذا يقول لي عليه الصلاة والسلام:

(بشر الملك فيصل بالنصر . . وأخبره أن يستعد . .) .

سمعناه وهو يتحدث ـ تغمده الله برحمته ـ فدعونا له الخير وسألنا أنفسنا عن الاستعداد وكانت الإجابة في أيام العبور ثم في بقاء المعركة حينما أعلن سلاحه. . سلاح البترول . . قلت لجلالته بعد ذلك وبعد العبور:

لقد كنا نسأل عن الاستعداد، نستبعد أن يكون سلاحا يحمله الجنود فإذا أنت تفاجئ بسلاح تدفعه من أرضك الطهر، سلاح البترول.

في الليلة الثالثة والعشرين من شهر شعبان قبل رمضان العبور وقبل أن يزور جيشنا في تبوك رأيت هذه الرؤيا فجفلت أن "أقولها له. . ولكني صبح نهارها قلتها لأصدقائه أشدهم على روايتها اليوم. رأيتني أدخل مكة

في ظلمة من ظلام. . فإذا أنا بسواد من الناس يقف بينهم الشيخ عادل كردي ابن الشيخ ماجد كردي يتكلم بصوت منخفض، فقلت له:

لا أريدك. أريد أخاك طاهر كردي.. وقد عرفت عادل وإخوته.. لا طاهر لم أعرفه وقد مات.. فخرج من ظلة كأنها قبة رجل أبيض طوال مرسلة بيضاء.. ناصعة البياض.. فهرولت نحوه أقبل صدره.. فلما رجعت إلى وراء أقبل رجل لا أعرفه.. لباسه لباس البادية، يتشمغ بشماغ أزرق فأقبل علي يعانقني ويقبلني على صدري وهو يجهش بالبكاء فنظرت إليه فإذا فقبل على يعانقني على مدري وهو يجهش بالبكاء فنظرت إليه فإذا هو عبد الحكيم عامر.. فجفلت أتأخر فناداني الشيخ طاهر في موقفه المرهب والمطمئن في الوقت نفسه يقول لي: بشرة بالنصر.. فإن وراء رجلكم رجالكم الملك فيصل..

ولم تمض أيام النصر حتى كان هو رجل النصر.

ورؤيا أخرى أخبرته بها همساً بيني وبينه أخبرني بها السيد ياسين طه. . وأخبرت بها الصديق محمد عمر توفيق وزير المواصلات قال لي السيد ياسين طه:

آمنت بروحانية الملك فيصل، واسمع السبب:

حدثتني عجوز لا أسميها. . قالت:

لقد رأيت الملك فيصل واقفا بين المقام والحجر الأسود وإخوانه بعيد ينتظرونه، فأقبل رسول الله ﷺ. . ومعه أبو بكر وعمر . . فقال له الرسول:

مرحبا بالأمين تقدم إلى مقام إبراهيم.

فقال فيصل:

هذا مقام الأنبياء يا رسول الله..

قال:

بارك الله عليك أنت الأمين حارس الحرمين...

وأخبرني السيد ياسين طه أيضا عن هذه العجوز.. وأخبرت الشهيد عن ذلك همساً بيني وبينه..

قالت العجوز:

لقد رأيت فيصل يقبل على المدينة فإذا رسول الله وأبو بكر وعمر يقبل عليهم الشهيد يسلم بكل الأدب فيقول الرسول عليه:

مرحبا بخادم الحرمين..

أقسم بالله ما كذبت في هذا كله. وقد عزوت كل خبر إلى صاحبه وإلى شاهديه. . ذكرت هذا كله برهانا على روحانية المؤمن هذاه الله إلى خير. . رحمة منه، فالله هو أرحم الراحمين. .

نسأل الله أن يديم علينا نعمة التوفيق. . كفل أثر. . ونسير إلى صراط مستقيم . .

التعزية لا تكفي فيها كلمة. ولكن آداب السلوك تمليها. وهي مني ومن كل الشعب ترفع إلى جلالة الملك وإلى ولي العهد سمو الأمير فهد. وإلى إخوانه. وإلى كل أبنائه أجزل الله لهم لما عزاء. وأثاب الشهيد الرحمة والرضوان.

الفيصل هو الجائزة

ـ الملك فيصل الشهيد هو الجائزة، فحين أقاموا احتفالهم بتوزيع جائزته أعلنوها على الناس، ولم يكن ذلك تذكيراً لمآثر البطولة والرجولة، وإنما بمأثرة واحدة هو التذكير به ناشر علم، مؤسس جامعات، أول من أنشأ مدرسة لتعليم البنات. فبطولة الزعامة التي صان بها هذا الكيان الكبير، وبطولة الدعوة إلى التضامن الإسلامي إلى آخر ما هنالك من عمل الساسة، وتحركات الزعامة، لا أجد لدى متسعاً من الوريقات أكتب تاريخا فذلك مجاله بعد، وإنما كل ما أريده هو أن أسجل أن هذا الملك فيصل الشهيد كان هو الجائزة تفضل الله بها علينا ثم جاءت على نهج قوى هو نهج أبيه، الملك البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن تغمده الله برحمته. فقد كان عبد العزيز هو الذي أقام دعائم هذا الكيان الكبير، وقد جاء الفيصل صوانا لهذا الكيان الكبير لم يصنع بالدفاع عنه فحسب وإنما صانه بغراس أثمر تثبيتاً لقيمة النقد ـ الريال ـ إقصاءًا للتغالي بسعر الدولار وما إليه. تنمية وعمراناً على أساس من نشر المعرفة، ونشر لا تحسبوه أنه كان هيناً على الفيصل فما أكثر العراقيل من الذين لا يريدون مواكبة التطور ومن الفقر في الإنسان المعلم ومن القلة في البناء دار المدرسة دور الكليات، أفليس في كل هذا العطاء من فيصل هو الجائزة منه وإليه به وعنه. ولنا. لكن الاحتفال بتوزيع الجائزة يعطي المعنى الكبير لمعاني التقدير ليس له كبطل وإنما له كوارث لدعوة السلف، وللسيف الذي نصر عقيدة السلف فأعطى العقيدة والسيف. . القوة قوة العلم والثقافة التي تصون العقيدة . حتى إذا أمسكت بالسيف لم يبق حديدة في اليد وإنما حديد على الباطل، فالسيف لا يعني إلا أنه كل ما نستطيع من قوة التغيير كان _ يرحمه الله _ ينكره، والتطور كان يعانقه، فجائزته قد ارتفعت بالقيمة حين كان أبرع هداياها وأبرزها هي ما تعتز به حين شرف الملك خالد هذا الاحتفال وقبل الهدية ولن أقولها منحة فخالد بن عبد العزيز هو المنحة كأنما هو الجائزة الثانية من نعمة الله علينا ثم من عطايا عبد العزيز.

لقد توج الاحتفال بهذه الهدية كأنما المحتفلون بالجائزة قالوا للملك خالد: إنك بتقبل الهدية تمنح الجائزة قوة الاستمرار لها كما أنك أيها الملك قد وقفت في الموقف الوسط الخير، تزرع الإفراط ولا تبيح التفريط.

فالإفراط كما قلت أكثر من مرة ـ كان ميوعة نصرانية أحبت المسيح عيسى بن مريم عليه السلام حتى تمادت فاتخذت منه ومن أمة الهين والتفريط عقيدة اليهودية وقسوتها أبغضت المسيح بن مريم فنصبت له الصليب. أما دينك الإسلام أيها الملك وبنصوص القرآن ـ فقد أبطل التثليث شركاً يكفر به المؤمنون ونبذ الصليب ﴿وَمَا قَنُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن النار شُبِّهَ لَمُمُ ﴿ (النساء: ١٥٧)، فحين أبطل الشك وقذف بالصليب إلى النار وبمن نصبوا الصليب من الذين غضب الله عليهم . . إلى الجحيم . أعطى الذين يستأهلون الثناء من الرسل والأنبياء والصالحين ثناءً فقد كانوا عبادا صالحين فكل الثناء عليهم لأنهم أهل التوحيد فليس من الإفراط أن نذكر

المآثر لمن أحسنوا عملا، وإن من التفريط ألا نذكر بمآثر الرجال الذين أخلصوا في أعمالهم.

فالاحتفال بجائزة الملك فيصل ليس ذكرى نتجاوز فيها إلى التفريط وإنما هو تذكير بمآثر الرجل أحسن العمل.

ولعلّي لا أنسى أن أذكر رجال الجائزة بشيء مهم فقد منحتهم الجائزة لمؤلفات فأين هم لم توزع علينا؟ وأين هي لم نجدها في كل مكتبة؟ وأين هي لا تكون مصدرا في الجامعات؟ ولئن منحتهم الجائزة لحياة الأحياء لقاء أعمال عظيمة فلماذا لا تتسع الجائزة لحياة أموات لا نقرظهم ولا نحتفل بهم وإنما نطبع آثارهم فمؤلفات كثيرة في عصرنا الحديث ألفت قبل الجائزة لعلّنا في حاجة إلى إعادة طبعها كالوحي المحمدي لرشيد رضا، وكالعبقريات للعقاد، وكتاريخ الأدب العربي للرافعي وكالمفصل لجواد علي، وكالقاموس المفهرس لآيات القرآن وغير ذلك مما أعتقد أن الدكتور الصديق أحمد الضبيب يعرفها فلعلّي أريد من جائزة الملك فيصل أن تكون غارسة لمكتبات أكاديمية لا تلقى فيها المحاضرات وإنما تعطي القارئين المحاضرات.

تهانينا للقائمين بها. . والحمد لله على توفيقه . .

عبد الحق الهاشمي

- ولعلّي لا أعذر نفسي، وقد ترجمت لبعض أشياخي أذكر بعض الذكريات.. وما قصدت من ذلك إلا التعريف به.. لعلّ بعض المحبين، يعنى بالترجمة أكثر وأكثر..

- ويعز علي ألا أترجم لثلاثة من المشايخ: الشيخ علي المالكي، عالم مكة في أيامه، والشيخ يحيى أمان، الفقيه الوقور، وشيخ الشيوخ عبد الحق الهاشمي. فالأولان سأسعى أطلب من بعض من عرفوهما في مكة أن يكونوا المدد لي، إذا ما ارتضوا أن يُتَرْجَمَ، أو أن يكونوا هم المترجمين.

_ ولعلّي أعول كثيرا على الأستاذين: أستاذنا محمد علوي عباس مالكي الحسني، وأستاذنا الصديق، صاحب الثبات أحمد جمال.. أما الثالث، فقد طلبت من أستاذنا أبي محمد علي المشهور بأبي تراب الظاهري، أن يوافيني بترجمة والده وثبته في نقاط.. أضعها منسوبة إليه، تذكيرا بفضل الشيخ وشكراً لما كان يبلغني عنه من دعاء لي، فيه بعض الثناء على ما كتبت من السّيرَ، بل إن الشكر ينبغي ألا يقتصر علي.. وإنما أنا حفيل به، باسم المسجد الذي عمره «المسجد الحرام» وباسم دار الحديث، في دار الأرقم بن الأرقم على الصّفا، وباسم العلم «أعز الأسماء» وأجل الأسماء وإليكم ما كتب أستاذنا أبو تراب من سيرة والده، ولعلّ في هذا تشجيعا للذين يعرفون بعض الأشياخ، فينشرون أو يرسلون إليّ، لأكتب وأنشر:

أبو محمد عبد الحق بن عبد الواحد بن محمد بن الهاشم الهاشمي العمري يتصل نسبه بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فهو الجد الرابع والأربعون له فهو من أولاد زيد بن عبد الله بن عمر، ارتحل آباؤه إلى الهند أيام محمد بن القاسم الثقفي، وتسمى قبيلته هناك قبيلة الشيوخ حتى اليوم.

ولد سنة ١٣٠٢هـ ومات عن اثنتين وتسعين سنة من العمر. تربى في حجر والديه وحيدا حيث مات إخوته فرباه تربية حسنة، تلقى تعليمه في الابتداء على يد والده فدرس علوم الآلة والأدب الفارسي وأتقن الصرف والنحو وحفظ القرآن، ودرس علوم العربية والشعر، ثم أمره والده بالخروج في طلب العلم فاتصل بأكثر من ثلاثين شيخاً أخذ عنهم مختلف العلوم ودرس عليهم مختلف الكتب، وكره علم المنطق والفلسفة في صغره وشرع في فروع الفقه ثم شغف بعلم الحديث وحبب إليه تفسير القرآن، فأقبل عليهما إقبال المتفاني، وترك التقليد ورفع راية الدعوة السلفية وأسس دار الحديث والشرك بالخطابة والكتابة، وأسلم على يده أناس كثيرون من الكفار وتاب آخرون على الشرك والنذور لأهل القبور كما كانوا على ذلك في بلاده التي عاش فيها.

وحارب القبوريين بالمناظرات والمباهلات فنصره الله وقامت مدرسته ببث علوم الإسلام في أنحاء البلاد، وتخرج على يده فيها مئات العلماء، من أكابرهم اليوم على قيد الحياة الشيخ سلطان محمود شيخ دار الحديث بجلال بور وكان سلفي الاعتقاد يحترم اجتهاد الأئمة ويقدم السنة على الرأي المجرد ولا يعترض على الأئمة المجتهدين، ويعمل بالكتاب والسنة ويحملهما على ظواهرهما دون تأويل، وكان يجعل الحديث مفسراً لكتاب الله، وإذا لم يجد فيهما ما يريد أفتى بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم

من المجتهدين، ولا يبالي لومة لائم في القيام على هذا المنهاج، وكان يعظم الأئمة ولا سيما الإمام البخاري والإمام أحمد وثقبي بن مخلد والطبري وابن حزم، ويقدم من كتب الحديث الموطأ ثم الصحيحين على الكتب كلها، ونفر عنه بعض رفقائه لهجرة التقليد وقوله إذا ثبت الحديث يقيناً فالتقليد إشراك في الرسالة وكان شديد التحري في إثبات الصفات على ما جاء في الكتاب والسنة على ظاهرها وينكر على المؤلفين إنكارا شديداً، ظهر هذا منه أيام الشريف حسين حينما حج واجتمع بعلماء الحرمين، فكان موضع إجلال في مناظراته معهم.

من أكابر مشايخه شيخ الكل السيد نذير حسين الدهلوي المحدث الذي انتهت إليه الرحلة في زمانه. والمحدث محمد حسين البثالوي، والشيخ أبو محمد الطنافسي وأحمد بن سالم البغدادي، والشيخ عبد الرب الغيطي، والشيخ حسين بن حيدر القرشي والشيخ أبو الفضل القنبري وغيرهم نحو أكثر من ثلاثين شيخاً. وكان رحمه الله خطيبا جهوري الصوت، إذا كان في الخلاء يسمع من نحو ثلاثة كيلومترات، خطب مرة في دار المهاجرين بالعتيبية فأسمع من بالبيبان بدون ميكرفون وهو شيخ كبير في حفل أقيم على شرف الأمير عبد الله بن سعود أيام تأسيس دار المهاجرين، وكان سريع الخط رديئه سريع المشي، مقداما شجاعاً يجيد الفروسية والرمي والسباحة قام بتدريس الحديث بالهند قبل أن تكون باكستان أكثر من أربعين سنة، وقام بالتدريس بالمسجد الحرام ودار الحديث بمكة أكثر من خمس وعشرين سنة أخذ عنه إجازة الرواية مئات من العلماء والطلبة وعلى رأسهم بعض كبار المشايخ بنجد والبلد الحرام لأنه صاحب سند عال، وصاحب طرائق متعددة في الروايات واتصال الأسانيد، لذا تجد تلامذته في أنحاء الدنيا شرقاً وغرباً، أنجب خمسة وعشرين ولدا، تسعة منهم على قيد

الحياة، تزوج سبعاً من النساء في فترات مختلفة، أكمل شرح صحيح البخاري في عدة مجلدات، وتفسير القرآن في عدة أجزاء، وشرح المسند الحنبلي وأكمل منه أجزاء، وجمع رجال المسند في مجلد، وفهرسة المسند في مجلد، وله مسند الصحيحين في سبعة مجلدات ضخام أمر بطبعه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وله مصنف الصحيحين في ثمانية أجزاء سيطبع أيضا على نفقة دار البحوث والإفتاء والإرشاد، وله شرح مقدمة صحيح مسلم، وأسماء رجال الصحيحين، في مجلد ضخم وشروح الألفيات في المصطلح، وشرح كتاب التوحيد للبخاري، وشرح تراجم أبواب البخاري في مجلدين إلى غير ذلك من الرسائل العلمية في مختلف المباحث، وكان صحيح البخاري لا يفارقه، ولا يند عنه حديث في السنن والمسانيد وكان حافظاً راوية. وكان زاهدا في الدنيا يحب نشر العلم، ولا يتقاضى على التدريس أجراً البتة اللهم إلا ما رتبت له الحكومة ودار الحديث في أخرياته. وكان هو أحد زعماء أهل الحديث بالهند ـ الباكستان حالياً _ شهيراً بها فلما اتصل خبره بسماحة الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة استصدر موافقة جلالة الملك عبد العزيز على استجلابه من هناك ليكون مدرساً بالمسجد الحرام، ولم ينقطع عن التدريس إلا أياماً مات بعدها ودفن بالبقيع بجوار الإمام مالك رحمه الله.

الشيخ محمّد العلي التركي

- وهذا الشيخ لم أتتلمذ عليه.. ولم أكن من حاضري حلقة للدرس.. فما أكثر فيما عرفته عنه مشافهة أتحفني بها أو مكاتبة راسلني بها أو حدباً وعوناً حتى الإغاثة أنقذني بها من مغرض لو أجريت الحساب فيما صنعته له أو فيما صنعه لي لكنت الراجح في إحسان إليه.. أعني هذا المغرض.. فقد ملك أن يلعب بمصيري.. ولكن الشيخ محمد العلي التركي قد أعان فإذا بي أعين أستاذاً في المدرسة ألقي الدروس على الذين كانوا زملاء التلمذة في فصول كان فصلي قبله.

ما كان أكثر هذا الشيخ محمد العلي التركي بهذا كله.. وما كان أقله في أن يأخذ مني ومن كل الذين صنع لهم المعروف أي جزاء.. وما كان أقله طلابا في حلقته.. وما كان أجله متحدثا إلى الكثيرين.. يطرح المشكلة ليدير الحوار كأنما هو قد عرف أن الحوار هو الأستاذ.. فمن يحترف الحوار يتعلم منه ويعلم به..

من هنا عرفت عنه الكثير . . رجل إصلاح . . جريئاً وصريحا . . لا يداري ولا يماري . لا يصانع الأقوياء . . ويخفض جناح الرحمة والعون للضعفاء .

وهذا الشيخ لما كنا نسمع به. . ولم نعرفه . . فمن بداية الثلاثينات إلى

أوائل الأربعينات ما كنا نعرف عنه شيئاً.. لأنه لم يكن قد وصل إلى المدينة حينذاك. . وفي بداية الأربعينات قبل أن يتم الضم لهذا الكيان الكبير فجأة وفي المسجد النبوي. . فبعد عصر يوم كنت وإخواني محمد سالم الحجيلي ومحمد إياس توفيق يرحمه الله ومحمد نيازي وعلى كماخي في حلقة الدرس أمام شيخنا وأستاذنا السيد محمد صقر. . نقرأ في النحو كتاب (قطر الندى) لابن هشام. . فإذا إنسان قد وقف على الحلقة يسمع الدرس. . رأيناه أبيض الثياب من قماش جيد يلبس عباءة من النوع المسمى (أبو شهر) من غزل فارس. . من وبر النوق. . كان أحلى المشالح وأغلاها. . من يومها عشقت هذا المشلح . . ذكرت هذا الترف في اللباس لأنه بعد ذلك ترك الترف ولبس الشظف. . الثوب من (الدوت) والمشلح من أقل الأنواع. . بل إنه في آخر الأمر ترك المشلح يتخفف منه كأنه قد زهد في أي زينة. . سألناه عنه فعرفنا اسمه. . وكان من دأبه أن يدور على حلقات الدرس في المسجد النبوي الشريف. . يقف على حلقة إبراهيم البري، والشيخ حميدة، والشيخ عبد القادر شلبي، والألفا هاشم.. يريد أن يعرف فقد كان يجل طلبة العلم والعلماء.. كان حنبلي المذهب.. ولم يكن أشعرياً ولا توريديا. . لكنه لم يغاضب أحدا ممن خالف مذهبه . . ولم يجف واحداً من هؤلاء.. سماحة خلق.. ونظافة وجدان.. وحين عرف أن من السياسة الحصيفة. . سياسة الملك البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله. . أن جلالته كان الحريص _ كل الحرص _ على تقريب البعيد. . فما أكثر ما قرب من هؤلاء. . عبد العزيز بن عبد الرحمن . . فحين عرف الشيخ ذلك توسط في عودة من يعرف من علماء المدينة أو أعيانها... كالشيخ عبد الحفيظ الكردي الكوراني جاء من العراق فتولى القضاء...

وكالشيخين الأخوين أبي بكر حماد وعمر حماد.. جاءا من موريس ومن الهند.. فقد كانا من قبل الأربعينات يبشران بالإسلام ويؤمان المصلين في المساجد.. رجعا إلى المدينة فتوليا القضاء.. وكالشيخ محمود عبد الجواد الذي كان رئيسا لبلدية المدينة جاء من إندونيسيا يسعد بأهله وأبنائه.. كانت هذه السياسة راحمة.. وكانت الشفاعة جالبة لتلك الرحمة.

وحين حضر الشيخ كامل القصاب الزعيم السوري ناشر العلم في دمشق. . يعرف قدر ذلك تلميذ مدرسة أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي حين حضر إلى المدينة جلس يسمع في حلقة الشيخ محمد العلي التركي فإذا هو يطريه كما يطري الشيخ حسن الشاعر يرحمه الله. . ونمت صداقة بين الشيخين القصاب ومحمد العلي التركي . وفي أزمة مرت بين الشيخ محمد العلي التركي والأعيان من أهل عنيزة على بعض من الخلاف . فالشيخ محمد العلي وأخوه إبراهيم التركي والد الصديق عبد الرحمن الإبراهيم التركي ووالد الصديق الدكتور منصور الإبراهيم العلي التركي مدير جامعة الرياض . ومعهما ناصر العبد الله العقيل ومحمد الدغيثر . فسمع القصاب الرياض . ومعهما ناصر العبد الله العقيل ومحمد الدغيثر . فسمع القصاب بهذا الخلاف فقال لي: اسأل لي أين الشيخ؟ وكان ذلك في عيد شوال في أواسط الأربعينيات . وسألت فإذا الجميع كلهم قد عيدوا في قباء في (بلاد) الشيخ عبد الله بن مسلم الحربي الميموني المحمادي والد صديقنا الشيخ حليت مسلم . .

وذهبت إلى الشيخ القصاب أقول له: لا يحتاج الأمر إلى أن تذهب فالجميع كلهم في مكان واحد على طعام واحد.. قال: سأذهب. فاستأجرت له عربة (كرو) وركبت أخدمه.. أدله الطريق.. فدخلنا قبل ظهيرة يوم.. فإذا هم محمد العلي التركي، إبراهيم العلي التركي، صالح

الإبراهيم القاضي، صالح العبد العزيز الميمان، عبد العزيز محمد الخريجي، ناصر العبد الله العقيل، محمد الدغيثر.. يجلسون في صفاء.. كأنما هم قد نظموا السلوك.. يقتلون الإشاعة عن الخلاف.. رجاحة العقول والحفاظ على الكرامة.. ولكن الشيخ القصاب أبى إلا أن يطرح السؤال عن الخلاف.. فإذا كل منهم يطرح رأيه.. ثم كلهم قالوا للقصاب.. إننا نحترم حضورك ونكبر مسعاك.. فقد انجلى الخلاف.

وكيف تأصلت علاقتى به؟ وذلك حين شكلت هيئة التفتيش والإصلاح أسسها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن برئاسة الشيخ حافظ وهبة وعضوية الشيخ محمد العلى التركى ومحمد سليمان التركى ومحمد وإبراهيم الصنيع وكلهم من القصيم. . وأحمد السبحي من مكة، وصالح نصيف من جدة. . فوصلوا إلى المدينة ليفتشوا ويصلحوا. . فعدلوا بعض الوظائف، وعينوا بعض الموظفين. . في مرحلة بعد مرحلة . . ثم زاروا المدرسة السعودية وكنت يومها خادما عند الشيخ عبد القادر شلبي شريكا معه في مدرسة خاصة لتلامذة خاصين. . كان قبل أن يعود إلى المدرسة يستقبل التلاميذ في المدرسة الجوهرجية وفيها رباط يسكنه طلاب علم. . ثم حين عاد إلى المدرسة بعد انتقال الشيخ أحمد كماخي إلى القضاء.. نقلنا هؤلاء التلامذة الخاصين وقد شكل منهم فصلان، فصل يلقي فيه الشيخ عبد القادر شلبي بعض الدروس، وفصل تكلفت بإلقاء الدروس فيه. . الجغرافيا والتاريخ ومبادىء الهندسة والحساب. . وكنت ساعتها ألقى الدرس ولم أدر أن هيئة التفتيش والإصلاح قد حضرت. . فإذا بي أرى صديقي محمد سالم الحجيلي قد أرسل إلي رسولا يدعوني إلى الصعود إلى مكتب المعتمد...

فدخلت وسلمت على الجميع. . فإذا الشيخ محمد العلي التركي يرحمه

الله. . يقول للشيخ عبد القادر يسمعه ثناءً علي ويسمعه أعضاء الهيئة كلهم. .

هذا الشيخ أستاذ على حافظ وعثمان حافظ وأحمد العربي وأحمد النقشبندي وهذا _ وقد أشار لى _ محمد حسين زيدان . . ثم قال _ وكأنه كلمته تسمع . . لا يقول له (لا) حتى حافظ وهبه _ يأمر محمد سالم الحجيلي . . يعين الأستاذ محمد حسين زيدان أستاذاً في المدرسة . . ثم يسأل الشيخ عبد القادر: لماذا لم يعين السيد محمد صقر أستاذاً في المدرسة كما كان؟ أكتب يعين السيد محمد صقر أستاذاً في المدرسة . . وافق الجميع . . فقال الشيخ عبد القادر شلبي بلهجته اللبنانية: زيدان (أصبحت رجل. . غير لباسك . . غير زيك) وكنت أتزين بزي أولاد الحارة . . لفة شال وحزام كشمير . . ولم أغضب. . بل ابتسمت وقلت للشيخ عبد القادر: ولم أنت تعرف أن كل شيء يلبس. . الذهب والحرير . . ولكن الأصغرين لا يلبسان . . فقال الشيخ محمد العلى التركي يرحمه الله. . إنهما منحة الله. . فقلت: اللَّهم امنحنا إياها. . وإذا الشيخ حافظ وهبة يرحمه الله يقول لي: قف على الخريطة. . فوقفت وسأل عن بعض الأنهار والخلجان والجزر . . وكنت وما زلت _ ولله الحمد _ أستاذ جغرافيا. . هذان كانا تلميذين بالأمس. . واليوم أستاذان لكم وثقوا أن حكومة الملك عبد العزيز لا تلجأ إلى أجنبي ما دام فيكم الأكفاء...

وأعلنت مديرية المعارف عن الابتعاث إلى مصر لثلاثة أشخاص.. فكتبت للشيخ محمد العلي التركي وهو في مكة أستأذنه.. فكتب إلي: لا تذهب. تزوج واحفظ مكانتك ومكانك.. ولم أذهب.. فذهب الثلاثة السيد محمد شطا والسيد أحمد العربي والسيد ولي الدين أسعد.. سبقونا إلى الخير ونرجو أن نلحق بهم.

والخاتمة أنه كان ذوّاقا للشعر.. كثير الإعجاب بالمتنبي طرح علي مرة هذا اللغز في بيتين من شعر المتنبى:

إن بعضاً من القريض هذاء ليس شيئا وبعضه أحكام منه ما يجلب البراعة والفض لل ومنه ما يجلب البرسام

فوقفت كيف رفع البراعة والفضل وأمامه الفضل يجلب. وكذا البرسام. حسبت بالعجلة أن القريض تجلبه البراعة والفضل، وبعضه يجلب البرسام. فإذا الشيخ يقول لي: لا.. إن القريض يأتي مجلوبا من البراعة والفضل، كما الخسيس يأتي من ضعف العقول.. فالأصل ما تجلبه البراعة والفضل. يعني أن الفضل والبراعة هي الجالبة.

يرحمه الله فقد كان يعرف قدر نفسه فما أهدرها يوماً عن مجاملة أو مخافة.

وأخيرا فإن ملاك أمر الشيخ الذي أحكمه فحجبه عن الكراهية وبغضه في البغضاء هو من حكم هذه الآية الكريمة التي طالما يتلوها كثيرا ويرتلها ترتيلا فإذا هو ينقاد لحكمها ويقتاده التذوق لبيانها، هذه الآية هي:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَا تَعْدِلُوا أَ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقُوكَ ﴾ (المائدة: ٨).

هكذا كان يرحمه الله لا ينحرف مع الكراهية ولا يحترف البغضاء.

الشيخ محمد الطيب الأنصاري

ـ الشيخ محمد الطيب الأنصاري والمعروف عند كثيرين. (الطيب التنبكتي) نسبة إلى المدينة الزاهرة بالعلماء على نهر النيجر الذي يسمونه (الميز) هو أنصاري غربت بأجداده تغريب الأقربين. . حتى إذا عاد إلى المدينة كانت له القربي عند الخاصة، فقد كان يرحمه الله لا يسترخص قيمته يتسول عواطف العامة. . كما كان يفعل بعض الذين خاصموه . . وعجب أمر هذا الشيخ الجليل. . كان من أواخر الذين سكنوا المدينة تنتظم به السلسلة الفضية من هؤلاء العلماء الذين عمروا المسجد النبوي من أوائل العشرينات إلى أوائل الأربعينات . . ولئن قدم المدينة أخيراً فقد أصبح أحد الأوائل فيها . . وليس من معرفتي أن أذكر نسبه سألزم بذلك ابنيه ابن التربية أستاذنا عبد القدوس الأنصاري وابن الصلب الدكتور عبد الرحمن الأنصاري، فأنا لا أطالب نفسى أترجم نسبه لأني لم أعرف. . وإنما ألزم نفسى بأن أشيد بحسبه . . وسببه . فالحب نظيف والسبب شريف. ولم يبطئ به نسبه وإنما أسرع به حسبه. . كان ملء السمع والبصر لدى عارفيه، ولدى الذين خاصموه. . فلو لم يكن ذا قيمة وعلى القيمة لما أتعبوا أنفسهم يستجدون عواطف العامة ضده. . ذلك أنه أتعبهم إذ لم ينالوا منه . . ولم يرحهم حينما استحوذ على الخاصة يعلمهم . . دروس في المسجد. . وأستاذ في دار العلوم الشرعية. . وأستاذ كلف أخيراً بتدريس عقيدة التوحيد على مذهب السلف في المدرسة السعودية. سمعت عنه أول الأمر ولم أسمع منه.. سمعت ما كرهت أن يقال عنه.. ذلك أني لا أطيق أن يسب عالم أمامي.. مهما ذكروا عنه مما عابوه عليه.. لم أتعلق بجفوة نحوه وصحيح أن كل ذلك أبعدني عنه لا أكون من بين الخاصة الذين يتعلمون منه. لقد أنعم الله علي أن أحترم هذه الوصية التي أوصى بها زياد بن أبيه.. فقبل أن أسمعها و أقرأها كنت أعيش في نعماء.. قال زياد - وهو أمير - (أوصيكم بثلاثة.. بالعالم والشريف والشيخ - فإن جاؤني بشاب حقر شيخا، أو وضيع أهان شريفاً، أو جاهل أهان عالماً لأسرعت بالعقوبة فأسرفت..).

من هذا كان إجلالي للشيخ الطيب الأنصاري.. لقد كان إماماً في النحو.. وفقيها في الفقه.. ولم يكن يتفنج. يتحلى بالتواضع.. يلبس الزهادة.. كأنه قد انفلت من عصر الزهاد إلى عصر قل فيه الزاهد.. فالزهادة علمته أن يصون لسانه.. فحين تعرفت عليه وعاشرته في زورة بعد أخرى لم أسمع منه معابة لأحد خصومه.. والزهادة أعطته ألا يرخص قيمة مع العامة فأعطته الاعتلاء حين احتفى به كل الخاصة ـ أصدقاء وتلامذة ـ فمن نعمة الله عليه أن كان له أصدقاء لم يعلنوا حمايته، وإنما عرفها الذين يخافون الأقوياء..

شيخ كريم هو إبراهيم البري له عمق العراقة في المدينة المنورة. . لم يتصد لجفوة الشيخ الطيب. . بل كان ابنه عمر البري أحد الذين جلسوا إلى الشيخ يتعلمون منه. .

ومن تلامذته _ وهم الخاصة _ بقية الناس . السيد عبيد مدني _ وأستاذنا رئيس رابطة العالم الإسلامي الشيخ محمد بن علي الحركان، والأستاذ الذي علمته «ألف باء»، ثم تعلمت منه (ألم) أبو حمزة ضياء الدين

رجب، ومن أهله - أعني الشيخ - أستاذنا عبد القدوس الأنصاري، ومحمد عبد الله - طيب الذكر يرحمه الله - والذي أبلغني وأنا في حوار معه، أنه قد ألف كتاباً سماه (الباز المنقض على من قال بكروية الأرض) فجرى حوار بيني وبينه لم أقتنع ولم يقتنع. ومن تلامذة حلقة الأستاذ حمزة أضلني وغيرهم كثير..

وكان الشيخ الطيب ثالث ثلاثة تزينت بهم مدرسة العلوم الشرعية التي أسسها الشيخ أحمد الفيض أبادي. لقد كان هؤلاء الثلاثة كباراً في علمهم وتعاملهم وحنانهم على التلاميذ. والغريب أن كلهم أفارقة. مغربيان هما الشيخ محمد الأمين الليبي الزاهد التقي. الواسع المعرفة. كأنه قد أنتزع من ذلك العصر. عصر الموسوعيين. هو الأستاذ الذي أهدانا الصديق محمد عمر توفيق. والثاني هو الشيخ محمد عبد القادر الكيلاني الخفي عن الكثير. والبين كل الإبانة لدى من اختصه. لقد كان تونسيا صديقاً لعبد العزيز الثعالبي، ومصرياً تلميذاً لمحمد عبده. وتركيا قاضياً في أزمير. ويونانياً رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى في كريت. ومدنياً أستاذا في دار العلوم الشرعية. أما الثالث فهو الشيخ الطيب الأنصاري وكان أكثر من هذين تلامذة وتأثيرا.

لا أريد أن أذكر من خاصموه. ولا من لح في ذلك الحاجة على مدرسة العلوم الشرعية. . لقد أسقطت هذا اللجاج، فإذا أنا لمدرسة العلوم الشرعية صديق وحامد. .

وكيف عرفت الشيخ محمد الطيب الأنصاري، ذلك حين زار المدرسة السعودية، وكنت أحد الأساتذة بها، الشيخ رئيس القضاة، عبد الله بن حسن آل الشيخ. . فإذا هو يجد أن دروس التوحيد في متن السنوسية

والجوهرة للباقلاني.. فحزم أمره حين أقصى الشيخ عبد القادر الشلبي عن العمادة في المدرسة بعد جدل في موضوع يخالف ما عليه الشيخ عبد الله بن حسن، فأصر قاضي القضاة على أن تكون دروس التوحيد في المدرسة كلها بقسميها التحضيري والابتدائي.. فلا يدرس إلا كتابا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب _ كتاب الثلاثة الأصول والعقيدة الواسطية _ وكلف الشيخ محمد الطيب الأنصاري أن يقوم بكل ذلك..

وجاء الشيخ الطيب ينفذ التكليف فرحب به المدير والأساتذة ترحيب المجاملة، وتركوا له أن يلقي الدروس في العقيدة على ثلاثة عشر فصلا فأحرجوه.. إن ذلك يعطله عن دروسه في دار العلوم الشرعية.. وحتى عن حلقاته في المسجد.. وحين رأيت الحرج على الشيخ ـ وكنت حاضرا ـ أنعم الله علي بأن أكون معه لا يكلف بهذا التكليف.. فقلت دون أن أستأذن المدير والزملاء وأكثرهم أساتذتي.. ارفعوا عني دروس المحفوظات والتاريخ في القسم التحضيري.. فإني أستأذن الشيخ أن يلقنني كتاب الثلاثة الأصول أقوم بتدريسها في الفصول التي قررت فيها.. وهو يقوم بتدريس العقيدة الواسطية، وانفرجت أسارير الشيخ، وازورت بعض الوجوه.. وأعانني الله على ذلك.. من يومها عرفني الشيخ فحباني بعطفه.. فكنت أزوره لأسأله.. أو أسلم عليه.

ومرة وجد ابن الصديق الدكتور عبد الرحمن الأنصاري في القماط وهو بجانبه وقد كان وعكاً مصابا ببعض الحساسية. فقلت للشيخ لعلّها الوراثة. فقال الشيخ: (لا أؤمن بالوراثة) قلت: بل تؤمن بها (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) ولعلّه عرق انتزعه فقال بكل السماحة والرجاحة: أهذه هي الوراثة؟ قلت: نعم. قال: آمنت بالوراثة.

وفي عصر يوم قبيل المغرب وفي المسجد النبوي ـ مر فوقف يسألني

عن كتاب في يدي. قلت إنه كتاب في الجغرافيا.. قال: وما الجغرافيا؟ قلت: اسأل ياقوت الحموي وتقويم البلدان.. قال: هات.. فأخذه مني وبعد أيام رده إلي فقال: كل ما فيه طيب.. الجبال والأنهار والقارات والجزر.. لكنى لا أؤمن بكروية الأرض..

ورحلت من المدينة وتوفاه الله وأنا بعيد عنها في مكة.

ونعود إلى قواعدنا سالمين. بعد أن حبسنا حابس الفيل لا نخوض القال والقيل. ولم يكن ذلك الحابس عن تعجيز الكرب النفسية. أو ما إلى ذلك. من كسل الفصل. وتطلع العقل إلى ما يحمد. نعود إلى قواعدنا نكتب عن الأشياخ. فحين كنا في المجاعة تحيط بنا الأمية والجهل، وجدنا الغوث عند هؤلاء الأشياخ، سواء كانوا من شيوخ الكتاتيب، أو من مشيخة الأساتذة المدرسين في المدرسة، أو من شيوخنا العلماء في المسجد النبوي. فبعضهم كنا به ومعه وله، وكان بكل ما لديه لنا أبا ومعلما، وبعضهم لم نكن به، وكان لزاماً أن نكون له، فطالب العلم ينبغي أن يحترم أستاذ العلم، ومن هؤلاء الأشياخ الذين سأكتب عنهم، والذين عمروا المسجد النبوي، فلعلّي قبل أن أبدأ باليسير من سيرة الشيخ محمد الطيب الأنصاري المعروف عند العامة (بالتنبكتي).

قبل أن أبدأ الكتابة عنه أسرد أسماء الذين عرفناهم أصحاب حلقات في المسجد، أحرض الذين تخرجوا من المسجد وشغلتهم شواغل أخرى، أن تكون لهم حلقات..

إن المسجد النبوي قد عمر بالعلماء وبكثرة وافرة، فمن أوائل العشرينات الهجرية إلى أواسط الثلاثينات كثر العلماء من كل الأقطار المسلمة.. سواء الذين أحبوا الإقامة في المدينة أو الذين هربوا من ظلم

الاستعمار في المغرب العربي وفي الهند.

إن هؤلاء الذين كثر وجودهم في المسجد من العلماء منهم من الذين ولدوا ومن أعراق قديمة فيها كالسيد أحمد البرزنجي وابنه السيد زكي البرزنجي، والشيخ إبراهيم البري وابنه عمر البري.. والشيخ عمر كردي الكوراني حفيد صاحب السند العالى إبراهيم الكردي الكوراني الذي اتصل به شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أيام وجوده في المدينة المنورة... وقبل هؤلاء كان العلامة الجليل عبد الجليل براده وصديقه وصفيه إبراهيم الأسكوبي. . أما الذين أصبحوا من أهل المدينة حقا فأقاموا فيها يعمرون المسجد فأكثرهم من المغاربة _ تونسيون وجزائريون ومراكشيون _ أمثال شيخ الشيوخ حمدان بن الونيس الذي أخذ عنه الأمير شكيب أرسلان الكثير وأعجب به، ومن ذلك الحديث (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصعة) قالوا أمن قلة يا رسول الله؟ قال: بل غثاء كغثاء السيل. . إن ما يدرككم الوهن، قالوا وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الأخرة. . وفي رواية حب الحياة وكراهية الموت. . أو كما قال عليه الصلاة والسلام. . ذكر ذلك أبو غالب بن ماء السماء الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على الكتاب (حاضر العالم الإسلامي) ترجمه إلى العربية الكاتب العربي الدرزي عجاج نويهض، وقد امتلاً بتعليقات الأمير فإذا الكتاب يصبح مرجعاً.

ومن هؤلاء العلماء المغاربة عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والعزيز بن الوزير شيخ شيخي السيد محمد صقر. . والشيخ الحبيب، وحميده، والبيضاوي، والشيخ محمد العمري.

ومن شنقيط الخضر بن مايا الجنكي والد صديقنا محمد الأمين سفير

الأردن سابقا.. ومن أفريقيا السمراء (الألفا هاشم) ومحمد الطيب الأنصاري ومن لبنان وطرابلس الشيخ عبد القادر الشلبي.. ومن الهند الشيخ عبد الباقي الأنصاري والشيخ خليل أحمد (بذل المجهود) شرحا على أبي داوود. والشيخ السيد حسين أحمد وهما من جامعة بيوباند وكانوا أهل حديث ينتصرون لمذهب أبي حنيفة على طريقة محمد بن الحسن والطحاوي.. فالسيد حسين أحمد هو الرجل الثاني من هؤلاء العلماء الذين أعجب بهم الأمير شكيب أرسلان، فالأمير ينبغي ألا يفوتنا أنه جاء ثالث ثلاثة.. عبد العزيز جاويش أحد أعلام الحزب الوطني ـ حزب مصطفى كامل.. وعبد القادر المغربي علامة دمشق، والأمير شكيب.. جاؤوا لتأسيس الكلية الإسلامية التي أقاموا قواعدها غرب التكية المصرية وشرق محطة القطار.. فعاجلتهم الحرب ولم تؤسس الكلية.. ولا أنسى الشيخين محمد العلي التركي وصالح الزغيبي من أعيان القصيم وأكابر مدينة عنيزة..

إن عبد الحميد بن باديس زعيم الثورة في الجزائر ومربي أجيالها عاد مسرعا إلى الجزائر يحمد للسيد حسين أحمد (عم السيد حبيب) أنه قد نصحه حين قال له: لماذا هجرت الجزائر تقيم في المدينة؟ أتحسب أن هذا تصنع به استقلال الجزائر وتحارب به استعمار فرنسا؟ عد إلى الجزائر فالجهاد هناك. سمعها بن باديس وعاد. فكأنما السيد حسين أحمد قد نظم الخطة لجهاد الجزائر في المسجد النبوي. .

هذه المقدمة وجدت لزاما علي أن أذكرها كأنما أفهرس بها الأسماء التي سأكتب عنها بقدر ما أعرف أو بالقدر الذي أتعلمه من غيري إن وافاني أحدهم بما يفيد..

الشيخ محمد عبد القادر الكيلاني

وهذا الشيخ ما كنا نعرفه في أوائل الخمسينيات ولا أدرى هل وصل إلى المدينة المنورة في أواخر الأربعينيات. فتخفى عن طلبة العلم أم إنه وصل إليها بعد. ذلك أنى وقد سافرت إلى الهند في جمادي الأخرى ١٣٥٢ هـ لم أكن أعلم أنه في المدينة ورجعت بعد ستة أشهر غبتها في الهند الإمبراطورية فإذا بي أجد إخواني وعلى رأسهم أستاذنا ماجد عشقى ملتفين حول هذا الشيخ، فالإخوان هم عبد الحق النقشبندي، عثمان حافظ. عبد الحميد عنبر يرحمه الله وفهمي الحشاني. وكانوا يسهرون كل ليلة عند واحد منهم يقرأون عليه مقدمة ابن خلدون. فانتظمت لأكون معه وابتدأنا أن نقرأ كتاباً آخر هو (الجمعيات السرية والحركات الهدامة) لأستاذنا المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان المصري. ولولعه بتاريخ الأندلس أنسبه أندلسياً. وكان هذا الكتاب جديداً عليه أغراني به ما تحدث إلى الشيخ الكيلاني فيه عن الماسونية. وبعده قرأنا كتاباً لعبد الله عنان اسمه (ديوان التحقيق) عن رزايا محاكم التفتيش في الأندلس التي مارسها التعصب الديني في تلك الأيام ولا أنسى أن هذه الكتب الجديدة يرجع الفضل في جلبها إلى المكتبة التي أسسها عبد الحق النقشبندي وعثمان حافظ. فلهما الفضل في جلب الكتاب والمجلة والجريدة نقرأ ذلك. نكسب من كل ذلك روافد ثقافية. عرفت الشيخ ببعض الفهم. وبكثير من التفهم له. نعرف بعض ما يعطينا

ولا نعرف عنه الكثير. فهو يتكتم كأنه قد خسر زعامة أو سقطت في يد عرفيه فضائل مساعيه. فالشيخ والداعية لا يخسر نفسه إلا أن يأتيه الخسران من الذين أعطاهم كل ما لديه من الخير فقابلوه بكل ما فيهم من الشر.

ومن هو الشيخ محمد عبد القادر الكيلاني؟ هو تونسي تعلم في جمع الزيتونة فأصبح مصريا تعلم في الأزهر، وعلى من؟ على الأستاذ الإمام محمد عبده. وجلس إلى جمال الدين الأفغاني فغلبت عليه عقلانية جمال الدين ومعقول محمد عبده فإذا هو على غير النهج الذي سار عليه العالم السلفى صاحب المنار الطرابلسى اللبناني المصري محمد رشيد رضا.

ولعلّ عمق المغاربة قد صانه ألا يكون على سطحية بعض المشارق. ولا أدري كيف رحل من مصر إلى تركيا. لعلّه لم يجد مجالا فيها ولا صيالا بها أو لعلّه يلحق بجمال الدين. فسافر إلى تركيا. وكانت الآستانة القسطنطينية استانبول، عاصمة الخلافة العثمانية مليئة بكبار من العرب ولا أعني بهؤلاء الكبار عزت العابد الدمشقي أبا الهدى الصيادي الشامي أو أحمد أسعد المدني أو الشيخ محمد ظافر المدني الليبي. فذلك عهد قد زال بزوال السلطان عبد الحميد، وإنما أعني الأمير شكيب أرسلان والخضر حسين وصالح الشريف ومن معه من بعض الضباط الكبار كمحمود شوكت بطل الانقلاب العثماني وهو عراقي بغدادي أخوه حكمت سليمان صاحب ثورة بكر صدقي بعد في العراق والأخوان ياسين الهاشمي وطه الهاشمي ومن إليهم كنور السعيد وأمين الحسين وحسني العلي المقدسي. كان هؤلاء وأكثر منهم في تركيا. بعضهم كالأمير شكيب من دعاة الجامعة الإسلامية ضد القومية العربية وبعضهم قوميون عرب كأثر الضباط الذين ذكرنا ومن أمثال شيخنا الكيلاني.

وكنا نسميه ابن خلدون حين قرأنا عليه المقدمة. فلا يعرف في المدينة

إلا بهذا الاسم. كان لا يرفضه لأنه يعتز بتونس وأبنائها وابن خلدون تونسي وكان أكثر ما يعتز بالتونسي العظيم الزعيم عبد العزيز الثعالبي إذا ما ذكر أمامه قال: «بخ بخ . به به . عزيز تونس الثعالبي» وحين عرفت أن القومية العربية شغله الشاغل قلت له ما أحرى أن نستبدل اللقب ليكون أبو خلدون لا ابن خلدون أعني ساطع الحصري. قال: لولا ابن خلدون وحماسة ساطع ضده لما عرف ساطع الحصري القيم التي يدافع عنها في القومية العربية . لم يرض بتغيير اللقب . فالحب لتونس متعة الغريب عنها فهو يقول عن تونس ونس ورثنا حضارة الأندلس فعمق الحضارة الأندلسية في تونس وليس بغيرها وأصبح التونسي المصري تركي قاضياً في أزمير رئيساً للمجلس الإسلامي في جزيرة كريت .

وكان الشيخ ضنينا بأن نعرف عنه. ولم يكن باخلا في أن نعرف منه. فقد عرفنا منه الماسونية والنهالست قبل أن نقرأ لعنان. وعرفنا منه أن المسجد النبوي بهذه الهندسة الرائعة بني على طراز أيا صوفيا. ولتعصبه للعروبة كان يتمنى أن يبني المسجد النبوي على طراز عربي أندلسي. ومات قبل أن تتحقق أمنيته بهذه الإضافة التي بناها ورفع بنيانها الملك البطل عبد الرحمن يرحمه الله.

فالإضافة هذه تحققت بها أمنيته فهي على طراز عربي. كأنما المسجد النبوي الآن قد جمع شرف المعمار بطراز روماني وطراز عربي والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها.

ويرحم الله السلطان عبد المجيد العثماني. كما هي الرحمة تتغشى المرحوم الملك عبد العزيز فقد صنع كل منهما مجد التاريخ لهما وتاريخ المجد لأمتهما المسلمة.

وللشيخ نظرات في الرجال عنيد في التباعد عن بعضهم، فهو لا يطيق شوقى ولا شكيب أرسلان. ويهتز لذكر حافظ إبراهيم وإذا ما ذكر واحد من الذين يعجبونه يقول: «به.. به عزام» يعنى عبد الرحمن عزام.. به به محمد محمود. . به به الولد عفیفی . به به الولد رشدی أرص أصبح وزیر خارجية تركيا فهل كان يعرف هؤلاء معرفة شخصية، حتى يبهبه لهم بهذه البخبخة؟ أنا لا أشك أنه كان لا يعرف حافظ باشا عفيفي وكان يعرف رشدي أرص. ولكني وفي ضحى يوم أمسكت بمجلة الفتح يصدرها السيد النبيل من بيت هو من أكابر بيوت دمشق. السلفي محب الدين الخطيب. وإذا في مجلة الفتح القصيدة التائية. رثاء أرسلان لأحمد شوقي يرحمه الله. طربت من هذه القصيدة فأنا أحب شوقى وأحب شكيب أرسلان. ولم تطغ على كراهية الأستاذ لهما فذهبت إلى مسكنه في مدخل الساحة «من كومة حشيفة إلى رباط مظهر» فقد كان الشيخ يسكن غرفة في الرباط والأول مرة أدخلها ومعى مجلة الفتح. كان الزجاج كأساً لم أجده نظيفاً في مكان آخر كنظافته في يد الشيخ. والفراش حنبل مغربي. قد زانته الفتوق بالنظافة التي كانت عليه كأنما زرياب قد وضع طابعه على الشيخ. وجلست أقرأ له القصيدة. فتأبى أول الأمر أن يسمع شعر شكيب في رثاء شوقي قلت له: متعنى أن تسمع. فقرأتها حتى إذا وصلت إلى هذا البيت:

كالسيف في إمضائه ووضائه والليث في وثباته وثباته وثباته وثباته رفع الشيخ صوته يقول: به به أبو غالب. وبه أبو علي أحمد شوقي أحسنت إلي يا ولد. نزعت من صدري بعض الغل. ودمعت عيناه. فإذا هو يبهبه يبخبخ لشوقي ولشكيب. ذلك صفاء القلوب. يوم تحين ساعة الصفاء.

وكان جالسا أمام الرباط فإذا حاج من المغرب وقف عليه. وكأنما هو قد عرف مقامه في المدينة فدلوه عليه. فقال له: أأنت دعوتنا لمكافحة المواضي؟ فأسرع الشيخ يقول له: ليعلم أننا أبناء ماض.

دعتنا لمكافحة المواضي أجبناها وقد كانت نواض ندير رحاتنا بدماء قوم ليعلم أننا أبناء ماض لعمر أبيك ما يجدي التوقي إذا كان الدفاع عن الحياض

ذكر المغربي الشيخ بهذه القصيدة التي ما حفظت منها إلا هذه الأبيات. وكانت تكريما للمجاهد البطل عبد الكريم الريفي يوم كان يحارب الأسبان في المغرب.

وشقى الشيخ بالغربة. وإن أسعده الجوار بالمدينة فإذا هو يسعى للقمة العيش أستاذا في دار العلوم الشرعية يتوارى عن الناس لا يعرفه إلا القلة. ويحفظ قيمته الأجلة وكان إذا ضاق يذهب إلى زورة أسبوعية. إلى بيت الصديق الحميم الابن الحبيب السيد إبراهيم الرفاعي يستقبله بكل الترحيب ليسمع أغنية لمحمد عبد الوهاب أو لأم كلثوم أو يسمع نغمات البشرف الجزائري على العود. فقد كان السيد ضارب عود ما أحسن أن نسمعه على الآلة الموسيقية التي نسميها المزيكا التي كانت لعبة الأطفال في الأعياد يسمونها «الزميرة» فأصبحت عدة الرجال يحبون الطرب فلا يجدون إلا الصفيح من التنك بدل الطارة وهذه الزميرة يجيدون العزف عليها بالنفخ بالفم. يحسنون كل الأنغام والبشارف. وفي يوم كنت جالساً في مكتبة النقشبندي وحافظ وهما جالسان فيها فإذا الشيخ وقد خرج من المسجد يدخل من باب الرحمة ويخرج إلى بيته من هذا الباب فالتفت فرآنا وكانت يده باقة. حزمة من (الفاغية) (زهرة الحنة) توجت بثلاث وردات. فدنا

منا وأعطاني الباقة يقول لي: أنت تستأهلها. كأنما يريد أن يغيظ النقشبندي وحافظ فقد كانا لا يعرفان ما لديه كل المعرفة أو أنه كان ضنينا عليهما. كنا الثلاثة الأصدقاء له السيد إبراهيم رفاعي وحسن خشيم يرحمه الله وكاتب هذه السطور يأنس بنا ونأنس به.

وفي يوم آخر، جلسنا في المكتبة وكان هو معنا. فإذا السيد إبراهيم رفاعي يمر مسرعاً لا يلتفت إلينا. فقال الشيخ هامساً يخاطبني:

ربإن الملاح جاروا علينا وتعدوا حدودهم فأجرنا

لم يسمعها غيري فطربت لهذا البيت حفظته بعد ذلك وبعد صلاة جمعة. على مدخل كومة حشيفة وأمام دكان حسن خشيم يرحمه الله.

وقفت معه نتحدث فإذا الخضر حسين التونسي المصري شيخ الأزهر وعضو مجمع فؤاد صاحب المواقف المشرفة في الدفاع عن اللغة والإسلام وقد خرج من المسجد فحين نظر إلى الشيخ الكيلاني سمر رجليه على الأرض يتأنى كأنما يريد أن يقبل على الشيخ. وكنت أعرف أن الخضر حسين وابن خلدون هذا أبناء خالة. فقلت للشيخ الكيلاني انظر الخضر حسين. تأنى لعلّه يقبل عليك. فلم يلتفت وقال: دعه ثم نطق بكلمة مالك بن أنس يوم قالوا هذا ابن اسحق دعوه دجال من الدجاجلة وما كان الخضر يستأهلها منه. كما كان ابن إسحق يستأهلها من ابن مالك. موضوع حققه ميارفة الرواة عدلا وتجريحاً. فإذا الخضر يمشي وعليه مسحة ألم. وبعده مر الشيخ صالح التونسي ابن الفضيل. وكان الخضر ضيفا عليه والشيخ صالح التونسي كان زوجاً لابنة أخي الخضر. واسألوا الأستاذ عبد الرحمن التونسي عن ذلك. فإذا ابن الفضيل يقف يتأنى. قلت له: وهذا تونسي

آخر. أسألك بحب تونس أن تلتفت إليه. قال: دعه. واسمع يا ولد. إياك وأن تكون نهباً لبعض الأشياخ.

وكما قلت. كنا لا نعرف الكثير عنه. وعن طريق المصادفة ذهبت أنا والأستاذ الصديق عبد الحق النقشبندي إلى العنبرية نزور محمد أسد المستعرب النمساوي. وكان قد أعلن إسلامه وكنا نواصله قبل أن نفترق عنه. وكان محمد أسد ساكنا في بيت من بيوت الترجمان على مشارف بطحان وأمام دار الحكومة حينذاك فطرقنا الباب فإذا هو يفتح ويخرج منه رجال ثلاثة كأنما هم قد فوجئوا بطرق الباب. وهم: خالد أبو الوليد، والشيخ محمد الكيلاني والزعيم التركستاني (موسى جار الله) كبار من الرجال من الذي جمعهم. هل كانت المصادفة؟ أم كان الشيخ يعرف أبا الوليد حينما كان في تركيا ويعرف زعيم التركستان؟ أغلب الظن أن كلا منهم يعرف الآخر وإلا فلا معنى أن يخرجوا دفعة واحدة حينما فوجئوا بطرق الباب.

وقد كانت صفاقة منا أن نزور رجلا كهذا دون موعد. لكن الأدب منعنا أن نذكر ذلك إلا في هذه اللحظة.

ولعلّ الشيخ كان يتخفى أو يخفي بعض أسراره. فهناك حكاية وقعت بينه وبين المستشرق الإنجليزي «عبد الله فلبي» «جون فلبي» وكان حينذاك في المدينة وقد ذهب الشيخ إلى المستشفى وكنت أظن أنه لا يعرف الدكتور سعيد مصطفى ذهب ليزور الدكتور وكأني أتهم الشيخ بأنه على معرفة بالدكتور سعيد مصطفى عن طريق معرفته لأخيه قائد الجيش المرابض أيام الحرب العامة الثانية يوسف بك مصطفى وعن طريق عبد الرحمن باشا عزام. وحين دخل إلى مكتب الدكتور وجد الحاج عبد الله فلبي كما كان

يحب أن يذكر بهذا الاسم. فإذا عبد الله فلبي يدير حواراً مع الشيخ يقول له: أليس الإنسان من أكمل خلق الله فكيف أستطيع أن أقتنع بأن من الإنسان من يدخل النار؟ فقال الشيخ: إن من الإنسان من لا تدخل عليه إلا بإذن ومن إمبراطور لا تدخل عليه إلا راكعا ومن الإنسان من يكنس الشارع وتنهره إذا ما قصر في خدمتك.

فقال فلبي: إجابة رصينة. لكني لا أقتنع.

فقل الشيخ: إن منجم الفحم يخرج منه نوعان من الفحم أسود يحترق ترمى نفاياه في الزبالة. وأبيض يبلور ألماسا تزين به التيجان وعود الجميلات. فكيف تم ذلك؟ الإنسان بالمعصية كالفحم الحجري. والإنسان بالطاعة والإيمان كالألماس.

قال فلبي: إجابة معقولة ولكني لم أقتنع.

قال الشيخ: إن الإسلام إذا ما درسته وجدت نفسك تقتنع فلا يوجد فيه كهنوت يفرض عليك القناعة لعطاء المغفرة. فالمغفرة من عطاء الله رحمة وغفراناً.

ومات الشيخ.. فشيعناه وعجزنا أن نعرف بناته وأبناءه في تركيا. فقد ذكر لنا ذلك وحرمنا أن نرسل تعازينا يرحم الله الشيخ فقد كان عالماً عقلانياً ومسلماً صحيح العقيدة ولا أنسى في آخر مرة قال لي: لديكم شعار ثمين كلمة التوحيد والسيف والنخلة. قلت كلمة التوحيد عرفناها. والسيف سلاح الجهاد والنخلة طعام المجاهد.

قال بخ بخ. لكني أعني كل ذلك وأجد في النخلة شيئاً آخر هو جريدها يجلد به الفساق والمجرمون فحين تحافظون على كلمة التوحيد وعلى ثمر النخلة وجريد النخلة؟ لا أخشى عليكم.

وعنه تلقيت هذا التعريف للزعامة. فقال: إن الزعامة روح الشعب يتطلبها لتحقيق آماله حفاظاً على ماضيه وبناءً لحاضره ومستقبله روح الشعب تصنع الزعامة ونجاح الزعامة لا يستقر إلا باقتناع الشعب. ثم قال: كنت في جزيرة كريت وجلست في مقهى أتحدث إلى الزعيم اليوناني فينسولوز وكان بعيدا عن الحكم فرفع صوته يقول ليسمعه فلاحون يونانيون جاؤوا من القرى على حميرهم وجلسوا قريباً منا في المقهى فقال فينسولوز إن اليونان لن يعيد بناءها ويصح أمرها إلا عودة فينسولوز إلى السلطان ولبثنا أياما فإذا كل الشعب اليوناني يقول همساً وجهراً أعيدوا فينسولوز.

هكذا الشعوب الواعية حين تسمع ما تريد يتحقق لها ما تريد.

صالح بن عثيمين

_ وما كدت أضع العنوان، أمليه على من يكتب لي، حتى قال لي: أله صورة في أرشيف الجريدة؟. قلت: لا. فهو شيخ يكره التصوير. فما عرفتني وقد نشرت له بعض ما كتب أتذكر أني قد وضعت له صورة . وحتى إن التلفاز قد حرمنا من أحاديثه . فالصورة له . أو كل تصور عنه . لم يك إلا من خلال التعريف به . عالماً . محدثاً . سلفي العقيدة كاتب مقالات . .

- فالشيخ صالح بن عثيمين. كان من حسن حظي أن عرفته، فقد تعلمت منه الكثير، وعرفت به الكثير. كان عالماً بحق قرأ الكتاب. وأثرى من علم الكتاب. لم يقتصر على بعض الكتب في الفقه، وإنما اعتصر من الأمهات صفوة سواء في التفسير أو الحديث وحتى اللغة نحوا وصرفاً. وقليل هم الذين بذلوا جهدا في تعلم الصرف، وأقلهم من استقام لسانه على أن يحسن الإلقاء والإبانة. بيان تشرق به اللغة الفصحى.

- عرفته حين زارني مراجعا، لأصرف له بعض ما خصص له من راتب شهري، وأجرة بيت سنوية.. وتحدث إلي فإذا في العباءة عالم، وإذا في الخباء طالب علم.. أو أعسرته الدنيا.. لأسباب بعضها منه.. وبعضها عليه.. ولعلّه لا يحب أن أذكره بها، أو حتى أن تذكر عنه.. حتى لو كان فيها ما يزينه ولا يشينه..

- _ كان طالب علم في بريدة، وهو من أهلها.. وكلف بهذه الصفة أن يكون أحد الدعاة في الهجر.. ثم رحل إلى عمان تارة في مسقط وتارة فيما حولها.. ثم رحل إلى الهند.. يعب علم الحديث عبا.. فإلى عالم الحديث في الهند.. انتهى علم الحديث فيهم.. فاشتغلوا بالدراية والرواية. على عكس المشرق.. قل فيه أهل الدراية.. واستكثر فيه بعض أهل الرواية.. قل أمثال بدر الدين الحسني المغربي الدمشقي ورشيد رضا وأحمد محمد شاكر..
- وكانت «بهويال» مدينة العلم «كأمرت سر» و«ديوبنت» وما إليها.. حتى إذا اكتمل عوده.. وامتلأ جرابه، وجمع خزينته من الكتب.. عاد إلى مسقط رأسه مدينة بريدة.
- _ وكان اتساع ما جمع من العلم، أصابه ببعض الضيق. . فسكن مكة . . يعمل أول مرة بإصلاح الساعات وما إلى ذلك، حتى إذا عرفه «قدهي المحمد» و«عبد الله بن دخيل» و«عبد العزيز القنيعير» و«عبد الله السعد» كان في كل ذلك متنفساً له وعوناً . .
- ثم عرفته بعد ذلك. . حتى إذا عرفه عبد الله بن عبيد. . خادم سمو الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الفيصل، تغمده الله برحمته فاتصل بسموه خصوصا في الطائف فوجد الإكرام عنده، وانفتح أمامه المجال، وتنفس يتحدث في الإذاعة ويكتب المقالات.
- وكان بيني وبينه حوار طويل، حتى إنه في بعض الحالات يتواضع إذا ما طرحت حديثاً في مجال علمي، يقول لي بتواضع الأكابر أجزني. كبريائي، فأعتذر فيقول لي إن كثيراً من الأكابر يأخذ عن الأصاغر. فأتشجع ولا أكتم عنه أبداً رؤيا رأيتها، أو معلومة حفظتها. فيبشرني بخير، ويعلمني الصواب. حتى حمدت أن أطرح الخطأ لأتعلم الصواب.

- أكتب ذلك أداء لواجب الوفاء.. لا بعامل الإطراء ولعلّي قد حرمت طويلا من التمتع بحديثه.. حبسني حابس الفيل، فأسأل الله أن يمنحنا نعمة التوفيق فيما بقي لنا من العمر..

حَمد الجَاسرِ

- وكما قلت من قبل، أريد أن أسجل بعض الذكريات عن الذين يستحقون بعض التذكير بهم؛ فقد فاتنا الكثير عن الكثير، فاليوم أسجل بعض الذكريات عن أستاذنا علامة الجزيرة حمد الجاسر. فمكانته العلمية معروفة لعلّه الوحيد - وبصورة أكبر - هو الذي انتشر اسمه خارج الحدود لم يستجد هذه المكانة، فما أكبر نفسه، وعف عن الاستجداء.. عضو في مجمع اللغة يراسله العلماء والباحثون والأدباء من عربيين من شرق السويس وحتى الآسيويين والمستشرقين، أعني المستعربين من الغرب. . عف أن يدخل في الزحام ولكن ما انكف أن يكون حوله الزحام بعيد أن يقول (أنا) وقريب أن يقول كل واحد منا، إذا ما احتضن حمد الجاسر، أن يقول بهم ومنه وله عنه (نحن حمد الجاسر)، فالأهل يعتزون بالفخار بواحد نابغة منهم.

عرفته _ أول ما عرفته _ ليس في مكة المكرمة التي احتضنته طالبا فيها، فلم أكن حينذاك قد شرفني الله بالسكني فيها.

ولم أعرفه في المدينة المنورة، وإن كان أحد بنيها، فقد ابتعد عنها آباؤه فأنجدوا وأنجبوا، فهو من هذا القبيل، من قبيلة حرب، من مسروح، من بني علي، التي تفرعت فرعين، فرع في العالية (العوالي) وفرع في نجد

بزعامة شيخها فارس (أخو حسنة. عبد المحسن الغرم) فعلى هذا ـ أنا وهو ـ عزوة واحدة، فأنا نزيعة حيث ولدت في المدينة إلى حرب، فالمدينة من الغابة إلى اللابة حربية، قسمتها حرب إلى نصفين، فمن سوق الحبابة شمالا إلى بني سالم، ومن نصفه الآخر جنوبا (مسروح) كأنما مسجد الغمامة مسروحي، ومسجد على سالمي.

لم أعرفه في المدينة ولا في مكة كما قلت، وإنَّما عرفته في الخرج، حينما أنجدت موظفا في معية عبد الله السليمان الحمدان، الوزير الكبير، والخادم المخلص لمليكه وأسرته، مليكه البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن تغمده الله برحمته.

فقد كان الجاسر أستاذاً حربيا أستاذا خاصاً لأبناء عبد الله السليمان، كانت معرفة رؤية، لا معرفة صحبة وصداقة، فهو بعيد عن الفضول، بعيد عن الاحتكاك بالناس، ثم سمعت عنه أستاذاً في مدينة ينبع ثغرنا الحبيب، وقاضياً في ضبا، حتى إذا أخذ يبيع ما اقتنى من كتاب الأم ليعيش، فقد شبع من لقمة العيش، وإنما من الكتاب الأم، فقد مرت أيامه الأولى وفي ينبع بالذات، وقد بدأ به الولع بالدرس والتدريس، فإذا هو يعرف أن الأخذ من الكتاب الأم لا يعني إلا اليقظة. . يعرف الصواب ويوضح على تلامذته في ينبع، فإذا هو يذكر النص عن ياقوت الحموي عن جبل رضوى (هو جبل في طريق الشام) فإذا التلميذ الجهني ربيب السفح لرضوى المتطلع إلى شماريخ رضوى، يقول للشيخ (دوك. . رضوى) أي انظر. . هذا رضوى. فإذا الجبل المشمخر يراه الشيخ يحتضن وادي ينبع روافده تصب في وادي الحمراء . . فعرف الشيخ يومها أنه ليس قارئ التراث فحسب، وإنما ينبغي له أن يحقق هذا التراث فكان حمد الجاسر علامة الجزيرة، ما أكثر ما حقق

ودقق وكتب ونشر، فاليمامة مجلته، والعرب مجلته، ونحن تلامذته.

كانت هذه معرفتنا للعالم، وبقيت معرفتنا للإنسان، ورحلنا عن متن إحدى طائراتنا إلى الكويت، فتعثرنا بعوامل الجو، ألا نصل إلى الظهران إلا بعد أكثر من ست عشرة ساعة. أركب من جدة إلى المدينة ومن المدينة إلى الرياض فيمتنع على الطائرة النزول بعامل الجو، فنعود إلى جدة، حتى إذا صحا الجو عندنا إلى الرياض ومنها إلى الظهران ومنها إلى الكويت. فلم نصل إلى الكويت إلا بعد اثنتين وعشرين ساعة، وكنا لفيفاً من الصحفيين والأدباء، وحين نزلنا إلى مطار الظهران، كنا كالهلكى من النصب، فاسترخى كل واحد منا إلا حمد الجاسر، فذهب يركض إلى البوفيه) يأتينا بالعصير، يسقينا كأننا أبناؤه، يخدمنا فكان بذلك سيدنا.

وفي الكويت كان هذا المنقبض على نفسه، الذي لا يتحرك لذاته، قد تحرك يتلفت بغضب، حيث لم نجد مكاناً ننزل فيه، فخاطب بعض المسؤولين فإذا الأوتيل يفتح لنا، كان فندقاً كبيراً نزلنا فيه.

إن حمد الجاسر قد حباني بكثير من الفضل، فرأيته في فندق اليمامة، وكنت في ريب من تصحيحه لخطأ وقع فيه حسن الكرمي بإذاعة لندن، في برنامجه (قول على قول) فقد سألوه: من قائل هذا البيت:

إن بالسفح الذي دون سلع لقتيل دمه ما يطل

فنسبه الكرمي إلى صاحبه (تأبط شرا) ولكنه قال: إن سلع الجبل، هو سلع البتراء بالبلقاء (شرق الأردن) فكتبت أعقب عليه مستبعدا أن يذكر تأبط شراً هذه الصفة لجبل في البلقاء، فلعلّه قد أراد سلعا الجبل في المدينة، حسبت أنه أعرابي لا يذكر إلا جبلا حول الأرض يسكنها، وقد أرابني هذا

التعقيب، فسألت أستاذنا الجاسر فقال لي: لقد وقعت في خطأ كما وقع فيه الكرمي، إن تأبط شراً قد عنى جبله الذي في أرضه، ففي هذيل قبيله جبل اسمه سلع.

قلت له: هكذا أمتك العربية تستعذب أن تسمى أجبالها ومواطنها ومدنها بأسماء واحدة، حباً للقديم وتحبباً للجديد.

وزارني الجاسر في مجلة (الدارة) فإذا هو غاضب من الإجحاف، فواضع الأطلس التاريخي كما يقول الجاسر، قد أخذ ما وضع عن الجاسر، فما أنصف أن يذكر اسم المصدر، فقلت له: لماذا لم تكتب عن ذلك تفند الأخطاء وتوضح الواقع، كأنك تحترم دارة الملك عبد العزيز، مع أني أعتقد أن احترام (الدارة) هو أن تذكرها بالأخطاء وأن تهديها إلى الصواب، فالدارة ليست حكراً على أحد، وليست في منعة من الأخطاء والتصويب، بل إن مطلبها الأول والأخير أن تكون الدارة بك ولك، لا بعيدة عنك، فالمعهد الأكاديمي ينبغي أن يحظى بك ناقداً وموجهاً كما غيرك من أمثالك فليست هي برجاً عاجياً وإن ارتفع اسمها وعظمت غايتها بالنسبة إلى البطل المجمع لهذا الكيان الكبير، ولا أدري هل يفعل أم لا؟.

وبالأمس كنت في الرياض، سألت صديقه وصفيه الأخ عبد العزيز الربيعي عنه، قال: لم ألتق به إلى الآن.

إن حمد الجاسر ثروة وطنية لا أدري كيف لا تدعوه الجامعات كلها في أوقات تحدد بالتنسيق يكون فيها أستاذا غير متفرغ يلقي محاضرات عن التراث ليس للطلبة فحسب، وإنما للدكاترة الذين ينبغي عليهم ألا يترفعوا عن التلمذة لأستاذ كبير.. لأنه لا يحمل لقب (دكتور) أم لماذا؟ المعنى في بطن الدكاترة.

المقالات

الإسلام

وبرز الإسلام للكفر كله

- وليس غريبا أو بدعا أو عجيباً، أن يحتضن البلد القمة. القادة القمة. ليشن حربا على العدوان القمة، كأنما مكة القبلة الكعبة، مشرق النور، دعت بنيها أن يحكموا أمرهم في مؤتمر كأنهم في صلاة جامعة، فالمؤتمر في مكة بعيد عن المؤامرة والمقامرة، فالإيمان شجاعة في الوجدان، يحارب الخوف، ويقتل المؤامرة والمقامرة، وكأنما مكة حين تحتضن بنيها تدعوهم إلى ما كانت تدعو إليه وما زالت تدعو إليه سرمديا قائماً ما دام هذا القرآن، تدعوهم قائلة: ليست الكارثة أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصعة، وإنما الكارثة أن تدعو إلى الجهاد فلا تجيبوا، وأن ترسل المآذن النداء تدعوكم إلى التضامن فلا تتضامنوا، ولا أريد أن أقولها من عندي وإنما قالها سيدنا محمد والى الكلم: إنما يدرككم الوهن. رسول الله؟) فأجاب كأسلوبه في جوامع الكلم: إنما يدرككم الوهن. .

إن مكة تستقبل بنيها ليس فيهم كبير ولا صغير أمام دعوتها، وإنما كلهم سواء ألبستهم مكة بإيمانها الكبرياء، فالقادة والشعوب أمام مكة في

المسجد الحرام إخوة في أمة واحدة يصغر الكبير حين يستكبر، ويكبر الصغير حين يستقبل ولا يستدبر.

وهكذا برز الإسلام كله للكفر كله، فالصليبية كفر، والشيوعية كفر، واليهودية كفر تصنع كل يوم كفراً، تلك قوى امتد سلاحها من كل نوع على الأرض المسلمة، والعقيدة المسلمة، والتراث المسلم. إنها بكل ما تملك من قوة إذا ما انتزعنا الخوف من أفئدتنا فإنها تستحيل حتماً قوتهم إلى قوة لدينا فلن نُغلب إذا كنا كلمة واحدة وجهاداً واحداً وسلاماً واحداً، ولكنا غلبنا حينما أصبح بأسنا بيننا، ليس هذا كلامي وإنما هو كلام رسول الله محمد

وبرز الإسلام كله فهل تصدق النيات وتنفذ القرارات ليكون المؤتمر الإسلامي تتحقق فيه هذه الكلمة (برز الإسلام كله للكفر كله)؟

إنكم اليوم في وضع كالوضع الذي جرت وقعة الخندق، (الأحزاب) تحزبت الأحزاب تريد أن تهدم البيضة، تقضي على الإسلام، تنتصر على محمد، فإذا النبي في سفح سلع، وإذا الخندق _ يحجز الأحزاب، وإذا المسلمون ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فلجأوا إلى الإيمان وقتلوا الخوف. . هكذا وصفهم الجواهري:

قلوب ننشد اليوم مثلها أبى دينها أن يجمع اللَّه والرعبا

كان الله معهم لأنهم كانوا له فلا خوف ولا رعب.

وبرز فارس يقفز على الخندق من ثغرة ضاقت، كان أحد فرسان العرب جميعا، عدوه أحد أقران عنترة، فارس قريش اسمه عمرو بن وُدّ العامري، حتى إذا استقام على حصانه يسل سيفه، ويطلب البراز.. عجيبة

كيف تركه رسول الله يصول ويجول في الميدان يطلب البراز؟ لماذا لا يكتنفه رجال من الصحابة يقتلونه حتى لا يعود إليها آخرون من المشركين، ولكن استمطر بعض الخبر، لو فعل النبي لربما كان قتله بالجمع يصنع حماسة في المشركين يتقاذفون على الخندق، فأحب النبي ألا يكون ذلك.

وصال وجال بن ود، فإذا النبي القائد العظيم (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي) يلتفت إلى أصحابه _ أنصار أو مهاجرين _ يقول لهم: من يبرز إليه؟ يريدها فارسا لفارس، فقال الشاب كريم الوجه، أبو الحسن، أبو ثراب، حيدرة، علي بن أبي طالب: أنا أبرز إليه، فقال النبي _ وكأنما يسبر غور علي أو يعلمه ألا يكون فيه شيء إلا للإيمان _ قال عليه الصلاة والسلام (إنه عمرو...) وقال الفتى علي: وإن يكن عمراً. وأعادها النبي، ولباها على ثلاث مرات.

وبرز النبي يقول: الله أكبر.. برز الإسلام كله للكفر كله كأنما تلك اللحظة حين انتصر علي بنصر الله له، كان النصر للإسلام كله، إلى يومنا هذا.. فارس واحد يمثل الإسلام كله، وفارس واحد يمثل الكفر كله.. ذلك حتم الظروف جاء بعده حتم الزمان على كل الظروف.

وقال عمرو: ابن أبي طالب؟ لا يسخر منه وإنما حنين ابن العم.. ابن أبي طالب. لا أريد أن أقتله.. فقال علي: ولكني أريد أن أقتلك.. انصفني.. فقد كان عمرو على فرس، وكان علي راجلا، فإذا الشموخ في الفارس يلبي الدعوة يترجل، رجل لرجل، لا يمتطي كل منهما حصانه.. وتقعقعت السيوف.. فإذا اليد المؤمنة بالسيف ذي الفقار تقتل فارس المشركين، فكانت بوادر الهزيمة صدت كل فارس ألا يتصدى الخندق..

فارس واحد تمثل به الإسلام كله، وأنتم اليوم جمع واحد.. نسأل الله

وأنتم أمام الكعبة أن يتمثل بكم الإسلام يسألكم أن تنصروه في مثالية الأخلاق، وامتثال الدعوة إلى الجهاد، والرغبة في استشهاد، تقتلون (الأنا) لتحيا أمتكم بالكلمة (نحن).

صورة:

ومعذرة إلى قارئي أرجوه أن يغفر لي عزمي على اعتزال الكتابة، أستجم من بعض الأوضار، وأستجم للراحة بعض الوقت، أريد أن أرفع القلم ولما يجف المداد، لا عن العجز وإنما مطاوعة لبعض الحجز، ولست بهذا أقترف نذالة الإخلال بما يجب علي وإنما لأستريح من الذين يختزنون التوجيهات كأنها علم الأسرار فلا يتبرعون بإعطاء الكاتب لديهم هذه التوجيهات.. فالحكومة لم تفرض سلطانها على القلم، وإنما جاءت الحكمة بالتوجيه بينما بعض حملة التوجيهات يبخلون على كاتب أن يعرفها. أعترف ولا أقترف فقد سئمت هذا القرف.

ولقد أرعفت الكلمة كثيراً فأخشى أن يصاب بفقر الدم.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ

_ وسطع على الكون نور.. وأخمدت في مكانه النار.. ﴿ أَلِلَّهُ نُورُ اللهُ السَّمَوَتِ وَالنَّهِ مَن نور الله النور: ٣٥) فالرسالة من نور الله .. والنبوة من نور الله يهدي الله لنوره من يشاء.

سطع النور على حراء برسالة النور لهذه الدنيا. . أنار الله به قلب رسوله ونبيه خاتم الرسل سيدنا محمد بن عبد الله.

أشرق النور يوم ولد في كل الكون. عرف أثره في الجماد ولم يتعرف على أثره الإنسان بعد. حتى إذا أشرق النور في حراء بالنبوة على

الجبل وحتى إذا سلط على الإنسان في الصحف على الجبل عرف الإنسان المبتدئ معنى التوحيد أشرق في وجدانه نور القرآن.. فالقرآن نور على الأرض.. فهو الأرض.. ومحمد رسول الله من نور الله في كل إنسان الأرض.. فهو إنسان الإنسان.. أرسله الله معلماً وهادياً.

ولي الصفا وحين سمع قساة القلوب الفارغة عقولهم قوة النذارة أظلمت أفئدتهم عن رؤية النور في البشارة. . فحين تكلم البشير النذير أشرقت وجوه مؤمنة وأظلمت أفئدة مشركة.

لكن الظلام لا يستطيع أن يخفي النور حتى ظلام الليل جاءت قوة النور تجلوه من نور الله فيما أودع هذا الكون من الكواكب والقمر.. كأنما الشمس _ وهي من نور الله أبت أن يظلم ليل قوة أن تعطي نوراً إلى القمر.

والنور - نور الله على الأرض - بهذا الدين الإسلام.. الإسلام توحيد.. صلاة توبة.. في كل من هذه الثلاث أمسك الإنسان بالعزة لا يخضع إلى الوثن. يتقدم بالطاعة إلى الله.. لا يجعل بينه وبين الله وسيطا يستعبده.

والنار شعبذة. وثن على صورة لا تحرق إلا نفسها حين تشتمل. . ويحترق بها الذين عبدوها من دون الله الخالق الباري. . أخمدها الله حين ولد النور. . وأزاحها الله حين أرسل النور نفسه يفتح الأرضين لتكون تربتها المسجد لا تبقى على ترابها أوثان ولو على صورة النار.

والإنسان كان في حجاب عن النور من عذاب الحيرة والشك فالفطرة فيه مسلمة وموحدة وتوابة.

والعوامل التي يسوقها سدنة الصنم ورجال الكهنوت هم الذين قتلوا الفطرة في الإنسان فبعث الله محمداً النبي الذي اختار الفطرة ليجلو الظلام

عن الفطرة.. فأول ما انجلى الظلام كان عن خديجة.. عن أبي بكر. عن زيد. عن علي.. عن خالد بن سعيد.. وعن وعن. حتى عن بلال الذي سواده سواد السؤدد.. سؤدد الفطرة في هذا العبد السيد.

الله أكبر.. أبو بكر سيدنا واعتق سيدنا.. قالها عمر يغبط أبا بكر حين علم أن أبا بكر قد اشترى بلالاً من العذاب ليعتقه.. ﴿ وَمَا لِأَحَدِ عِندَهُ مِن نَعْمَةٍ عَجْزَى ٓ. إِلَّا ٱبْغِنَاءَ وَجَهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿ (الليل: ١٩ ـ ٢١) ذلكم أبو بكر.. وكلمة الرسول لأبي بكر أعز وأغلى من كلمة عمر.. «الشركة يا أبا بكر » قالها النبي حين علم بما صنع أبو بكر.. تلك قيمة النور في بلال.. في أبي بكر.. في عمر.. نور الله في كلمة الرسول. فقد كان النبي لا يصدر إلا عن نور الله كان خلقه القرآن وصفت عائشة رسول الله بهذا. صلّى الله على النبي ورضي الله عن الصحابة جميعاً.

إن النار والصنم والكواكب كلها كانت في اندفاع النفس نحو الفطرة جبروت الكاسبين. . فما أكثر إحساسنا لأنفسنا إذا ذكرنا هذا الدين. . أن نذكر السيد العظيم رسول الله محمدا بالصلاة والسلام عليه . فحب النبي ما كان ولن يكون إلا على هذا النبي جاء يهدي الإنسان إلى نور الله بنور الله .

روح الإسلام أم روح . . اليابان؟

هل يكتب الكاتب بدون هدف؟!.

لا الكاتب الناجح المقروء ولو لقلة من الناس هو من يكتب لهدف حتى لو كتب فنا للفن لكان هذا هدفا يغري القارئين بمشاركته إحساسا بما كتب بالفهم أولا والتفهيم حتى تبلغ بهؤلاء الحماسة تقبلا أو رفضا أن يستخرجوا ما هو أكثر من المعانى التى لم يردها الكاتب.

ولم يكن هذا صنيعهم بالاختيار أو بالتلقائية ولكنه بالاطّراد سيراً مع الهدف في حالة الرفض.

مقدمة لا بد منها. . نشرح بها كلاماً سمعناه عن روح اليابان نجادل به عن روح الإسلام.

فالهدف عند هؤلاء نسير معه لا نتقبله دون حوار ولا نرفضه دون نقاش.

قالوا.. إن الولايات المتحدة استفاقت على حين وهلة بما شعرت به نحو اليابان، زهوة الانتصار والخوف من النكسة حملت الجنرال «ماك أرثر» أن يخطط لقهر اليابان.. الهدم لروحها والتدمير لصناعتها.. ولكن الإغفاءة بعد النصر بحذر الانتصار قد فاق منها رجال في الولايات المتحدة يضعون خطاً آخر يسيرون عليه على العكس من خط «ماك أرثر».

رأوا الشيوعية تستغوي وتتفوق. . فخافوا على اليابان إذا ما هدمت روحها ودمرت صناعتها أن تسقط في أيدي الشيوعية . . فنزعوا ماك أرثر ممثل سياسة الضغط وفسحوا لليابان المجال لتعيش قوية لروحها وصناعتها .

كلام جميل عرفنا منه قوة الروح في اليابان ببقاء هذه الروح في شعب ينتصرون به على الشيوعية ولو على طريق غير مباشر.

فلماذا يقف بعضنا في الموقف نفسه الذي تقف فيه الشيوعية ضد روح الإسلام؟!.

فأي ضمان في أيدي هؤلاء لصد الشيوعية أقوى من قوة الإسلام. . ؟!.

في كل بلد شرقي وغربي وجدت الشيوعية مجاليها وأسست فيها أحزابها وارتفعت رؤوس تعتنق الشيوعية النظرية وفيها كل الخطر لأنها لن

تمارس التطبيق إلا بعد أن تنغمس في الدم.

في كل بلد وجدت الشيوعية مجالها إلا بلد المسجد.. إلا أرض الإسلام، فمن سفوح الهملايا إلى حدود الظلمات «الأطلنطي» تجد الشعوب المسلمة الرافضة للشيوعية.. الطاردة بالعمل وبالفكر وبالتأبي لكل شيوعي.

ولم يكن هذا الطرد بقوة العون الأمريكي ولا بأسلحة الأحلاف ولا بتخطيط الساسة.. وإنما هي قوة الكلمة المسلمة من العقيدة في الشعب المسلم.. في الأمم المسلمة.. حتى إنها تعيش اليوم في أزمة «القرف» من هذا السرف في تطلب العدالة الاجتماعية بوسائل.. وعن مذاهب ليس لها رصيد في قلب وعقل هذه الشعوب.. فهي بالحتم وبالاحتياط وبالحذر قد رفضت كل ذلك.

ولكنها في حاجة إلى توحيد الخط للدفاع ضد هذه المذاهب. لقد نجت من الشيوعية حتى الآن. وهي تجارب الحرب غير المكشوفة على طريقة انفرادية ما كانت لتنتصر لولا قوة دينها. قوة تراثها. محافظتها على تقاليدها.

هذه هي روح الإسلام قد حفظت بالقوة ما صانت. فلماذا نحمد لليابان على صورة من الحمد للولايات المتحدة بقاء الروح اليابانية قوة تصد بها الشيوعية؟!

ولا نحمد لإخواننا عودة هذه الروح.. روح الإسلام على صورة جماعية في وحدة تضامن.. في تضامن زاحف.. في زحف يصد ويرد ويكتسب.

كل ما صنعه فيصل بن عبد العزيز هو الدعوة لروح الإسلام تعود قوية في المجتمع المسلم. . ولم يكن في ذلك بالدخيل ولا بالعميل. . وإنما هو

الأصيل.. جزاكم الله خيراً .. فقد أحسنتم إليه على صورتين:

أولا: أشعرتموه بقوة الخطر منكم ومن الآخرين.. فسار بقوة وحذر حتى إنكم من حيث لا تشعرون قد جنبتموه مواطن الزلل. إن حملتكم هذه ليست الدليل على قوة تحمله.. وليس فيها الدليل على تحامله ولكنه سيأخذ منها البرهان يضعه أمامكم لتعرفوا أنه من غير المعقول أن يسير فيصل بهذه الدعوة العميل لأنه الأصيل أولا ولأنه غير الدخيل الأمانات المقدسة في يديه تجعله بعيدا كل البعد على أن ينيلكم موقفاً تلجون من ثغراته لتعلنوا ما تجدون فيه مادة الوقود لمطامعكم.

والصورة الثانية وجزيتم خيراً من أجلها أكثر وأكبر فقد أصبحتم الدعاة داخل شعوبكم للدعوة الإسلامية. ما كان يستطيع فيصل أن يصل إلى مشاعر شعوبكم بوسيلة أحسن من هذه الوسيلة التي هي أنتم دعاة ضدها. دعاة لها فالسلب منكم إيجاب في حتمية التلقائية عند الشعوب المسلمة.

الحمد لروح اليابان عرض للتاريخ وعبرة للمؤرخين.. ولكن الدعوة لروح الإسلام تصنع وتعبر إلى ذرى عالية أفكار المؤرخين.

عجب أن نمجد في اليابان محافظتها على روحها والعجب الأكبر أن نحارب عودة الروح للمسلمين بالدعوة الإسلامية.

أهو ازدواج في السلوك أم هو الوصول إلى منطقة الإيمان كما يقول توفيق الحكيم؟.

إن توفيق الحكيم يقسم الإنسان إلى منطقتين: منطقة الانسراق. ليسير صاحبها في الملذات. وبما هو أكبر وأشر حتى إذا استفاق تكشفت له من داخله منطقة إيمانه لتجعله يتوب ويستغفر ولو بتمجيد روح اليابان. لعلّه بعد

يستفيق أكثر ليمجد روح الإسلام.. روح بلده.. روح آماله.. روح مستقبله..

بين الميوعة والجفاف

يقف المسلم العربي، القابض على دينه قبضة كف على جمر. حائراً حيناً.. وغاضباً حيناً آخر. ونادماً في كلتا الحالين.

فلا الحيرة ترشده إلى حل. ولا الغضب يسير به إلى غاية . . وإنما الندم هو حاجز الحيرة . . أن لا تدوم ويمنع الغضب أن يفعل .

فالندامة انفعال. هما أول الطريق لوقوع الفعل إذا صحت النوايا وكانت الندامة توبة خالصة ما قصرت فيه.. أو ما تقاصرت عنه إلى عمل الجديد ترجع فيه إلى حياة عاطفة لا جفاف فيها ولا ميوعة الحيرة والغضب من هذه الضيعة ترتفع فيها القلوب وترتعد منها الأفئدة.. أو هي ترتوي من القلوب.. كل فريق بما لديهم فرحون.

الضيعة ليست من الفرقة نفسها. وإنما هي أساسها وهي أيضا ليست البحث عن الإيمان. والكلام في فروعه. . كما كانت هي شعارات الفرق فيما تقدم هي الأنكى من ذلك لأنها انصرفت عن العقيدة وعن فروعها إلى ضياع المعتقد فضياع المعتقدين.

ما هو السبب؟ يقولون زحمة العصر.. الغزو بوسائل المدينة.. قراءة الاستشراق بأسلوب الاستغراق.. وكثير من هذه الأسباب.. لكنني لا أنكر هذه الأسباب وإنما ما جاءت. ما ترسخت. ما صنعت أفاعيلها. ما أضاعت إلا بعاملين تعاونا معاً.. الجفاف في العاطفة المسلمة الدينية. والميوعة في هذه العاطفة. أي إنها الإفراط والتفريط.

الإيمانُ قلبٌ إنسانٌ عواطفهُ.. هذا أساسه ورفعة بنيانه بإعلانه. بالعمل به. هذا القلب المسلم أضاع عاطفته بالجفاف. لا يتعلم الحب للغواني في تاريخه.. يسرف بشيء من الجفاء صنع له هذا الوفاء.

التاريخ لا يدرس بعاطفة الحب، والسيرة لا تعلم في البيت. وحب رسول الله على لا يتلقنه الطفل التلقين الصحيح. لا يعرَّف بتشديد الراء المفتوحة لل رسول الله محمداً بن عبد الله هو عبد الله ورسول الله. أرسله رحمة للعالمين. صنعه على عينه جل جلاله على خلق عظيم. العبودية لله أشرف مقرراته، والرسالة من الله خصه بها أكمل مقاماته. لو تعلم الطفل هذا الحب على أساس صحيح من عقيدة التوحيد لا جفاف فيها ولا ميوعة. . لأنشأنا جيلا شاباً لا نبكي منه، لا نبكي عليه.

الجفاف في العاطفة الضيعة.. الجفاف سمة اليهودية أضاعت يهود بها كل عاطفة نحو موسى. نحو سليمان. حتى قتلت نبيها. أعدت الصليب للنبي الرسول عيسى بن مريم. والميوعة إفراط. إفراط جعل من الحب رقصات. ومن الإيمان طقوساً تؤدي لضريح.. فضاعت العاطفة من هؤلاء نحو القمة الرسول محمد وأصحابه بهذه الفوضى في توزيع العاطفة الحب على من هب ودب.

فالإجلال والاحترام والحب كلها لا تعيش مع الجفاف. . وتضيع مع الميوعة . ولن نعود إلى العقيدة للأمة الوسط . إلا بوسط من الأمر . لا يحترق في الجفاف ولا يدوم في الميوعة .

البيت. قبل كل شيء لكن من يعلم سيد البيت؟.

لئن فاتته المدرسة فالمسجد هو المدرسة. إن عمار المسجد بالمصلين حسن. لكنه يزداد حسنا إذا ما عمره العلماء الذين ينشرون الحب الرطب

اللين. لا جفاف فيه ولا ميوعة لن تخسروا شبابكم حينما تجعلون من كل مسجد مدرسة. . من المسجدين الحرام والمحمدي النبوي جامعة. . فالمسجد هو حسنة هذا الإسلام. . بيت عبادة . . مدرسة علم .

المسجد اليوم لا يصنع لسيد البيت عاطفة يربي بها أولاده. يدخل للصلاة ثم يخرج ولا شيء قد ملأ فؤاده من معرفة ومن حب.

حينما كان المسجد جامعة.. كانت حضارة الإسلام هي المدد لكل الجامعات في الدنيا.. لا قيد فيه على داخل. لا شروط على متعلم. كل لا بروز للذين يثنون الركب على الحصير أمام الشيخ المعلم.

هذا البلد الأم لدعوة الإسلام. الأم للعرق العربي.. الأم لمدرسة الكوفة والبصرة.. الأم لعلم ابن عباس والعبادلة معه ومن المسيب وعطاء وعكرمة والنوري ومالك هذا البلد مطالب بأن يكون المسجد جامعة حتى إذا حرمت الأنظمة الحديثة شاباً من الجامعة وجد في المسجد الجامعة. ولقد وصلني هذا الكتاب أنشر فقرات منه عن اليلولة دون الانتساب للجامعة.

يقولون بعد المقدمة:

نحن مجموعة من الشباب الذين لديهم أعمال ووظائف ونحن برعاية أسرنا ولكن مع ذلك واصلنا تعليمنا ليلا حتى حصلنا في عام ٨٨ ـ ٨٩ على شهادة الثانوية العامة ـ القسم الأدبي من مدرسة مكة الثانوية الليلية. ولما كانت ظروفنا المعيشية لا تسمح لنا بمواصلة دراستنا الجامعية كمنتظمين لجامعة الرياض، وكان الأمل يحدونا بأن الجامعة ستلبي طلبنا. ولكن جاء الجواب بعدم القبول بحجة العلامات المتحصلين عليها في استمارة التوجيهية لا تؤهلنا للانتساب.

وقد ضاع الأمل عن مواصلة الدراسة وذهبت سنة كاملة من عمرنا الدراسي. والحالة هذه تضع هذه المشكلة بين أيديكم.. علماً بأن وزارة المعارف الموقرة منعت الانتساب في الجامعات الخارجية لما يترتب عليه من أضرار.. الخ.

وقد وقعت الرسالة بأسماء مرسليها وهم: محسن سالم العمري. عبد الله إبراهيم عواد. محمود محمد تكروني. غنيم غانم الينبعاوي. محمد صالح باسلامة. يحيى مغربي سليمان العيوني. عوض مصلح.

من فرغانة . . إلى غانة!

هذه سجعة الحريري صاحب المقامات أوردها كأنه يحدد بها الأرض المسلمة. العالم الإسلامي وليست هي في نظري سجعة عارضة. حكاية بيانية. وإنما هي روح الإمام المسلم سواء كان الأديب الحريري أو الفقيه من كل جنس مسلم، أو الحدث أو الفيلسوف. فكل هؤلاء تأمرهم الروح المسلمة أن يفقهوا تاريخهم أرضهم إنسان هي روح الأمة الواحدة فهم يعرفون ويعتقدون ما تدعو إليه هذه الآية الكريمة. . ﴿إِنَّ هَلَاهِ مُ أُمَّةُ مُ أُمَّةً وَرَحِدَةً وَإَنَا رَبُّكُمُ فَاعُبُدُونِ ﴿ (الأنبياء: ٩٢).

فصدر هذه الآية خير.. لكنه الأمر بأن نكون الأمة الواحدة.. فإن التأكيد للخير إعلام بما هو واقع.. وإعلان عنه كواجب لن يقع غيره ولن يكون إلا هو.. وتمام هذه الآية وأتأدب فلا أقول عجزها، تمام هذه الآية هو الأمر بعبادة الإله الواحد لأن هذا البيان الرفيع فيها في قوله تعالى ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ أثبت أنه الرب الخالق الذي يعرفون.. وأضاف إثباتاً بأمر آخر في قوله ﴿ فَاعَبُدُونِ ﴾ إثباتاً لإله واحد كأنها جمعت ثلاثة أوامر.. وحدة

الأمة، والاعتراف بالرب توحيدا للربوبية، والعرفان لإله واحد توحيد الألوهية.

هذا التوحيد وهذه الوحدة هي التي دعت الحريري ومن إليه أن يحدد أرضه المسلمة بكل إنسانها أصخره وأسمره وأسوده وأبيضه.

فرغانة مكان وسط آسيا.. وغانة مكان جنوب الوسط كأنه الوسط في أفريقيا. وكأننا هنا لا نسعى إلا إلى هذا كله فعندنا البيت الحرام. القبلة المكان المركز في الكون. الوسط في الدنيا كلها يتجه إليها ساكن في فرغانة يتقابل في الاتجاه إليها مع ساكن غانة. كان الفرغاني والغاني قد استقبلا القبلة لا تحجز حب أحدهما للآخر وإنما هي الصلة الواصلة بالصلاة في هذا الاتجاه إلى هذه القبلة، فأي ضريبة ينبغي أن ندفعها نحن الذين شرفنا الله بالسكينة والسكنى حول هذه القبلة؟

الضريبة تشريف التكليف، وتكثيف التشريف نهض بهما عبد الله من أودع الله عنده أمانة الحفاظ على هذه القبلة الملك فيصل بن عبد العزيز.. فهو يدفع هذه الضريبة راضياً مختاراً في أحسن ما يسعى إليه.. وغير مخير في هذا الذي سعى إليه.. فذلك هو قدره منحه الله أن يقوم بأداء ما يجب.. وبالوفاء لما يستحق..

فحول فرغانة بعد شهور أقل من أربعة ينعقد في خراسان المؤتمر الإسلامي جامع شمل. موحد رأي في صدق ما ينهج. . وفي بر لما يعتزم عمله.

وفي القارة الإفريقية يسير بمسيرة الخير إلى الأرضين حول غانة يؤلف ويلتف ويعين ويبني. . يبني الخلق المسلم في إخاء المسلم لأخيه المسلم.

إن المؤتمر الإسلامي حول فرغانة سيقود التحرك البطيء في آسيا لكل

المسلمين فيها حتى يجد نفسه في تضامن وتكافل ومحبة مع المسلم في أفريقيا. وإن التحرك الحثيث وأحسبه الأسرع في أفريقيا لما هي عليه من وحدة المذهب يجمعه الفيصل بهذا التجمع ليكون سندا يسعى إليه المؤتمر الإسلامي كأنما الملك _ وقد قارب المؤتمر أن ينعقد _ أراد أن يسرع لألفة أفريقيا داعياً لهذا المؤتمر.

كل البيانات المشتركة ما أدركت أن أقرأه بعد صدوره قبل أن أكتب.. وما سيصدر بعد.. لا تدل إلا على شيء واحد هي قوله للمسلمين بما تعنيه هذه الكلمة (تآلفوا ولا تخالفوا، تعانقوا ولا تفارقوا فنحن إخوانكم العرب نسلم للضيم في أرضنا وإنسانها ومقدساتها من طغيان يهود.. يحتلون القدس يذبحون أبناءنا ويستحيون كل كرامة فينا كأنهم حين احتلوا الأرض قد شبعوا من انتهاك العرض).

نحن في أيامنا هذه في حاجة إلى كل عاطفة أفريقية مسلمة وإلى كل عقل أفريقي يحترم أرضه. تحرك سريع من جلالته ضم به فرغانة إلى غانة ضمة عاملة فنصرة لا سجعة مترفة قالها أديب.

أم القرى

عبد الرحمن الكواكبي شيخ مسلم، عربي شامي، أحسبه قد نزع إلى عرق، إلى أصالة الأشياخ، كأنما هو قد وضع العز بن عبد السلام أمامه، وابن تيمية قدامه، وإمبراطورية أمية في حنينه، والشتات والفرقة والعجز الذي خيم كل منها على الإنسان المسلم والأرض المسلمة، ولا أقول الإسلام، فالإسلام أعز وأجل من أن يضام، ولو لم تبق له ومعه إلا الفئة التي حفظها الله به، وحفظ بها دينها وأرضها وإنسانها.

حين كان ذلك كذلك، أخذ الكواكبي يفكر لا بأحلام اليقظة ولا

بالتمني وإنما دعاه إسلامه _ وقد تلفت إلى كل بقعة في الأرض المسلمة _ فلم يجد مجالا لجواره يصوره في صورة من مؤتمر ينعقد في أم القرى (مكة).

فأحلام الكواكبي وجمال الدين الأفغاني وشكيب أرسلان ورشيد رضا، التي كانت دعوة على قرطاس، أصبحت عملا في مؤتمر قمة مسلمة يعقد هذه الأيام في مكة المكرمة أم القرى حلم خطه الكواكبي على القرطاس، وحققه عملا الملك خالد بن عبد العزيز كأنما هو ـ وبهذه الحفاوة تكريماً للمؤتمرين قد أعطى دعوة أخيه ولي عهده الأمير فهد بن عبد العزيز دعوة الجهاد. . القوة ينتظم لها وبها ومنها وعنها ميثاق، وتصدر توضيحاً للميثاق. . القرارات، فالمسألة في هذا المؤتمر هي أن يكون في وحدة ليست الإمبراطورية وإنما هي في التضامن وإسقاط الخلاف، والنظرة إلى المصير، يجتمعون دفاعاً عن المصير، للكل باتحاد الأجزاء، فحين يتخلف قطر عن التضامن والوحدة، لا يؤكل وحده وإنما تتآكل الأقطار بعده، فالفرقة قاتلة.

إن حلم الكواكبي وما دعا إليه جمال الدين ومحمد عبده في العروة الوثقى، وما انتصب له قلم شكيب أرسلان، ما هي إلا الكلمات المؤمنة، ما أحسن أن يبرز حقائقها في هذا المؤتمر.

وعجيب. . يدل على أصالة الشام أرضا مباركة مسلمة عربية أن يكون الكواكبي شامياً، وأن يكون شكيب أرسلان شامياً، وأن يكون من الناحية الأخرى ساطع الحصري شامياً، والعجيبة الأخرى من أصالة الإسلام أن يكون جمال الدين أفغانياً مصرياً عثمانياً، وأن يكون محمد عبده مصرياً، فالشعوب المسلمة ما زالت بخير، وتمام الخير أن يكون الزعماء والقادة ساعين إلى الخير.

إن أحلام الكواكبي ومن إليه وبلا تهريج وتملق قد وضع الدعائم لها تبرز في هذا الكيان الكبير جزيرة العرب، تراث محمد. . الملك البطل الإمام السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن . . وقد تتابع بنوه، ملوكا وأمراء ـ ساروا على الطريق .

وحين ذكرت ساطع الحصري ـ وهو أكبر دعاة القومية العربية لم أقصد إلى المقارنة بينه وبين الكواكبي ومن إليه وإنما أردت أن أشهد له، فرغم تطرفه في القومية العربية لم يتطرف على الإسلام، بل ولم يتطرف ضده، وإنما التظرف والتطرف جاء من الذين لا يعرفون أن القومية العربية بلا إسلام لا شيء، وأن الإسلام بدون العرب ينقصه الشيء.

قصدت من ذكر الحصري الشامي الحلبي اليمني، العراقي المصري، كلمة قالها ـ وهو يؤرخ للقومية ـ فهو كعبد الرحمن الرافعي مؤرخ مصر وهو يمت إلى عرق شامي لبناني، والجبرتي مؤرخ مصر وكمحمد رفعت، كلهم قال هذه الكلمة التي أنقلها عن ساطع الحصري، فقد قال: واجتمع الجزار حاكم عكا، واليوسف حاكم دمشق، والشهبان بشير أمير لبنان، ليخططوا ثورة ضد الدولة العثمانية، وما كادوا يتدالون حتى جاؤهم الخبر بأن قبائل الجزيرة الوهابية قد وصلت إلى مشارف الشام، فارتاعوا وانفض جمعهم، فأنقذت هذه المسيرة النجدية الوهابية الدولة العثمانية. يقول هذا بينما هو في كلمة أخرى كقول الذين ذكرنا من قبل، أن حرب محمد علي باسم الدولة العثمانية ضد دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يرحمه باسم الدولة العثمانية ضد دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يرحمه الجبرتي والرافعي ورفعت، يحمل محمد على تأخر القومية العربية فهو كمن سبقه الجبرتي والرافعي ورفعت، يحمل محمد على تأخر القومية العربية، بينما نظرة شكيب أرسلان ومن إليه أن هذه الدعوة بسلطان العقيدة وبالسيف نظرة شكيب أرسلان ومن إليه أن هذه الدعوة بسلطان العقيدة وبالسيف المسلم في يد آل سعود كانت يقظة إسلامية نواة لجامعة إسلامية.

وقد كان شكيب أرسلان حرباً على ثورة العرب نقيضا ضد القومية العربية، ولكنه كان عقلا يساير العاطفة فإذا هو بعد سقوط الدولة العثمانية والذي كان من أهل الحفاظ عليها وبعد تسلط الاستعمار على مصر من قبل، وعلى العراق وأرض الشام كلها، وعلى فلسطين وبالذات، لم يجد مجالا إلا أن يكون مع قومه العرب، صديقاً لفيصل بن الحسين الذي كان يخاصمه إبان الثورة، وصديقاً صدوقا مع الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن ومع الإمام يحيى. لم يكن ذلك تقلباً وإنما هو انقلاب الفكر لأن يكون مع الواقع وكله أمل في أن تستقل العروبة المستعمرة في بعض أقطارها فشكيب أرسلان لا يفرق بين العروبة والإسلام. . هداه عقله وهو درزي الأعراق من العروبة في القمة ينتهي نسبه إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء أصالة في العرق وأصالة في الفكر، فالإسلام والعروبة تزاوج لا الدواجية .

الأشياخ

وكثيرا ما تعلموا من العامة فقد يكون بعض أساتذتي سائق سيارة، وبالأمس كان أستاذي في الكلمة (جزار) هو أبو محمود اللبناني الجزار في بقالة القافلة بالبغدادية، وقفت أشتري لحماً فقال: أتعرف عز الدين القسام؟ قلت له: لقد عرفت هذا البطل حين قرأت ما كتبه عنه كامل القصاب الزعيم الشامي الدمشقي المسلم من قمة رأسه لأخمص قدمه.

فقال: طيب أنت ما تعرف يا أستاذ. . إن الذين يقودون الجهاد هم المشائخ العلماء فأين هم الآن؟ .

قالها وأمسكت.. تدور الكلمة في رأسي فأخذت أجترها أسأل عن أبي الدرداء الشيخ في اليرموك، تحت قيادة الشيخ أبي عبيدة، وعن الشيخ

القائد سعد بن أبي وقاص في القادسية وعن الشيخ صلاح الدين ومعه الشيخ القاضي فاضل في حطين، وسألت عن الشيخ سلطان العلماء العز بن عبد السلام، الذي حرك الكلمة في عين جالوت (وا إسلاماه) على لسان العبد مرتين الملك مرتين صاحب هذه الكلمة، قائد النصر في عين جالوت تلميذ العز بن عبد السلام، الملك المظفر قطز. وسألت عن الشيخ أحمد البدوي في حرب الصليبيين بقيادة لويس التاسع في المنصورة أسره الجيش الذي جيشه البدوي فحبسوه في دار ابن لقمان، أعني لويس التاسع إمبراطور فرنسا فالسيد البدوي عظيم في جهاده أرخص من قيمته هذا التعلق الطرقي أرادوا أن يعظموه فأنقصوه من قيمته، بينما هو في الجهاد صاحب قيمة، لا نبخسه حقه فأمرنا معه بلا تفريط وأمر الذين أرخصوا من عظمته إفراط.

وسألت عن الشيخ الإمام محمد بن واسع في جيش قتيبة بن مسلم يأخذ له بمجامع الطرق. هكذا كان الأشياخ. ولا أنسى الشيخ الإمام عطاء ابن أبي رباح شيخ العلماء في مكة كان يفضل الطواف على العمرة، يحب الإقامة بالمسجد، يصلي ويطوف ولكنه في كل عام يخرج مرابطاً في عسقلان فقد غلب حب الجهاد في وجدانه حب الإقامة في البلد الحرام. ولا أنسى الشيخ الإمام ابن القاسم حامل علم مالك إلى الأمصار المغربية فقد سألوه بعد أن مات في رؤيا ماذا فعل الله بك؟

قال: لقد ذهب العلم والفقه ولم أنتفع إلا بركيعات ركعتها في الإسكندرية، ركيعات الرباط، فأين الأشياخ المرابطون؟.

أما الشيخ محمد بن عبد الوهاب فهذه آثاره تدل عليه. . في الإمكان أن تخرج مساجدنا وجامعاتنا الأشياخ فمكنوهم أن يكونوا أشياخا بحق،

وهذبوا الأمر بيننا وبينهم إلا أن يكون السبيل هو الحق ولا شيء غير الحق..

الحرب في دم العربي . . والسلام من مبادئه

ولأن الحرب في دم العربي.. ولأن السلام من مبادئه.. فقد أتخذ من هذين ركيزتين. ركيزة الاندفاع في تحطيم كل الأسوار التي تصد الإسلام وتطغى عليه. والأخرى إعداده واستعداده فارساً محاربا قبل الإسلام.. حتى إذا أشرقت شمس هذا النور.. اندفع يحارب الهداية فاندفعت تجره جرا إليها.. تنتصر عليه في كل معركة. وتجذبه إلى الخير في كل حركة.. فالحرب كتبت عليه يمارسها ويتدارس وسائلها مع سلاحها.

فهناك عاملان في أرض العربية ألزماه أن يتعلم الحرب، المكان والمكانة، فمكان العربي في ملتقى الطرق طرق القوافل، ومكانة العربي بهذه العزة الشامخة التي أرست وجدانه، حتمت عليه ألا تمس من الذين جاوروه في الإمبراطوريتين كسروية وقيصرية.

إن المكان والمكانة علمت العربي أن يحارب، وحتى حينما تمكنت الإمبراطوريتان من إقامة ركائز لها في الأرض العربية، الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة، بقي العربي في الجزيرة يدفع أي نفوذ يتسلط عليه من هذين فلم يصبح الغساني أو المنذري قادرا على التوسع في الجزيرة، ويفي ذلك أنهما أصبحا حاجزين لهذا العربي في الجزيرة ألا يتخطى الحدود يحارب مصالح الإمبراطوريتين.

إن الغساسنة كقحطانيين قد أخذوا يتألفون القحطاني في شمال الجزيرة، سواء كانوا قضاعة (جهينة وبلى) أو (كلب) كانوا يتزاورون، ويفاخرون، حتى أصبحت هذه المودة حاجزة للعربي القحطاني أن ينفر من

الغساسنة أو أن يغير على مصالحها، بهذا الأسلوب نفسه سار المناذرة في التواد مع شرق الجزيرة ووسطها يجاملون بكرا وتغلب وشيبان، يحاذرون من تميم، ويصاهرون غطفان، فالمتجردة بنت زهير تزوجها النعمان بن المنذر لعلّه حين استمال غطفان أن يتخذ منها ضاغطا قويا يشغل تميماً ويضم أسدا معه إلى الحلف الأعظم، ويكسر من شوكة بكر وتغلب ضد المناذرة.. لكن هذا التواد لم يترك العربي معه سلاحه احترافا في أيام حروبهم القبلية، واعترافا بحق السلاح يحمي أرضهم من توسع الإمبراطوريتين.. كل هذا التعامل مع السلاح أحسبه كما ذكرت من قبل إرهاصا للنبوة.. واستعداداً للجهاد المسلم فحين سطع النور لم يجد برهان هذا النور نفسه في فراغ، بل وجد الفارس الممارس لشؤون برهان هذا النور نفسه في فراغ، بل وجد الفارس الممارس لشؤون على العرب، العاشق للسلاح، فهناك _ وبتوفيق من الله _ قد انتصر الإسلام على العربي بناصع من البيان في هذا القرآن، وبالكلمة البيانية ينطق بها رسول الله هيه، أتاه الله جوامع الكلم.

انتصر الإسلام على العربي بالبيان. إن العربي كان صاحب بيان، وانتصر الإسلام بهؤلاء الذين تخرجوا من أيامهم المحاربة قبيلة تحارب قبيلة، سميت هذه الأيام، وهذه الحروب القبلية بالأكاديميات العسكرية. لنتصور أنه من السهل على فرسان الإسلام وقادته أن ينتصروا على القبائل المرتدة، كأن الحرب بينهم هي من نوع الحروب القبلية من قبل، لكن انتصارهم في حرب جيوش على الإمبراطوريتين ذات الجيوش أمر يحتاج إلى معرفة تستوعب قيمة المكان والإمكان والتعامل مع جيوش الإمبراطوريتين، كما سأوضحه بعد.

١ ـ اليرموك: فقد جهز أبو بكر أربعة جيوش مسلحة بقيادة ثلاثة

عدنانيين والرابع قحطاني، أبو عبيدة، عمرو بن العاص، يزيد أبي سفيان ثم شرحبيل بن حسنة.

كان التخطيط أولا أن يذهب كل جيش إلى مقاطعة تفريقا لجيش الروم ولكن الروم فطنوا إلى ذلك فاجتمعوا يحاربون بهذا التكتل الكبير، غير الروم خطهم فجاء الأمر من أبي بكر يحدد الاستراتيجية والتكتيك يقول: كونوا في مكان واسع المطرد، ضيق المهرب، فالطراد في المكان الواسع يبعثر الكثرة، والانسحاب من المكان الضيق يعطل التحرك السريع. لكن ثغرة في هذه الخطة سببها أن القائد العام أبا بكر الصديق وكل أمر التنظيم للقواد الأربعة، فأصبح كل أمير على جيشه يقاتل مساندا للجيوش الثلاثة، أي إنهم يقاتلون متساندين، متفرقي القيادة، حتى إذا وصل سيف الله خالد بن الوليد أنكر هذه الخطة فجعل الجيش واحداً وأقنع الأمراء بأن يتولى كل أمير منهم القيادة في يوم بعد يوم وطلب ابن الوليد أن يكون قائد المعركة في اليوم الأول.

إن هذا التكتيك في رسم الاستراتيجية أكسب العرب وحدة القيادة ووحدة الجيش، فكان النصر، وكيف تم النصر؟

تم النصر بلمحة خاطفة من خالد بن الوليد ميمون النقيبة، فحين رأى أن الميسرة توشك أن تحاصر الروم لم يفرح بهذه الحركة، بل قال: أفرجوا لهم. . أعطاهم الطريق ليفروا فسقطوا في الواقوصة لأنهم قد قيدوا أنفسهم بالسلاسل.

إن هذا التخطيط في تعيين المكان وتوحيد الإمكان، ولماحية القائد بهذا الذكاء لا يمكن أن نعده أمرا بدائيا بدويا، بل هو لا يخرج عن أسلوب عصري يفاخر المعاصرون بأنهم الفاهمون له، والقادرون عليه، حتى

قال قائد ألماني لقائد تركي: أخرج لهؤلاء الإنجليز الذين نحاصرهم الكرك، وقلّد في ذلك قائد الإسلام العظيم خالد بن الوليد.

٢ - وفي القادسية: جيش عربي ومسلم في تجمع واحد يخوض المعركة فإذا نسميه اليوم التكنولوجيا من الإعداد الفارسي يستعمل الفيلة فأجفلت خيل العرب. ورجحت كفة الفرس، لا تنتهي الحرب في يوم واحد كما انتهت في اليرموك، وإنما تطول إلى ثلاثة أيام، فلا يأتي اليوم الرابع إلا والتكنولوجيا العربية تحوز النصر الساحق، فما هي تلك التكنولوجيا؟ إنها من عمل القائد العظيم القعقاع بن عمرو، فلقد جاء القعقاع مددا يترك جيش الشام - وقد كان أركان حرب خالد - فرأى أن الغلبة كادت تكون للفرس.

قصة الحج إلى بيت الله الحرام

قصة طويلة وعريضة.. استطالت على مدى التاريخ.. تاريخ هذا الإنسان على الأرض، وأمكن لها بعد أن تكون محور التاريخ في هذا البلد.. شعباً وحكومات.. أمناً ومخافات.. تقلباً من حال إلى حال على امتداد العلاقات وثبات التعلق.. الحسن فيها معروف مدوّن.. والمسيء لها معروف مدوّن..

ولم يكد ينقضي عهد الفتح. عهد الوحدة بين العرب بانتقال الخلافة والملك إلى بلد آخر كمؤثرين في سير التاريخ المسلم وكمتأثرين بواقعهما في هذا البلد. ثم في غيرنا ثانياً. .

لم يكد ينقضي ذلك حتى جاء التأثير والتأثر بالحج والحاجين يؤثرون بما يصنعون ويتأثرون بما نصنع ليكون التأثير إيجاباً من ناحية الحسن فيهما، وسلباً من ناحية المسىء إليهما!

قصة طويلة:

بدأت بترك الجزيرة تأكل نفسها بالترف.. حيناً، وبالقرف حيناً آخر لتحيا بالشظف!.. الترف المقرف كان برانياً، والشظف المترف كان جوانياً في دم نقي، ولم يكن هذا الشظف إلا الحرب ضد الترف.. كان الترف حول المدنية الحاضرة كأنه لا وجود لآباء وأمهات في الجزيرة كلها إلا في مدن ثلاث: مكة ـ المدينة ـ الطائف.. أما البقية فتعيش إلى رجعة من بداوة وجاهلية.. لولا أنها أمة صلدة سواحة.. زاحفة تواقة.. ممدة وممتدة لما بقى منها أحد!

كل عوامل الإبادة تسلطت عليها، ولكن ذخر الحياة وشظف الأحياء أحيا الحياة فيهم!.. الحج أعان على لقمة العيش.. يأتي بعض حين يترف إلى المدينة.. يعيش أكلها - وأكثرهم نئوم الضحى، ساهر ليل - كما أنه بما أثر قد وسع الانفصال بين المدينة الحاضرة، والأرومة الوالدة في الآباء والأمهات.. حول هذه المدن.. كلهم سواء.. سواء في بادية الحجاز، أو في السراة كلها، أو في نجد بأسرها حتى بحرينها وكاظمتها.. فمن حدود البصرة - أدنى حدود العرب كما هو كتاب عمر لعتبة بن غزوان رضي الله عنهما - حتى نهاية وادي القرى.. بل إلى حافة الأردن، ومن "حضن" يرى نجداً من رآه.. إلى شماريخ اليمامة حتى البحرين كلها.. كما هو كتاب العلاء بن أبي بكر إلى إبان بن سعيد بن العاص.. كما هو كتاب العلاء بن الحضرمي.. والي الربع الخالي.. كان كل هذا متروكاً لبيت من الشعر.. من الوبر.. أو الحجيرة من المدر إلى نخيلات وشياه!.

لكن التفوق في العرق والنظافة في الدم سارت إلى رحلة تسوح _ إن لم تفتح _ بل هي فاتحة بنوع آخر. . تنشر اللغة ليستعرب اللسان بها عراقة

العرب. . كأنما هو زحف الناقم لرد فعل جاء من إهمال الزحفين. . قد حف بالترف، والزحف بالشظف!

زحف الإهمال كاد يدمر.. وزحف العرق واللسان لم يسأل عن الترف. . بل كان عدته الشظف. . أنفي عوامل الحزم والعزم في انتشار الأصول لتنمو الفروع.. جعلت البحر الأحمر بحيرة عربية. والخليج العربي مضيقا.. وجنوب البحر الأبيض كله مسبحاً عربياً، وسواحل بحر الظلمات أرض نور عربية!

ولا ينتهي الترف والقرف والشظف بالعربي إلا وهو قد تخطى المحيط الهندي. وجبال الصين حتى يصل إلى الجزر هناك. وإلى منشوريا.. يجعل من أهلها.. المسلمين.. فبالنقمة الترف كادت تهلك.

الترف جعل من الحجاز _ مقر الحج _ معهد موسيقى، وندوة ظرفاء.. بينما هو ما كان ولن يكون إلا نور نبوة، وبرهان يقين، وحلبة أبطال، ومنبع كلمة مليحة فصيحة شاعرة، ومحط رجال، ومناط آمال.. يستمد من روافده في عزومه ونجوده كل ما هو أصيل ليقاوم كل دخيل!..

والشظف أعان الثقة لتعود الثقة بجرعات الألم.. يحيا الأمل.. يطرد الهم بعزيمة الهمة.

خلاصة لا بد من تقديمها. . لتعرف مدى التأثر للحاج كما مدى تأثرهم . . حتى إذا علا صوت شوقى:

ضج الحجيج وضج الحل والحرم

تعالت أصوات تستنكر الخوف وتطلب الأمن!

لقد كانت الصورة من هذا البلد. . صورة مخيفة حتى الخوف من الجوع. والخوف من العطش. ثم أصبحنا الآن وقد زالت المخافة وأمن

الحاج.. أخذنا نتجه إلى بذل كل مجهود يرضى عنه الحاج.. فكأنما حالنا أصبحت كرد فعل لحال سبقت، ولكن قد تحقق معها قول بعض العامة: (يا طخه.. يا كسر مخه!).

لقد أسرفت مئات السنين في المخافة وعدم العناية، فأصبحنا نسرف الآن في كثير من الرعاية تكلفنا باهظاً!

إن واجبنا أن نرعى وأن نؤمن وأن نريح. . ولكن ينبغي أن يكون ذلك على أساس من التعامل والفهم والوعي. . لا على أساس التكليف لنا وحدنا. . ومن الغريب من هذا البلد كدولة وحتى كشعب يبذل كل ما في الطاقة وأكثر من الطاقة لإراحة الحاج حتى إذا رأوا خطأ أو زلة من واحد لم يغفرها أحد. . بل إن بعضهم ليشنع بها علنا! . أمام هذا كله أريد أن أتبسط مع هؤلاء الحاجين . . أعرض صوراً من صورهم . . راجياً العدول عنها في المستقبل ، ومؤملا الاعتدال لها ومنا كذلك :

قبل أكثر من عشرين عاماً كنت أسرح بفكرة عامية.. أحمل فيها النقد على أنفسنا بما أشعر أنه غير مريح للحاج، وتحدثت في ذلك مع الشيخ (نوري السعداوي) يرحمه الله.. فقال: لعلّك لم تنتبه إلى مستوى الحجاج.. إن هؤلاء أكثرهم غير واع لا يكاد يعرف أين يذهب. أين ينام؟.. ماذا تصنع الدولة لهؤلاء الذين يغتسلون في الشوارع. وينامون في الطرقات وحتى بعضهم يسكن المساجد.. أعني الحاج الواعي أمثال هؤلاء الذين يسكنون البيوت ويؤدون قيمة الخدمات.. أحمل معك على الدولة، ولا تنسَ أن بعض المباشرين لهؤلاء الحجاج يغضون الطرف عن إهمال الحجاج لأنفسهم!

وأخذت الكلمة من «نوري بيك» كوعى أسير به في كل ما ألاحظه على

الحجاج.. حتى إذا سألني هذا العام أخي القادم من الدمام.. قال: كيف يذيع الأستاذ عبد الله عريف على رؤوس الأشهاد أنه لم يأته خبر عن شاة ملقاة في الطريق.. مع أني رأيت الكثير من ذلك؟! قلت له: إن عبد الله عريف ـ كأمين عاصمة ـ لا يمكنه أن يلقي.. كذبة بيضاء على المنبر.. فهو صادق حينما قال ذلك، ولكنه ماذا يصنع؟. هو وكل القوة التي لديه في هذا الكتيب من الحجاج أنفسهم.. لا تكاد الأوساخ من ناحية.. إلا وقد تراكمت في نواح أخرى.. فكثير من الحجاج لعدم وعيهم.. لا ينظفون ما حولهم.. بل هم يزيدون الطين بلة.. إن القوة الخارجية من حدود الإنسان لا تستطيع أن تغير ما حواليه ما يستطيع هو التغيير!.

أكثر الحاجين لا يعنون بأنفسهم.. كأنهم لا يعرفون شيئا.. قد يكونون كذلك، ونحن لا نستطيع في أيام محدودات أن نعلمهم.. فلماذا لا يزودهم الفاهمون من إخوانهم بزاد في المعرفة، وبنصح وإرشاد؟!.

إن هؤلاء الفاهمين أصبح من دأبهم التربص بالنقد لنا. لا التخصص في إرشاد إخوانهم . إن هذه الحال يمكن تحقيقها بالتفاهم على مستوى المسؤولية من رجال الفكر في الشعوب الإسلامية، أو حتى على مستوى الحكومات.

العسرب

كثير من الاقتراحات قدمت إلينا، وطلباً للإرضاء، وعملا بالإغضاء، وحبا في راحة الناس نفذت هذه الاقتراحات حتى إن بعضها ـ وقد أصبح نافذا ـ قد أضر كثيراً بمصالحنا نحن القائمين بخدمات الحجاج.. بل إنه كلف الدولة الكثير الكثير!

بعض من الحجاج لا يبالي أن يصرف في رحلة سياحية الآلاف ولكن

أن يصرف هنا بضعة ريالات لأجرة مسكن أو مقابل خدمة. . فلو وعى الحجاج ما ينبغي عليهم أن يعملوه لأراحوا أنفسهم.

إن الحاج يأتي بالطائرة ومعه القراقيش والجبنة والزيت وحتى قوارير الماء.. وحينما سألهم بعضهم: ماذا يصنعون بقوارير الماء.. قالوا: هكذا سمعنا.. أنه قد يحدث عطش. لا ماء عندكم!. كأنما الكلام القديم لم يقض عليه جهد بذل في أكثر من خمسة وأربعين عاما.. لكنه بخل الحاج عن الدعوة الحسنة يدعون بها الذين لم يحجوا!

في البلد وفرة من الغذاء والماء، فلماذا يأتي الحاج من أقصى الشرق أو أقصى الشمال، أو أقاصي الغرب بحفنة من خبز أو بجرة من ماء؟ إنه معذور حريص على حياته.. قد حرم العلم..

هما الخطآن: خطأ منا في نقص الدعاية. وخطأ منهم.. أي من إخوانهم.. في عدم التوعية! هذه مشكلة المشاكل ينبغي أن نجد لها علاجاً!

ومشكلات لا تزال لدينا يمكن أن نضع لها الحلول.. لا أستعرضها ناقدا، ولا أريد أن أزيد بها ذا علم، وإنما أطرحها كاقتراحات.. ألقي عن كاهلي بعض ما يثقله من شعور كل ما فيه أن لا يضيع كل ما بذلناه من جهد أمام مشاكل يمكن حلها.

حين ألغى الرسوم عبد العزيز بن عبد الرحمن يرحمه الله تعلمت هذه الكلمة من الصديق إبراهيم إسلام.. قال: إن هذا الإلغاء سيكون سبباً في كثرة الحاجين من الفقراء.. كثرة ليس في طاقة هذا البلد استيعابها.. قد تضيق عليها بعض الأماكن وتكثر معها السيارات فتكون المشكلة!.. وحفظت هذه الكلمة لأجد مدى الصدق فيها.. فوجدتها الصحيحة.. لقد كثر الحجيج من الضعفاء والفقراء فأهلا ومرحبا بهم. ولكن علينا أن نجهد

في هدايتهم الطريق. . في التوعية لهم.

ولقد ضاق المكان _ على الأقل في منى _ وكثرت السيارات، فتعسر المرور، فما هو الحل!. الحل في نظري: بالنسبة للسيارات، وقد زاده كثرة إصلاح طريق الرياض وما وراءه هو في هذين الأمرين:

أولاً: لنجرب الطلوع إلى عرفات في ردين بدل رد واحد. . لنخفف عدد سيارات النقابة إلى النصف.

ثانياً: لنبذل النصح للآهلين الذين حجوا مراراً أن يؤجلوا حجهم حتى يتسع لدينا التطبيق للتجارب، فلا يحج من أهلنا إلا من وجبت عليه الفريضة. . فسحة لا نجبر عليها وإنما نتطوع بها لتفريج كرب عن القادمين من أرض بعيدة، ولتخفيف الضغط من كثرة السيارات، ولتتسع منى.

أما منى فالحل في اتباع الشريعة.. وهي أن تكون منى سوحاً للمسلمين.. إما أن نأخذ بقسم من الفتوى.. نهدم جزءاً منها ويبقى الآخر بناء شامخاً؟.. لتهدم منى كلها لتكون كلها سوحا.. نعطي هذا السوح فراغاً في الفضاء قد يكون ثلاثة أمتار أو أربعة أمتار.. ثم نبني فوق هذه السوح عمارات منسقة بتخطيط موحد.. لتكون سكناً للحاجين، وليستعمل السوح أماكن للسيارات.. دكاكين.. مجازر. مصحات.. منازل لبعض الفقراء.. ويؤجر هذا البناء بإيجار مخفض، وليكون هذا البناء وقفاً على المسجد الحرام، وعلى مرافق الحج.. تصلح به.. ولكي نهدم هذا البناء الموجود فإني أقترح أن تقوم قيمة البناء فقط، ولا تصرف لصاحبها.. بل الموجود فإني أقترح أن تقوم قيمة البناء فقط، ولا تصرف لصاحبها.. بل أقترح أن تتكون من حصيلتين.. حصيلة بالمال الموجود لدى الأوقاف أقترح أن تتكون من حصيلتين.. حصيلة بالمال الموجود لدى الأوقاف ليكون للأوقاف بهذا المال.. أو بما يضاف إليه أن نقص ٥١٪ من رأسمال

هذه الشركة المؤقتة، ويكون للمساهمين من سكان هذا البلد لا غير 82٪..

من بينها قيمة هذه العمارات التي ستهدم في منى.. كل ونصيبه، ويحدد لهذه الشركة أجل.. إذا ما استوفت فيه نصيبها مما بذلته الأوقاف ودفعه المساهمون.. لتعود منى كلها وقفا خاصاً على المسجد الحرام ومشاعر الحج.

أحسب أن مشكلة منى يمكن أن تحل بهذه الطريقة، ولا أظنني أخالف الفتوى التي قررت هدم منى كلها لتكون سوحاً..

الوعي.. والتوسعة قبل كل شيء. وقبل ذلك حل مشكلة حجاج البر بإيقاف السيارات عند حدودنا، ولدينا سابقة.. اتفاقياتنا الأولى مع سيارات العراق.. يمكن العمل على مثالها ليكون بذلك تخفيف عدد السيارات، والحفاظ على مصالح شعبنا، وليكون عملنا بعد ذلك بارزاً لا لبس فيه!

أسبوع المسجد

وليس بدعا ولا غريباً، أن يحتضن جلالة الملك خالد العناية بالمسجد فيسبغ الرعاية على وزارة الأوقاف والحج. . أقامت أسبوعا للعناية بالمسجد، من ناحية النظافة، وما إلى ذلك. . كأنما كل من جند لذلك. . قالوا له: أنت ابن المسجد. . هو يبني روحانيتك كما بناها لآبائك وأجدادك . . وأنت حين تبني النظافة في المسجد . . إنما تعلن عن نفسك، أنك قد امتثلت الأمر «خذوا زينتكم عند كل مسجد».

فالحكومة بكل مؤسساتها، ورعاية جلالة الملك والأبناء والآباء ومن حركوا أنفسهم للعناية بالمسجد، قد اتخذوا زينتهم.. فالزينة للمسجد ليست في اللباس، ولا في المظهر فحسب.. وإنما هي.. هي في المخبر..

فالمسجد أب الدعوة للإسلام.. مكان ركوع وسجود.. منبر وعظ وإرشاد.. محراب إمام.. جامعة للعلم فالمسجد في كل أدواره.. كل المدرسة والجامعة.

من هنا. . أرجو ألا يقتصر الأمر على أسبوع واحد. . وعناية بأمر واحد فحبذا لو أبقينا على المسجد الحرام والمسجد النبوي . .

فقد كانا جامعتين أخرجا للناس _ كل الناس _ الأئمة العلماء . . والعلماء الأئمة . . فالواحد منهم . . يمكن لأي دارس أن يمنح لقب «الدكتوراه» في ناحية واحدة من علم الإمام . .

فلقد قلت يوم أن كرمنا الفوج الأول من خريجي مدرسة تحضير البعثات «ليس الكثير منكم أن تنالوا شهادة الثانوية أو البكالوريوس أو ما يعادلها من شهادات عليا فإن بلدكم هذا من الساعة التي سطع فيها نور «اقرأ» على حراء.. نبغ فيه زمنه وبه «الدكاترة» ابن عباس.. ابن عمر.. ابن المسيب.. عطاء.. عكرمة.. مالك بن أنس.. الثوري.. الفضيل بن عياض.. مسلم بن الحجاج.. عروة بن أذينة.. ربيعة الرأي.. جعفر الصادق.. جابر بن حيان الشافعي.. وكثير كثير.. مع هؤلاء وبعد هؤلاء.. كالأئمة في العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس وخراسان.. كلهم أبوهم المسجد..».

فلماذا لا يكلف أنفسهم العلماء في جامعة أم القرى والجامعة الإسلامية. ولقاء الدروس في المسجدين وحبذا لو لم يقتصروا على الدروس الدينية. فالمسجد في عهده الأول قد اتسع للدروس الدينية والدنيوية. وينتقي من والدنيوية. يجغرف لهم التاريخ. أو تؤرخ لهم الجغرافية. وينتقي من الأدب أحسنه وأكمله. وحتى الطب. فهل هناك ما يمنع أن تلقى دروس

في المسجد عن الطب الوقائي؟!

إن ذلك يحول دون انفصال الآباء عن الأبناء.. يعرف الآباء من دروس المسجد ما عند أبنائهم. حتى ليمكنهم أن يجروا الحوار فيما علموا.. يستزيد الأب من علم الابن.. يفرح الابن بعلم الأب..

وإذا بدا لبعض علمائنا ألا يكلفوا أنفسهم بذلك.. وإذا ما بدا للسلطان أن هذا أمر حسن.. فيكون التشريف للعلماء.. بالتكليف المأمور به لقاء مكافآت، ولعل المكافأة الأكبر.. الثواب من الله.. أكثر من ثواب المكافأة.. بل وأكثر منها شكر الآباء للعلماء..

أحسب أن بذل العلم في المسجد. هو من الزينة التي يتزين بها المؤمن أمام المسجد وفي المسجد وللمسجد وإن من حسن المصادفة أن تكون المنحة من الله. للشيخ صاحب الفضيلة والمعالي حسن بن عبد الله آل الشيخ فلعلّه الجدير بأن قاد هذا الأسبوع، وارث علم استحفظ على التراث وزيراً للتعليم العالي، ورئيساً لمجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز. فهو المطالب مني بأن يكون معي بكل ما اتصف به. أن يحبذ ويزكي، اقتراحي بتكليف العلماء، أن يتخذوا من المسجدين جامعتين.

اسمها رابطة العالم الإسلامي

وكاتب الحرف الملتزم لا يجد نفسه ملزما بأن يكتب عن موضوع يوائم الموقف الذي ألزم به، أو يكتب عن موقف يناقض موقفه الذي ألزم به، والإلزام يعني الالتزام ليس بطابع التسخير بقوة قاهرة أو تعليمات صادرة، وإنما هو مع المسيرة نحو ما التزم به شعبه من مبادئ الدولة التي هي واحد من الجماعة لا يشذ عنها، والخضوع لرأي الأكثرية لأن الأقلية _ وإن كان لها رأي الأكثرية وتسقط رأي الأقلية.

وهذه المقدمة أكتبها تاريخا لرابطة العالم الإسلامي وما تفرع عنها وهو المؤتمر الإسلامي، فقد نبغت نابغة هذه الأيام جرت إليها حوادث الأفغان، وهذه النابغة لا نسأل عنها ولو لم تكن من مصر، فمصر في قرار لإحدى لجان الحزب الديمقراطي الاشتراكي، طلبت تأسيس الجامعة الإسلامية فهل رابطة العالم الإسلامي لا تمثل الجامعة الإسلامية، مع أنها، بالأمس وحين كانت مصر تتولى أمانة المؤتمر الإسلامي المتفرع من الرابطة - لم تقترح مثل هذا الاقتراح؟ لأنه في واقع الأمر كان في نظرها حينذاك، أن رابطة العالم الإسلامي تمثل الجامعة الإسلامية، وأن المؤتمر الإسلامي يمثل الحكومات الإسلامية في إطار الجامعة الإسلامية رابطة العالم الإسلامي التي مثل فيها رجال من كل الأمة المسلمة.

إن هذا الاقتراح قد واكبه تفريع ما كان أشد إعجابي به، لو لم يكن في هذا الوقت بالذات. ومن عجيب أن الوقت كما قلنا من قبل، يضفي على كلمة دقة الصواب لها، أو فشل الصواب منها، فالوقت يعطي دلالة الكلمة كل ما تعنيه أو يسلبها كل ما شعبت به.

وهذا التفريع قاله أستاذ يملك ناصية موضوعية، فهو يرى أن المؤتمر الإسلامي يمثل الدول أو الحكومات، فلا بد من إنشاء الجامعة الإسلامية لتمثيل الشعوب، رأي يعجب، لو لم تكن رابطة العالم الإسلامي موجودة، أفليست هي الآن تمثل الشعوب الإسلامية؟ فهذا الرأي لو طرح من قبل أن تؤسس الرابطة لكان توقيته يعطي الصواب له، ولكن غزو الأفغان ووجود رابطة العالم الإسلامي قد سلبه هذا الصواب، ولكن كيف تتغير المواقف التي تحتمها المبادئ بحوادث جانبية ومواقف عرضية؟ فإن مصر العظيمة في إسلامها وعروبتها كانت العضو الثالث للمؤتمر الإسلامي، الملك سعود أي

المملكة العربية السعودية _، غلام محمد أي دولة الباكستان، جمال عبد الناصر أي دولة مصر، وقد كان الأخ رئيس الحزب الوطني أنور السادات السكرتير للمؤتمر الإسلامي وحين طرأت مواقف تخلت مصر عن هذه العضوية، لا خروجاً على المبادئ، فمصر المسلمة لا يمكنها الخروج على المبادئ، وإن جانبتها في ظرف معين لغرض معين، وقد طرأ على هذا الخروج وضع البديل للمؤتمر الإسلامي، وهو تأسيس رابطة العالم الإسلامي جامعة إسلامية مثلت فيها كل الشعوب المسلمة وحتى مصر بالذات. فقد كان أحد الأعضاء المؤسسين مفتي مصر السابق الشيخ حسنين مخلوف أي إجراء يمنعه من عضوية رابطة العالم الإسلامي، كأنما الرئيس جمال عبد الناصر _ يرحمه الله _ قد رأى في تمثيل مصر في رابطة العالم الإسلامي خط الرجعة إليها.

إن الوضع في أفغانستان لا ينفع معه التشغيب ولا تفيد المماطلة بل إن الجريمة _ كل الجريمة _ في التخريجات والتفريعات والمماطلة كأنما كل دولة قد انتظمت في المؤتمر الإسلامي ملزمة كل الإلزام بألا تخرج علينا بكلام يمليه الخوف من الاتحاد السوفيتي، أو تنتكس به بمبادئ العروبة والإسلام، ولكنها أوضاع، فلقد قالوا من قبل إن الرابطة والمؤتمر الإسلامي، والتضامن الإسلامي تبعية للولايات المتحدة، وقد رأينا من العالم الحر ومن الولايات المتحدة بالذات الحرب تشن على الإسلام الممثل في الرابطة والمؤتمر والتضامن، مما يثبت أن هذه المؤسسات الإسلامية لم تكن تابعة للاستعمار القديم، واليوم تقول ألسنة عربية أن الولايات المتحدة تسخر المؤتمر الإسلامي لأغراضها.

واليوم تشغب دولة مسلمة برأي خلفي تريد به نسف رابطة العالم الإسلامي والمؤتمر الإسلامي. . حيرة سببها الاستقطاب، وأكبر أسبابها

الخوف، ولكنه عزيز ينتصر دائماً بشن الحرب عليه، وكما هو في الحديث الصحيح (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الكافر أو الرجل الفاجر) وكما قلت من قبل، فإن تخريج أبي السامي صاحب البيان المشرق أستاذنا مصطفى صادق الرافعي وهو ما أعتقده التخريج الصحيح لهذا الحديث، قرأته له في كتابه (تحت راية القرآن) في الرد على الدكتور طه حسين يقول الرافعي: إنه ليكفر الكافر، يحارب الإسلام، ويفجر الفاجر يحدث البدعة في هذا الإسلام، فتثور ثائرة المؤمنين تحارب الكافر، وتصد الفاجر لتنصر إسلامها.

ليلة السبت . . جاعِلْمَنْ وراح!

أناشيد وأغان.. واعتزاز وفخار.. وحماسة تعتري وتنتحي.. وكلمات مجنحة.. وكلام سائر.. إلى غير ذلك مما يجري على الألسنة.. ألسنة قبل ذهب القتال من عقيدة.. أو ألسنة ذهبت على غير عقيدة.. أو على البطر والأشر.. في كل مواقع القبيلتين تجيء هذه الكلمات حتى إذا انتهى كل قبيل إلى مصيره نصراً أو هزيمة.. جاءت هذه الكلمات التي جرت على ألسنتهم برهاناً على ما نالوا من نصر.. أو ما لحقتهم من هزيمة.

ذكرت هذا كله وأنا في مدينة الملك فيصل ـ الخميس ـ كنت أتفرس وجوه الرجال وأسمع ما توحي به نظراتها إلى ما أعد لهم. . إلى ما هم معدون لـ . . فوجدتني أسير مع هذا المحصل من نظراتي إليهم . . إلى سرد فيه المقارنة بين هذه الكلمات الحماسية الغنائية التي قدمتها في مطلع هذه الكلمة .

هذا القبيل المسلم في بدر تحفظ لأكثر من واحد هي قانون المعركة

المنتصرة.. وصارت هي في قوة القانون للذين يقدرون بها قولا وعنها عملا.

قبيل مشترك قال واحده كلمة كوّنت لدينا ضعف البصر وهزيمة الذين يقاتلون الفخر ولا يحوزون النصر.

الكلمة المسلمة التي قالها شهيدنا في بدر عمير بن الحمام هي: (بخ بخ وإنما بيني أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده الخ). . رازها في يده فتلقفها بوجدانه يقدم على القتال مجاهداً في سبيل إيمانه، دفاعا عن قائده رسول الله على . فيرزق الشهادة ليكتب هو ومن استشهد معه وبالناجين من رفاقه النصر الأكبر.

الكلمة التي قالها واحد المشركين أبو جهل عمر بن هشام هي: (والله لن نبرح الأرض حتى ترقد النار وننحر الجزر ونشرب الخمر) فتسمع العرب ما تضيف به العزة لقريش.

الكلمة الصادقة جاء بعدها العمل الصادق كانت سبيل النصر.. والكلمة المنتفجة لسان كله البطر أنالت أبا جهل الهزيمة حتى جندلته لا يقتله إلا أضعف الرجال. شابان لو لقياه في طريق لارتعدا هيبة منه.. بركا عليه كأن قوة الصنديد قد استطاعت لحظة أن تبرهن على وجودها أمام ضعف العضل في هذين الشابين.. لكن عضل الصنديد قد خار أمام قوة القلب في الشابين.. ولم يجهزا عليه.. فجاء دقيق الساق، نحيف البدن، رويع القلم ابن أم عبد.. عبد الله بن مسعود، يركب الصنديد كأن قوة القلب في هذا الضعيف أرادت أن تنهك قوة العضل في الصنديد..

كلمتان فيهما البرهان على دواعي النصر وعلى دافع الهزيمة. المسلمة انتصرت لأنها يقين عن يقين. والكافرة انتحرت لأنها كاذبة عن كلب.

وتمضي السنون وحول بدر قريبا من الساحل في (مجز وجزان) يقوم قبيل عربي بقتال جيش فخري باشا ومن إليه فلا نسمع نشيدهم إلا هكذا (ليلة السبت جاعلمن وراح. . ركبت الخيل والسبع القبائل، والفرنجي على مشروبها) أي إنه يقول: إن الغاية هو هذا الفرنجي الجنيه أبو خيال.

وبعدها بشهر حول البئر.. البئر التي نسميها الآن (الفريش) أو بئر الماشي وآبار درويش.. كانت عرضة قال فيها رجل أعجب القوم المشاهدين والعرضين معه.

كان هذا الفارس العربي في أحد مشارف الحجاز وهو من قلب نبد قد عرض يغير على فرس كميت فحفظوا عنه قوله (نجم تهلهل من قرط السماء.. خيال الخيل وأناخو نوره) هو ناعس الذويبي يصف نفسه فاخراً بأنه النجم حل من قرط السماء لا ينكر هذا القول منه فخرا من فارس. ولكن النكير أنها كلمة لا تنبئ عن يقين اليقين عن غاية واضحة.

سار هذا القبيل المحارب إلى قدره فانتهى إلى لا شيء.. وجاء بعد ذلك أهل ناهس وكل نجد يقرأون كلاما آخر (هبت هبوب الجنة. وين أنت يابا غيها).

هذه الكلمة لا أحسبها إلا ترجمة لكلمة عمير بن الحمام. الكلمة الفاخرة من الفارس كانت ترجمة لما أراد أن يفخر به الصنديد.. وهنا الفرق بين الكلمتين كالفرق بين تلكما الكلمتين.. طالب الجنة أوصله يقين اليقين إلى النصر.. وطالب الفخر أوصله إلى هزيمة.

إن الكلمات ما هي إلا تعبير عن النفوس. أو هي معبرة تخطو به النفوس إلى مصائرها. عرف ذلك جاهلي قالها في يوم من أيام داحس والغبراء هو حليفة بن بدر قال لأخيه حصن (إياك ومأثور الكلام).

واليوم نحن نعرف أن كثيرا مما قلناه من الكلام كان من أسباب تأليب العالم ضدنا. كلمة واحدة صادقة تقترن بعمل خير من الشدق بكلام فاخر ليس له أول وليس له آخر. . لا . . إن له آخراً هو ما يجري اليوم.

اليوم فتحت الجامعة أبوابها وذهب الكثير من حملة التوجيهية يؤدون امتحان المقابلة. لكن بعضهم لم يأخذ استمارة النجاح من المدرس لأن نتيجة امتحان الدور الثاني لم تظهر. هذا صعب وإن تلطفت الجامعة فقبلت الطلبات استناداً إلى جداول جاءتها من إدارة التعليم أفليس من الممكن كدواعي التنسيق. كإعطاء الفرصة لشبابنا أن يقول (الحمد لله) الإسراع بإعطاء النتيجة من التبكير بالامتحان في وقت يسع لإخراج الاستمارات؟. في العام الماضي استجابت كلية البترول مشكورة لهذه الملاحظة ولم تكن هذه مسؤوليتها وإنما مسؤولية التأخير من غيرها.

لست مجحفا بأحد فأنا حفي بوزارة المعارف. . قائم بشكرها لما قدمت من خير لهذا البلد. . ولكن الملاحظة ما هي إلا تذكير ومن حق المسلم على المسلم أن يذكره بما هو خير.

العسل الذي شراه الأخ أحمد يوسف زينل من مدينة أبها وأهدانا منه مع الأسف لم يكن صائبا، كان مغشوشاً.. أتعرفون كيف يغشون العسل..؟ يأتون بالقرع الأصفر يغلونه على النار يغدقون عليه السكر.. يضعون هريسة من بذر البامية تعطيه عرقا يقولون لك هذا هو العسل الأصفر. من غشنا ليس منا.

تحية لأفريقيا السؤدد!

وكثير هي النعم التي أتمها الله علينا في هذه الأيام.. فله الحمد سبحانه.. إنه ولى النصر واهب النعم.

ومن هذه النعم ذلك الانتصار تهديه لنا أفريقيا.. تقطع كل دولها علاقاتها مع إسرائيل.. اعترافا بحق العرب.. وائتلافاً مع العرب. وانطلاقا من معرفة لما تنويه إسرائيل من سوء ظهر واضحاً ضد العرب واتضح للأفريقيين.

أقول.. كل أفريقيا.. فالكلية التي لا تستغرق الجميع.. إنما في هذا الجل الجلول فالدول الكبيرة في أفريقيا. والشعوب الكبيرة كلها معنا.. حتى ليبريا.. حتى جوموكينياتا. وما علينا من جنوب أفريقيا أو روديسيا.. فإن موقفهما ما هو إلا تحريض لأفريقيا على محاربة الاستعمار والعنصرية..

أفريقيا السؤدد أخذت مكانها في دنيا الإنسان اليوم. فالدول والشعوب ترسخ مكانتها وترتفع قيمتها بمعرفة الحق. والنضال لنصرة الحق. أما الدولة اللامعة. الدولة العميلة. فشيء لا يقام له وزن. كل ينكر وزنه حتى أفراد من شعبه ينكرون ذلك. فتسقط الهيبة. وترجع المكانة تحت أوضاع التبعية.

إن أفريقيا عربية مسلمة في الشمل. ومسلمة مسيحية فيما بقي من القارة عرفت لنا إيمانها وسلامة مقاصدها. وصداقتنا لها. فاستهواها كل ذلك لأن تكون المؤمنة معنا ولنا. ولتكون الآمنة بنا.

فلئن كسرنا شوكة العنصرية في إسرائيل فإنا نعطي القدرة لإفريقيا أن تكسر العنصرية في الجنوب. وأن هذا الشذوذ _ وأعني به استعمار البرتغال _ فإن البرتغال كإسرائيل حثالة لا يقام لها وزن لولا العون ممن سخروا أنفسهم طغاة يعينون الطغيان.

أفريقيا السؤدد أحسبني في غبطة من أمري حين أزعم لنفسي أني من سنوات مضت وأنا أدعو لحسن العلاقة بأفريقيا. . فإذا بي أجدني على

صواب فيما دعوت إليه حينما أجد أفريقيا تكون معنا. . تكون لنا . . وتكون إلى غيرنا .

أفريقيا السؤدد أحسبها أرضاً مسلمة تحن إلى القبلة. إلى بيت المقدس. يجرها هذا الحنين لأن تكون لنا المعين. وقد سبق لي أن قلت الوحدة في العنصر. والتوحد في الإيمان لن تكون إلا واحدة في اتجاه واحد. وحدة المذهب فيها جعلتها لا تشذ عن مصادر مذهبها. فالحجاز عنه أخذت مذهب مالك. وحتى نصرانيهم يدين باتباع ذلك المولود في بيت لحم في فلسطين. فليس عجيباً من أفريقيا أن تقدس أرض الأنبياء. وتحمي أرض الأنبياء. وإنما العجيب من هؤلاء الذين يدينون بدين المسيح ثم لا يحمون أرض المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. بل إنهم وهم نصارى واصبحوا عوناً لقتلة الأنبياء الذين يفخرون كذباً أنهم صلبوا المسيح وليس الغريب من كذب اليهود وإنما الأغرب من أن يصدق النصارى الصلب. ثم يكونوا مع طغيان الصالبين.

أفريقي السؤدد أحسبنا لا نفي بحق شكرها علينا فإنها قد أوضحت للدنيا أن القارة التي يسمونها المظلمة قد أصبحت بيت النور.. فالحق الذي عرفت وناصرت ما هو إلا نور ينقشع به ظلام أسدل سجفه استعمار مقيت.. وإلا فما أشد نور الشمس في غابات أفريقيا.. إنها قارة صهرتها الشمس فهي ليست في ظلام من نور الشمس هبة من الله على هذه الأرض.. وإنما كان من الظلم.

تحية لأفريقيا فهي تستأهل كل تحية . أجل تحية .

سياسة

الله رحمنا. . فغيّر نفوسنا!

في حكاية يرويها الذين يحبون أن يضحكوا من النكات. أو الاحماضات. تطرية في مجالسهم وسمرهم.

هذه الحكاية تقول. إن جماعة من المسلمين العرب قد ركبوا سفينة شراعية فهبت زوبعة فخافوا الغرق فأخذ كل واحد منهم يصرخ هكذا . يا سيدي فلان. يا ستي فلانة . وهكذا إلى آخر هذه النداءات . وكان في السفينة شامي لم يصرخ ولم يدع بل جلس يسمع صراخهم واستغاثتهم بغير الله فرفع أخونا الشامي يديه إلى السماء يخاطب الله سبحانه وتعالى فيقول . . يا الله ما تغرق نسيوك!

هذه الحكاية تكاد تنطبق على حالنا نحن العرب والمسلمين. في أكثر من موقف لجأنا إلى غير الله. حبسنا إيماننا فلم ندعه ينتصر فينا. وسرنا مسيرة الهوج. كان ذلك فيما مضى قبل العاشر من رمضان حتى كدت أخشى الوعيد في قوله «ألا تنفروا يعذبكم عذابا أليماً ويستبدل قوماً غيركم».

أما اليوم العاشر فقد ألهمنا الله أن نكون له فكان معنا كأنه سبحانه وتعالى قد منَّ علينا فغيرنا تغييراً نطرد كل شيء غير الله فلا نلجأ إلا إليه. . كأنما هذه الآية منصبة علينا قبل العاشر من رمضان «وضاقت عليهم الأرض

بما رحبت وظنوا ألا ملجاً من الله إلا إليه» لكنه سبحانه ألجأنا إليه.. لا تتنكروا لكلمة مؤمنة بل تنكروا لكل كلمة مثبطة كافرة..

فالمعجزة النعمة لم تكن في العبور فحسب، وإنما كانت في هذا الاعتبار.. نتوحد في كل اقطارنا كل شعوبنا أصبحت وحدة.. كل القادة ملوكا ورؤساء ـ انتظموا في سلك الوحدة الواحدة يخوضون المعركة الواحدة.. دول المواجهة ومن أعانهم من دولنا.. خاضت معركة السلام فانتصر السلاح.. ودول أخرى خاضت معركة لم يكن من مرادها الإهانة لأحد، وإنما كل مرادها رد الاستهانة بنا.. نأخذ حقنا.. ننقذ الأرض العرض حافد من سكانها فإن ذلك سلب لعرض ساكنها.

غيّرنا الله فوحد قلوبنا نسير في المعركة بأسلحة متعددة كأنها السلاح الواحد.. فقذف الله الرعب في قلوب الطغاة.. وقذف الله التردد في أعوان الطغاة، وقذف الله الاعتدال في بيانات الذين كانوا بالأمس أنصار الطغاة.. فأصبحت إسرائيل في عزلة مقطعة اتصالاتها بكل الدول. ولعلّ هذا من معنى هذه الآية نزلت في وصف اليهود «وقطعناهم في الأرض أمما» ـ الآية.

تقطعت بهم الأسباب فإذا هم يعيشون كما تعودنا منهم الخلاف في داخلهم.. حتى إيبان تنصل من الخطوط الآمنة.. وقذفها تهمة يتهم بها دايان مع أنها كانت من مفاخر إسرائيل، ومن الحتم في تعاملها مع قرارات هيئة الأمم.. حتى ضباطهم قد تخالفوا وتنابذوا وتنافروا.. كأني أتصورهم اليوم قد عادوا إلى ما بعد عهد سليمان عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ينشقون على بعضهم فيكون في هذا دمارهم كما كان بعد سليمان.

الله غيرنا حين كان الإيمان به سبحانه مل قلوبنا. وكلماته شعارنا حتى القتلى الشهداء لم تكن الحزاني عليهم. ولم تكن الخزايا بهم، وإنما كما صاروا أصحاب المزايا فالحمد لله. حمد العائدين إلى الحق. المنتصرين للحق وبالحق، ذلك فضل الله أنعم به علينا سبحانه.

العرب بين الإرهاص والمعجزة

سادتي..

لا أريد أن أقدم بحثاً عن دراسة شاملة.. فما زلت أعرف في أمثال عروبتي _ ألا أحمل التمر إلى هجر، فأنتم رجال العلم والفكر مما كنا نسميكم المستشرقين، فرفضت هذه التسمية أسير بها كما سار بها البروفيسور جاك بيرك، والبروفيسور شارل بيلا، الفرنسيان المستعربان _ فأقول أنتم المستعربون لا المستشرقون.

فالاستشراق يحرمني أنا العربي الاستحواذ عليكم والالتصاق بكم، وحصر ما صنعتم لأمتي العربية تقديراً لكم.. لا حرماناً للآخرين من عملكم، وبكل الصراحة، وبالصدق المكلف به طالب المعرفة.. أقر وأعترف أنا الموقع أدناه، أو بعبارة أخرى الناطق به أمامكم بأننا نحن العرب مدينون لكم بنشر تاريخنا والاحتفال بتراثنا والإشادة بحضارتنا، ليس من باب الإطراء لتاريخنا وآثارنا وحضارتنا، وإنما هو أدخل في باب إعلان الاعتراف منكم بعظمة هذا التاريخ وعظمة هذه الحضارة، والاغتراف منها.. فقد كانت أمة العرب أمة الإسلام الأمة الوسط، حاملة الحضارة الوسيط التي أفادتكم، فكانت الأساس والدعامة لما أنتم عليه الآن.

^(*) نص المحاضرة التي ألقاها المؤلف في ندوة دراسات الشرق الأوسط بإنجلترا يوليو ١٩٧٦م.

من هذا المنطلق. . لا أتقدم بدراسة وبحث، وإنما أتقدم بخواطر. .

فقد كانت حالة العرب وشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام موضوعاً لبحوث كثيرة ومتعددة في الشرق والغرب على السواء، كتبت بلغات مختلفة، وعكف عليها عدد كبير من الدارسين. ذلك لأن ظهور الإسلام كان حدثاً تاريخيا لا يشابهه حدث آخر في تاريخ البشرية كلها.. فلقد استطاع أتباع هذا الدين أن يغيروا وجه الأرض المعروفة في ذلك الوقت، تغييرا كليا في فترة من الزمان لا تتجاوز الثلاثين عاماً ولا تزال البشرية كلها تعيش في آثار تلك التغيرات إلى يومنا هذا.

ومن هنا فقد أراد العلماء شرقاً وغربا أن يستطلعوا أحوال ذلك الجنس العربي الذي تمكن من إبراز هذه المعجزة.. وأرادوا أن يعرفوا الخصائص التي ساعدتهم ومكنتهم من ذلك كله.. فكان لا بد من أن يرجعوا إلى الوراء قبل ظهور البعثة المحمدية، فدرسوا أحوال شبه الجزيرة من الناحية الجغرافية وموقعها، وأثر ذلك الموقع في قبول الإسلام.. كما درسوا أحوال القبائل العربية التي كانت تقطن شبه الجزيرة آنذاك من الناحية الاجتماعية، وتركيب هذه القبائل وعلاقة الفرد بها، وعلاقتها بالفرد.. والحروب الدموية التي كانت تقوم بينها وأسبابها.

كما درسوا الحالة الاقتصادية وأنواع المتاجر الداخلة إلى شبه الجزيرة والخارجة منها، والنقود التي استعملوها سواء أكانت دراهم فارسية أم دنانير بيزنطية.

ودرسوا حالة الطرق وأنواع القوافل. ولكن أهم الدراسات انصبت على الحياة العقلية ومظاهرها في اللغة والشعر والأنساب والقصص.

وكذلك الديانات التي كانت سائدة بين سكان شبه الجزيرة، فدرسوا

الوثنية وأصولها وأنواع الآلهة التي كانت تعبد هناك؛ ودرسوا انتشار اليهودية والنصرانية والأثر الذي أحدثته هاتان الديانتان في العقلية العربية، وخلصوا من ذلك كله إلى أن الأرض كانت موطن حضارات متعددة ومتقدمة.

فلقد كانت مدن الحجاز.. الطائف ومكة والمدينة.. تعيش عيشة الحرية والاستقلال فلا تقر بالطاعة لأحد.

أما في الشمال في بادية الشام، فقد خضع العرب لتيارات السياسة العالمية دون إخوانهم عرب الجزيرة بزمن طويل، فمنذ زمن الآشوريين كان للعرب هناك مملكة عاصمتها الجوف، تعاقبت على عرشها الملكات، وظلت خاضعة لنفوذ الآشوريين حتى عام ٢٦٩ ق.م. بل لقد جعل الملك البابلي نابونيدس (بختنصر) ٢٥١ ـ ٣٩٥ ق.م. مقره فترة من الزمان في واحة تيماء التي كانت قاعدة لحملاته على الغرب. ولقد وجد في هذه الواحة نقش آرامي يرجع إلى العهد الفارسي يدل على النظام الديني في تلك المدينة، وما ينطوي عليه من كهنة، وهياكل، وآلهة خاصة بكل منها. ثم نشأت دولة الأنباط بعد ذلك بزمن متأخر وسيطرت على تجارة القوافل، وكانت عاصمتهم سلع أو البتراء، وهي قلعة جبلية تقع على منتصف الطريق تقريباً بين البحر الميت ورأس الخليج العربي وهي الآن مقصد السياح الوافدين على الأردن.

ولا تزال آثار سلع الهامة والكتابات المختلفة التي نقشت على قبورها المنحوتة في الصخر شاهدة على ما كان لها من حضارة زاهية. ولقد اصطنع الأنباط الذين ورثوا الثموديين في هذه النقوش. اللغة الآرامية التي كانت لغتهم الرسمية واقتبسوا ألقاب موظفيهم وزعمائهم العسكريين من الدول الهيلينية المجاورة.

ثم قضى الرومان على استقلال «سلع» سنة ١٠٦م، وضموها إلى إمبراطوريتهم وعرفت عندهم باسم «المقاطعة العربية».. وكانت تدمر التي خلفت دولة الأنباط أسعد حظاً من سابقتها، وكانت السيادة فيها للعرب.

ولقد خاضت تدمر حروباً ناجحة ضد الفرس، مكنت ملكها «أذينة» من بسط سلطانه على سوريا كلها. ولما توفي «أذينة» سنة ٢٦٨م، تولت امرأته «زنوبيا» الذباء زينب أمر الحكم من بعده، وظلت تصرف شؤون المملكة حتى ٢٧٣م، عندما دمر الإمبراطور أورليانوس مدينة تدمر. وكانت نهاية الملكة «زنوبيا» الفاجعة موضوعاً بعيد الأثر في نفوس عرب الصحراء، وظلت سيرتها الأولى بعد أن اكتسبت طابعاً أسطورياً.

وبالقضاء على تدمر انتهى عهد الدولة العربية المستقلة في الشمال، ومنذ ذلك الحين صار الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون قادرين دائماً على أن يتخذوا بعض العرب صنائع لهم على تخوم البادية، يستعينون بهم على صد غارات البدو ضد غارات العدو على المناطق المتحضرة. والواقع أنهم اصطنعوا الغساسنة في الشام، وكان إليهم حكم المناطق الواقعة شرق الأردن. وأشهر ملوك هذه الأسرة الحارث الخامس، وكانت له سلطة مطلقة على العرب في شمال سوريا، إلا أنه بعد وفاته لم يتمكن ملك من ملوك الغساسنة أن يخضع هؤلاء جميعا لحكمه إلا قبيل الفتح الإسلامي.

واتبع الفرس أعداء الرومان التقليديون نفس السياسة نحو العرب، والمفروض أن سابوراً الأول ذا الأكتاف نفسه هو الذي عين عمرو بن عدي من بني لخم ملكاً على العرب في العراق. وقد وجد النقش المحفور على قبر امرىء القيس في النمارة جنوب شرقي دمشق وعرف عند علماء الدراسات التاريخية باسم نقش النمارة ولا يزال أحد المصادر الرئيسية في

دراسة أصل الخط العربي.

أما خلفاؤه فقد جعلوا مقرهم بوصفهم عمالا للفرس في الحيرة الواقعة على نحو عشرة أميال جنوب بابل. ولقد كان هؤلاء في حرب دائمة مع الغساسنة الذين استولى ملكهم المنذر على الحيرة حوالى سنة ٥٧٥ ودمرها. وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿الْمَدَ . غُلِبَ الرُّومُ . فِيَ أَدَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنُ بَعَدِ غَلِبَهِم سَيَعْلِبُونَ. فِي بِضِع سِنِينَ ﴿ (السروم: ١ - ٤) أشارت إلى الحرب بين الإمبراطوريتين «غلبت الروم ثم غلبت _ فجزع المسلمون لانتصار الوثنيين الفرس على الكتابيين الرومان حتى إذا انتصروا مهدوا بإضعاف الفرس للانتصار في القادسية».

وعلى ذلك فإننا نرى أن أجناساً كثيرة وجدت في شبه الجزيرة قبل ظهور الإسلام.

ولقد اعتاد النسابون أن يقولوا إن عرب الشمال من نسل إسماعيل بن إبراهيم وعرب الجنوب من نسل قحطان، وتبعا لهذه الرواية نعرف فروقاً بين القبيلتين:

أولاً: أن القسم الجنوبي كان يعيش عيشة استقرار وتغلب على الحضارة، ولقد ذكر القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإِ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةً جَنَّتَانِ عَن يَمِينِ وَشِمَالً كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَالشَّكُرُواْ لَلَمُّ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ: ١٥). أما أهل الشمال فكانت تغلب عليهم البداوة والبعد عن الاستقرار.

ثانياً: أنهم مختلفون في اللغة، فكانت لغة اليمن تخالف لغة الحجاز.. فاللغة اليمنية أكثر اتصالاً باللغة الحبشية والأكادية.. ولغة الحجاز أكثر اتصالاً باللغة العبرية والنبطية.

ثالثاً: إنهم مختلفون في درجة الثقافة العقلية تبعاً لما هم عليه من عيشة بدوية أو حضرية. وتبعاً لاختلافهم في اللغة والأمم التي كانوا يخالطونها، ولقد تجاوز المؤرخون عندما ذكروا أن هذا اختلاف في اللغة، وليس الأمر كذلك إنما هو اختلاف في اللهجات، أما اللغة فأساس واحد.

ورغم ذلك فإنه مما يستوقف نظرنا أن نرى اللخميين في الحيرة والغساسنة في الشام قد عمروا قرونا وبلغوا في المدنية شأواً بعيدا ـ إذا قيس بحالة العرب في الجزيرة ـ وكان منهم من يخالط الفرس والروم ويتكلم بلغتهم، ودينهم على العموم كان أرقى من دين غيرهم من العرب.. فهم إما نصارى أو مجوس وهذا كله كان داعياً إلى خصب الذهن وتفتق القريحة بالشعر، وكان من المعقول أن تخرج بلادهم فحولا من الشعراء.. ولكننا لم نظفر منهم بشعر ذي خطر، فهم مثلا يحدثوننا عن عدي بن زيد العبادي الحيري وهو شاعر ضعيف كان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان فيه: عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجدي معها، وكل الذي يرويه لنا الأدباء هو رحلة شعراء الجزيرة.. كالنابغة والأعشى وحسان إلى أمراء الحيرة وأمراء غسان.

ولقد كانت الحياة الدينية عند العرب القدماء تقوم على تقديسهم لضروب من الحجارة في سلع وغيرها. ولقد حظيت بعض الأماكن المقدسة بشهرة خاصة، فكانت القبائل المختلفة تحج إلى عكاظ والواقع أن الأسواق التي كان العرب يقيمونها في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية ومن هنا كانت مجالا لتبادل النتاج الرومي بالإضافة إلى البضائع والعروض المادية.

لكن هناك ثلاثة آلهة اشتهرت عندهم أكثر من غيرها، الأولى وهي

«مناة» وكانت معروفة في مكة، لكن عبادتها شاعت على الخصوص بين هذيل، والثانية «اللات» والثالثة «العزى».

ولكن بالإضافة إلى هذه الآلهة اعتقد العرب ككثير غيرهم من الشعوب القديمة بإله خالق للكون «الله» سبحانه وتعالى يعرفون الرب ويشركون بالإله.

كما أن الديانات السماوية التي كان لها منذ زمن طويل أنصار وأتباع في بلاد العرب قد ساعدت على هدم الوثنية العربية السابقة. . ففي جنوب الجزيرة بلغت اليهودية في فترة من الزمن مبلغا من القوة ظهرت آثاره في اعتناق الحكام لها.

أما النصرانية فقد تمتعت في ظل الإمبراطورية بقوة اجتذاب عظيمة لمجرد كونها دين الدولة الرسمي. ومما لا شك فيه أن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها بسبب اتصالها الدائم بقبائل الشمال. وليس من شك في أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية.

* * *

تلك هي خلاصة لبعض الأحوال السائدة في شبه الجزيرة قبل البعثة المحمدية.

وقد يكون في خواطري الجديد علي، أو هو الجديد مني، ألفت إليه أنظاركم لعلّ بعضكم الآخر يطرح حوارا يناقض هذا الصواب، فالحوار فيه النقيض، لكن النقيض حياة للنقيض، خطأ يصلحه صواب، وصواب تتعرف إليه التخطئة لينصب حيلة وينتصب

قوامه، صواباً لا تأخذ منه التخطئة، فالتاريخ الحدث.. الأثر كلمة صامتة نحاول أن ننطقها بقراءة جديدة، وفقه جديد أنتم أيها المستعربون كنتم السباقين إلى فكر التاريخ وفلسفة التاريخ.

سباقون بالجهر، وبالصراحة، وفي هذا لا أكيل الثناء عليكم وإنما أريد ألاً يكون كبرياء تاريخ العرب يتنكر للذين يفقهونه ويفلسفونه.

ولست بهذا الثناء عليكم أنسى عالمنا وإمامنا في فلسفة التاريخ العربي الحضرمي التونسي المصري ابن خلدون. كما لا أنسى أستاذ القومية العربية من سمى نفسه إعجاباً بأبي خلدون. ساطع الحصري أجاد الحوار مع المؤرخ الكبير. لا يحرمه الحوار حين يبرز الخطأ من الحب والتقدير للإمام ابن خلدون. فالحوار فكر مع فكر. بهذا تعلو ولن يكون ذاتاً مع ذات. أنانية ضد أنانية، فإن كان ذلك فليسقط التاريخ.

هذه المقدمة أتبعها بمقدمة ثانية عن لمحة موجزة عن الأمة العربية في عصور التاريخ السحيقة.

فإذا كان طوفان نوح هو التطور الثالث طبيعياً، أبرز أراضين، وأغرق أراضين، وخسف بحضارات، فإن العرب هم ورثة نوح. . أصحاب التطور المحضاري من ولده سام، فهم الساميون الأكثر اعتزازا بالسامية، لا يحاربونها وإنما هم يحاربون من أقحموا أنفسهم على السامية من الذين تهودوا من هؤلاء الأشكناز الذين لم تلدهم إسرائيل. . قد نسميه تجاوزاً التطور الثاني لا الثالث لنعطيكم أنتم كمستعربين قيمة التطور الحضاري الثالث. أرجو ألا يرتفع إصبع يذكرني بحضارة الرومان واليونان، فلا أريد الناسى ذلك أو أتناساه، ولست متعسفا حين أضع حضارة اليونان والرومان صناعة العرب، والرومان جزءا كقبس من التطور الثاني لحضارة الإنسان صناعة العرب،

جاءت حضارة اليونان والرومان قبساً منها.

فالفراعين والكلدان والآشوريين والأنباط وعاد وثمود وفينيق وكنعان ـ هؤلاء عرب هم أصحاب التطور الثاني واليونان جاؤوا معاصرين لبعض هؤلاء أو متأخرين عن بعض هؤلاء.

فحين أذكر هذه الشعوب العربية حول النهر.. نهر النيل، نهر الفرات، نهر بردى، نهر الأردن.. في اليمن الخضراء.. في شطف الصحراء.. أعتبر أن كل هذه من العرب.. وكانوا بكل ما تمكنوا به وبالرسالات والأنبياء.. كانوا أول إرهاص لهذا الإسلام، فالعرب بكل ما لهم وما عليهم كانوا الإرهاص.. أعدهم الله لأن يكونوا وفي أحقاب السنين على دائم من الحضارة، وتعدد الديانات، ونبوغ الرسالات، مقدمة لهذا الدين، حمله العرب أول من حمله، ثم حملته الشعوب الأخرى التي أسلمت فكانت عربية الوجدان بلغة القرآن وتعاليم القرآن.. مسلمة الإيمان بتعاليم القرآن وشريعة الإسلام.

هذا الإرهاص الكلي، وباعتباره التكوين للوجدان العربي وفكره وحضارته. . قد جاءت بعده إرهاصات كثيرة منها ظاهرة السلب، والانتفاء من الانتماء، وكثير من الإيجاب. . الاحتفاء بالانتماء، فكيف كان ذلك؟

فأدهر العرب في جزيرتهم فلم يصحروا، اندفعوا موجات موجات، لا ينتقلون بشرا إلى الأمراع حول النهر.. وإنما نقلوا كل فكرهم ووجدانهم إلى بيئات خضراء، إخضرت بها حضارات ورثت حضارات وأنبتت حضارات.

فالهجرة من الأمراع إلى الصحراء غير واردة. قال ذلك العلماء، وإنما

الصحيح أن هجرة العرب كانت من الأرض التي أدهرت إلى الأرض التي أمرعت، لكن وقد التصقوا بالأرض لم يدعوا الجزيرة فراغاً، بقيت بقايا منهم في بيوت الشعر، كانت الملجأ لهم حين تعضهم شعوب غازية، يهاجرون من بيت الشعر، ويتهاجرون إليه.

إن بيت الشعر هو عظمة الإرهاص لمعجزة الإسلام.. تصوروا كم من المهلكات التي سقطت على بيت الشعر.. جدب، وأمراض ودماء.. الخ هذه الواوات. وبقي بيت الشعر المدد الولود يحفظ على الشام عروبته، وعلى العراق عروبته، وعلى اليمن كيانه، ويمد أفريقيا بمدد عرّبها.

فقد قال الإمام بن باديس، شيخ الجزائر، الرجل الأول في تعليم الجزائر الثورة على الاستعمار.. قال: لئن قيل إنهم خربوا، فلنقل إنهم عربوا.. يعني موجة بني هلال وبني سليم. فموجة الفتح التي استمرت في إمبراطورية الخلفاء، وإمبراطورية أمية، وإمبراطورية العباس، تبعتها موجات من الجزيرة لم تذهب للنعجة وإنما كانت حملة قومية بوازع سياسي لم يسأل عنه تاريخ المعز إلى الآن. أزعم أنها على يقين أن موجة بني هلال وبني سليم كانت عن تخطيط بين هاتين القبيلتين وبين المعز لدين الله الفاطمى.. لها آثارها وبها تأثيرها.

أكثر الذين كتبوا عن العرب، ومن المسلمين بالذات وقعوا في خطأ ابن خلدون. . يزعمون أن العرب كانوا قبل الإسلام لا شيء، وأن الأعراب بعد الإسلام هم لا شيء.

والحق أن هذا خطأ، نظروا إلى أحد الوجهين من العملة ولم ينظروا إلى الوجه الثاني. . استمر في تعديد السلبيات، وما خطر على بالهم أن خلفية هذه السلبيات كانت إيجابيات.

إن العرب كانوا قبائل تسيل بينها الدماء في حروب قبلية.. خطأ.. أن يكون في أرض واحدة شعب واحد يتوزع قبائل يقتل بعضه بعضاً.. هذا وجه الدنيا. أما الوجه الآخر فشيء آخر..

إن حروب القبائل أزعم وأنا على يقين أنها كانت إرهاصاً لمعجزة الإسلام.. لرسالة سيدنا محمد سيد الأنام عليه الصلاة والسلام.. فالدين الجديد.. الرسالة المحمدية، رسالة الإسلام.. لا بد لها من رجال يعتقدونها.. يحمونها.. ينشرونها.. يتحضرون بها ليرسلوا الحضارة الوسيط إلى بنى الإنسان.

هذه الحروب القبلية.. كانت أكاديميات عسكرية، تعلمت القبائل المتحاربة، هذه الحروب البغيضة، التعامل مع السيف والرمح والاحتفال باقتنائه، والتجارة به. فقد كانت عند بعضهم ذخيرة من هذا السلاح إما أن يتمولوا بها.. أو أن يمولوا قبيلتهم بها.

أدرع العباس بن عبد المطلب مثلا السلاح كل السلاح عند صفوان بن أمية إلى غير هؤلاء.

إن قوساً واحدة.. قوس حاجب بن زراره .. صنعت حرب ذي قارد. حتى إذا جاء الإسلام، وجد الفوارس.. قادة الجيوش، فهل كان في الإمكان لو لم تكن هذه الحروب المعلمة، أن يكون في الإسلام وللإسلام قائد مثل خالد بن الوليد؟. أركان حرب مثل القعقاع بن عمرو؟. وفاتح الشرق مثل قتيبة بن مسلم؟ فاتح الغرب مثل عقبة بن نافع؟ فاتح الأندلس مثل موسى بن نصير وطارق بن زياد؟ تعلموا في الجاهلية حتى جاؤوا إلى الفتح كانوا الأساتذة يعلمون الأجيال بعدهم.

والانحياز إلى الصحراء يظهر للشاغبين على العرب أنه بداوة، بينما هو ورغم الحروب القبلية، كان تكتلا حضاريا. لم يكن للفرس أن يتجاوزوا الحيرة، ولم يكن للرومان أن ينفذوا إلى بادية الشام، ولم يكن للفرس ولا للأحباش أن يستقروا في اليمن.

وكان تكتلهم في الجزيرة إرهاصاً لهذه المعجزة الإسلامية، وحين سطع نور هذا الدين، وجد في هذه المنطقة الجبلية ميدان النجاح.. صدع النبي محمد بالرسالة على الصفا، فنفقه مما جرى إرهاصين، فحين بشرهم وأنذرهم كان من ردود الفعل أن تجتمع قريش على كلمة واحدة، تصده وترده، لكن هذا الاجتماع انفرد في اللحظة الأولى بموقف أبي لهب المنكر للرسالة، فلو لم يقف أبو لهب عم النبي هذا الموقف المنكر حل به مع قريش لأجمعت قريش أمرها على الإنكار بكلمتها الموحدة تصد وترد.. لكن كلمة أبي لهب "باً لك. ألهذا جمعتنا». أطفأت غلواء قريش كأنهم قالوا اتركوه إلى عمه، وجه العملة الرديء. إنكار أبي لهب، وجه العملة الإرهاص، موقف أبي لهب فرق كلمة قريش، تركت الرسول العظيم لعشيرته الأقرب، فلم تشارك عشائر قريش أول الأمر في كلمة واحدة.. أعطت المتنفس ليسلم السابقون الأولون. ينازعهم عمه أبو لهب، يطفئ النار بما سلب، يناصره عمه أبو طالب، يقاوم ثأرهم بما أوجب.

وهذا الموقف في مكة وهي سلبى كل السلب تحارب قريش رسول الله بالأذى والإنكار والتعذيب للمستضعفين. . كان عملا رديئا، لكن الوجه الآخر للدنيا كان عملا مفيداً.

لماذا؟

لأن وكما ذكرنا من أن قريشا تركت الأمر بين أبي لهب ينازع الرسالة

المحمدية، فإن العرب كل العرب تركت قريشا تنازع الرسالة المحمدية.. فكأنهم أرادوا.. ما دامت مكة قد حاربت هذه الرسالة فلا داعي لأي تكتل منا يحارب الرسالة في مكة.

فقد يخلق هذا الصراع بيننا وبين قريش حين نبادر إلى أي تحرك ضد مكة.

كان تأخر العرب لأن تحارب هذه الرسالة إرهاصاً للنبوة.

ألستم معي في هذ الفكر؟. أرحب بمن يستريح لهذا الفكر ولا أجفل ممن يناقض هذا الفكر.

* * *

وإرهاص آخر يتبع إرهاص المتحاربين والمتحاربين والمستنكرين على الصورة التي شرحت بإرهاص آخر كان أساسه المعتقد والمعتقد والعقيدة.

سطع نور الإسلام، وقبائل العرب في جزيرتهم، في نجدهم وحجازهم وتهامتهم وسرواتهم وثنيون. لهم آلهة من حجر أو شجر. أو حتى إله من عجوة التمر، كما هو إله عمر في الجاهلية.

هذه الوثنية في العرب أزعم أنها من الإرهاص للإسلام.

كف كان ذلك؟

فلو كانت قبائل العرب نصرانية.. لناصرها الرومان، وجاءها المدد من الشام، ولو كانت يهودية لتعثر اقتناعهم بالإسلام.. كما هي الحال فيما وقع في الواحات العربية.. المدينة خيبر وما إلى ذلك من وادي القرى..

لو كانوا نصارى أو يهودا أو لو كانوا وثنيين مجوساً من أتباع زرادشت أو ماني. . لوجدوا النصير ولوجد الإسلام العسير، ولكنهم كانوا وثنيين. .

لديهم ملامح ووراثات من ملة إبراهيم، فانفتح وجدانهم إلى قبول العقيدة الإسلامية يسر فيه بعض العسر.. ليس عمق العقيدة لديهم، وإنما سببها زعامات خافت على نفوذها إذا ما انضوت تحت راية الإسلام كالذين ادعوا النبوة أو الذين منعوا الزكاة.

إن هبلا الوثن كبير الآلهة في مكة الذي سقط يخرج من جوف الكعبة كان وثنا، رديئا أن يعبد، ولكنه من الوجه الآخر، كان حرزا للعربي أن يتنصر أو يتهود، كان إرهاصا لمعجزة الإسلام تدخل فيها قبائل العرب الوثنية.

إن اليهود في الواحات، كانت العسر كل العسر، فما تنفس الإسلام حتى أجلاهم وإن نصارى تغلب قد مكثوا طويلا فلم يسلموا إلا بعد لأي . . فطليحة الأسدي الوثني ادعى النبوة وما أسرع ما انهزم حتى أسلم، وفقة التغلبي النصراني انهزم مع طليحة . . فما أسلم حتى أهلكه خالد بن الوليد وما زالت تغلب تبقى على نصرانيتها إلى زمن طويل .

إن القومية العربية حين أصبحت شعوبية عربية في عهد بني أمية، كان لها وجهان. . الوجه الحبيب إلى العرب، والوجه البغيض إلى الشعوب المسلمة قد غربها العرب فحملت لهم مذلة اختفت ثم ظهرت.

لم تكن إحسانا على العرب إلا حينا من الدهر تسعين عاماً، ولكنها كانت إحسانا لانتشار الإسلام، وتشبثت الشعوب بحبائله، تدافع عن نفسها به، فبالإسلام انتصبت شعوبية هذه الشعوب إلى هدم القومية لنصرة ذاتها بانتصار الإسلامية، فأظهرت العباسيين فانقلب الأمر على حرمان العرب من كل سلطان. حلفاء عرب بفكر إسلامي ينتصر بغير العرب، فمن سيئات الشعوبية إذلال العرب، ومن بعض محاسنها انتصار الإمبراطورية العباسية

لتنتشر حضارة الإسلام برجال من أعراق غير عربية لكن اللسان الإمبراطوري العظيم. . لسان العرب هو الذي لم ينهزم. . فكل هؤلاء الرجال العباقرة من غير العرب كانوا عربا . عرباً تكلموا العربية ، فكروا بأسلوبها ، كتبوا بها . فالحضارة الإسلامية صناعة مسلمة بوجدان عربي ، بلغة عربية ، ليس هذا إرهاصاً إنما هو معجزة ، ليست معجزة العرب وإنما معجزة الإسلام .

إن الإسلام ليس دين عبادة فحسب وإنما هو حرية الوجدان والفكر في انطلاقة لاعتناق ما هو حسن، واجتناب ما هو سيئ، فلم يتنكر المسلمون إلى علم الصين والهند واليونان والرومان. أخذوا كل ذلك فأعطوا على ذلك. ليس هذا إرهاصاً وإنما هو معجزة.

* * *

تقدم إليكم الأثر الاجتماعي وكيف كان المظهر السيئ له عائد حسن، فالقتال والوثن والخلاف. . كل هذا مهد كإرهاص لمعجزة الإسلام. . غير أن هناك الدعامة والأساس، أساس سرمدي هو وحدة الأرض، فالأرض عربية كأنما طوفان نوح وأبناء سام الذين هم الخلاصة التي جاءت بالشعوبية العربية، فالشعوب العربية هي الأولى بوراثة السامية لا غيرها.

إن وحدة العرق في الغالب في وحدة الأرض كان إرهاصاً للإسلام، فاتصال الأرضين التي عمرها العرب سهل قبولهم للإسلام حتى إن الاستعمار الروماني والفارسي كانا من هذه الأسباب التي انتصر بها الإسلام كما انتصر عليها، فالشعب العربي في الشام، في العراق، في اليمن، في مصر في أفريقيا، وجد وهو في ثورة على المستعمر الغوث في الفتح الإسلامي.

فالوجه الرديء للاستعمار له وجه آخر هو حرب الشعوب عليه قبلت

الغوث حين فتحت الأرض الموحدة انفتح قلب ساكنها العربي لهذا الإسلام.

وحدة الأرض عامل كبير، فرغم صعوبة وسائل المواصلات كانت وحدة الأرض هي القريبة التي سهلت صعوبة المواصلات إلى قرب الاتصال.

وهناك عامل أساسي أيضا بعد وحدة الأرض هو وحدة اللغة.. لهجات الشعوب العربية كانت قبل هذا التوجيه للغة كأنها لغات متغايرة، وجاء الأمر قبل الإسلام إرهاصا في الأسواق العربية أهمها سوق عكاظ تجتمع القبائل، يتسع الحوار، تتصافح القربى، تتعارف الرجال، تتوحد اللغة.. كانت وحدة اللغة تمهيداً لفهم القرآن جاءت بيانية فصيحة في أمة بيانية فصيحة.

إن وحدة اللغة عامل أهم كان رديفاً لتأثير القرآن، يعرفونه، يفهمون لغته، متوحدين في هذا الفهم بلسان واحد عربي مبين، فكان من السهل أن تدخل لغة القرآن مسامع الوجدان الموحد بلسان واحد.

* * *

تقع الأمة العربية الآن في خطأ الانعزالية.. كل شعب يؤرخ لشعبه، مصر تنعزل بتاريخها مستقلة به عن العرب، العراق.. لبنان.. تونس.. الخ ما هنالك.

فراعين، فينيقيون، كلدانيون، آشوريون. إن هذا الانفصال أو الانعزال. تجزئة لتاريخ أمة العرب، بينما كل هؤلاء عرب، ليس برهاني وحدة اللسان، وإنما برهاني وحدة الأثر، فالإثارة العربية في الجزيرة وعلى الخليج تناغينا بأنها المدد لآثار الآخرين، أو الامتداد لها. . ذلك ما يأتي به الزمان عندما نتعاون نحن وأنتم على كشف المخبأ.

زارني أستاذ تاريخ مصري في يده بحث عنوانه «الاستعمار الآشوري» فألهمت ساعة في الحوار معه. . أقول له إن كلمة الاستعمار حديثة، وكلمة الاستيطان أحدث وأرى أن تسمية انسياح الآشوريين أو الهكسوس أو الفينيقيين أو الكنعانيين من أرض عربية إلى أرض عربية . أن تسمى بالاستعمار . فالاستعمار تسلط أجنبي، والعربي حين يأتي بلدا عربيا ولو بصورة غزو فإنما يعمر أرضه، ويتآخى مع إنسانه فيذوب فيه.

إن دعاة الفرعونية، والفينيقية، يزعمون أمرهم لو انتصروا أن يعدوا الفتح الإسلامي لمصر أو لبنان أو تونس استعماراً.. قياسا على وصف الآشوريين والهكسوس بالمستعمرين.

من هنا كانت الدقة في عظمة التسمية الإسلامية، تسمية ضم الأراضي العربية في وحدة العقيدة ووحدة اللغة والوجدان فتحاً.. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتَحًا لَكَ فَتَحًا لَكَ فَتَحًا لَكَ مُبِّينًا ﴾ (الفتح: ١).

الفتح العظيم . . حتى الترجمة لكلمة غستاف ليبون إعراباً عن هذه الدقة في التسمية .

أنا لا أعرف كلمة غستاف ليبون بالفرنسية وإنما أعرف الترجمة «ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب» أو الكلمة الأخرى.. «لقد فتح العرب في ثمانين عاماً أكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة عام وأكثر من ذلك». لهذا أدعو الشعوب العربية أن تفقه تاريخها. تاريخ أمة واحدة، لكل شعب امتيازه لكل شعب جهده. لكل شعب مجده، لكن التاريخ واحد والأمة واحدة. . ﴿إِنَّ هَلَاهِ عَلَمُ أُمَّةً وَحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿ (الأنبياء: ٩٢).

فالخلاصة أن العرب حملة رسالة.. بناة حضارة.. صناع سلام.. يحتفلون بالصداقة يحترمون حاضرهم، ويعملون لمستقبلهم.. فما أكثر ما

تبرأوا من الحقد، وما أكثر ما تجرعوا من الحقد.

العرب بالإرهاص وبالمعجزة كانوا وما زالوا قوة تؤمن بالحق، وتخضع لقانون الحق، وتريد أن تكون أمة تعمل للسلام، لا تغتال أرض أحد، ولا تستغول في دماء البشر، وإنما تريد سلامة الناس من الناس.

كأنها بهذه الفلسفة إنسان الإنسان، لا تلوموني إن فخرت بأمتي فكلكم فخور بأمته..

العرب أعراق والعروبة استعراق

- وحين رست السفينة على الجودي، فاستغرق أبونا سام يزرع بنيه في الأرض الوسط - جزيرة العرب - فأبناؤه الذين حافظوا على العرق واستحوذ عليهم الاستغراق في الأرض. . جعلوا من وادي النهرين، والأرض الممرعة غرب النهرين، والأرض اليانعة: اليمن السعيد. . جزيرتهم كأنما هم حين تعربوا أعربت الأرض عن عروبتها، فالإنسان العرق، واللغة العراقة، والأرض الاستعراق، والزمان المغرق في القدم . . كل هؤلاء لا يمكن إلا أن تكون التسمية لهم: العرب إنسانا، والعربية لغة، والعروبة أرضا، ولا غير ذلك!

* * *

وتأتي من كل هذا _ حين تفرع أبناء قحطان (يقظان بن أرفخشد) إلى فروع شتى _ أن تستأصل العرق العربي في أقوام، ولن أقول قبائل؛ فمن بيان القرآن الكريم أن سمى قوم عاد قوم ثمود، كما سمى دون إضافة «قوم» فرعون: أصحاب الرس (الأنباط).

قوم امتد لهم قوام في العصر السحيق: عاد ثمود، الفراعين،

الكنعانيون، الفينيقيون، الآراميون، المعينيون، الحميريون، إلى آخر ما هنالك، فاستقروا على أرضهم العربية يستعرقون فيها، حتى إذا أحسب أن اسم (العراق) كان من هذا الاشتقاق.

وطال الأمد، وليس في كل هؤلاء إلا أنهم العرب في أعراقهم.. لا دخيل ولا مستعرب.

* * *

وحين كثر النسل، وتتابعت هجرة الموجات راحلة من الجدب الذي حل بعد المراع. إلى ما جاورها من الأرضين الممرعة حول النهرين في العراق، وإلى النهر في مصر، فإذا الاختلاط بالقادمين من الجوار، أو مع الساكنين في الأرض التي رحلوا إليها بدأت العروبة تطغى على اسم العرب، فالعرق قد اختلط، أو قد تطور في الأرض التي سكنها، فإذا الاستعراق عروبة، أعني بذلك أن العربي اليوم إنساناً لم يعد صاحب العرق المصفى في كل الأقاليم العربية من الخليج إلى المحيط، وإن بقيت صفوة العرق متأصلة في اليمن والصحراء، فالعرب العرق قد أصبحوا الآن: العروبة الاستعراق، فالأرض فعلت ذلك حين اتسعت، واللغة فعلت ذلك حين توسعت، والتاريخ المشترك فرض ذلك والمصالح المشتركة تدعو إلى ذلك، والمصير المشترك يحتم ذلك!

وفي الأثر: (أنا عربي ولسان أهل الجنة عربي).

وفي أثر آخر: (من تكلم العربية فهو عربي).

فبلال وسلمان، وابن المقفع، والجاحظ، وابن الرومي، وأبو نواس. . أقسم أنهم عربيون عربيون. . حين عشقوا «مجنة» كبلال. حين كان «سلمان» من أهل البيت. حين صارت اللغة العربية مشرقة في بيان ابن المقفع، والجاحظ. . مترفة مترفة في شعر ابن الرومي وأبي نواس ومهيار، فمن ينكر على هؤلاء أنهم عربيون؟!

* * *

ولا أنسى «شوقي» فإنه من هؤلاء!

هكذا القرآن، هكذا اللغة، وهكذا الأرض. فالذين يكتبون العربية اليوم، ويعيشون في وجدان القارئ العربي في الدار البيضاء وفي بغداد. في دمشق وفي مكة، لا يقدرون بحال أن يعتزلوا العروبة، وإنما هم خذلوا أنفسهم، كأنما «عودة الروح» يعالجها النزع بخرافة «عودة الوعي».

* * *

لكن الذين اعتزلوا قد أوضحوا أنفسهم، فما أسرع الفضيحة إليهم، ولكن يدعون العروبة، ثم هم يتعاملون معها بالفراق والشقاق. . هؤلاء لن يكونوا إلا وقد أنهكهم العقوق، فمن يدعي أنه معك، ثم يكيد لك في الخفاء شر من الذي يعلمك أنه ليس معك!!

* * *

العرب. . نسب وسبب وحسب!

بهذا العنوان الذي سجع فيه حرف «الباء» ولم يكن القصد التزاوج بالسجع، وإنما القصد إجراء الحوار بين النسب والسبب والحسب! فكل من هؤلاء قد يكون وثيق الصلة بالآخر، وعونا له وانتصارا به، وقد تأتت ظروف ووقائع فرقت بين الأحبة.

فالنسب: العزة والحمية والفخار.. قد أصبح قاتلا، فكل ما جرى على العرب من فرقة وشتات، وشرب الدم واستساغة القتل، كان النسب هو

فاعله.. فالقاتل الأول في الأمة العربية هو النسب، كأنما قابيل وهابيل قد أخذ العرب عنهما ثلاثة أرباع التركة.. فإذا ما فتحنا أعيننا على فقه التاريخ نجد أن «عثمان بن عفان» قتيل النسب لا قتيل الفتنة، فالذي أشعل نارها أقرب الناس إلى عثمان بن عفان.

والعبشميون، والهاشميون، والأمويون، والعباسيون، كلهم أب واحد، نسب واحد. تباعدوا عن السبب، وأرادوا أن يضيفوا إلى شراسة النسب حين تشرسوا به أن يصنعوا لأنفسهم حسبا جديدا، فقد أبكوا السبب - أعني الوحدة في العقيدة تمنع أن يكون قتال بين أبنائها، والوحدة في الأرض تحرم على أبنائها أن يمزقوها أشباراً. كل فريق فرح لما لديه. ووحدة المصير إن بقيت قرونها الثلاثة مصونة بإمبراطورية «أمية» وإمبراطورية العباسيين في عهد القوة التي كانت لها. فإنها في إثني عشر قرنا التي بعد مزقها هذا النسب القاتل إلى دويلات وسلاطين لم تقو على صد التتار والصليبيين والمذاهب المنحرفة، حتى إذا شن الاستعمار حرب الاستغوال والاستقلال وجد أن العرب أمة منهوكة القوى، متفرقة الرأي يطحنها طحناً.

سواء كان استعماراً مباشرا بفرقة من الجيش، وافتراق من الشعب، وارتفاق من العملاء، أو كان _ وفي هذا العهد الجديد _ على صورة من دعوى الصداقة، كأنما هو النزح. . قد كان متحا بالدلاء، بأيدي المستعمرين، أو أصبح منحى من أيدي الأصدقاء والحلفاء!

هذا النسب وما فعل، فإذا السبب يقول: أنا العقيدة، أنا الوحدة.. سقتكم بذلك إلى الفتح العظيم.. تسوقتم بي الحضارة فانساق الشر بي إلى بعيد، لكن النسب عطلني!

وجاء الحسب. . مآثرها أكثرها في وجدان العربي فهل سمعتم أن عربياً

نصرانيا طائيا اسمه «أبو زيد» كان مع صوان النسب. الحفيظ على السبب. المقاد بالحسب، فتى الإسلام والعرب الذي استغول في أطراف العراق والفرس: المثنى بن حارثة الشيباني، فحين سل سيفه في مواجهة الفرس، قال له عشيره النصراني «أبو زيد»:

_ «ما تراني أصنع اليوم»؟!

فشمخ ابن ربيعة الفرس يكلم الطائي بن قحطان. . يقول له:

ـ «قاتل على أحسابك»!

فإذا «أبو زيد» يقاتل، ويقتل. لا أجد كلمة أقولها عنه إلا كلمتين: كلمة رسول الله محمد بن عبد الله بن مضر الحمراء حيث قال عليه الصلاة والسلام:

ـ «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، أو الرجل الكافر» كما قال.

أما الكلمة الأخرى، فكلمة الإمام «الحسن البصري».. مات جار له، لعلّه كان يهوديا أو نصرانيا، فشيع جنازته.. عاطفة المسلم على الذمي، ثم قال.

- «اللُّهم ارحمه برحمة أهل دينه».

وكأنما «الحسن البصري» قد اقتدى برسول الله على فقد كان جالساً يوماً ما في جمع من أصحابه، فمرت جنازة، فقام ذو الخلق العظيم يحترم الموت، فقالوا له: إنه يهودي، فقال عليه الصلاة والسلام:

_ «أوليست نفساً»؟!

فاحترام النفس سبب، وهو في الوقت نفسه حسب.

- ثم قال الحسن أيضا: كان واحد من أصحاب الحسب والنسب قد ارتد عن السبب، فادعى النبوة، فلما هزم ورجع إلى الإسلام. . كان حسبه

أن كان عظيماً حين صار على خلق حسن. . فارساً في القادسية أوصى عمر بن الخطاب، قائد القادسية «سعد بن أبى وقاص». . قال له:

_ «عندك اثنان: طليحة الأسدي، وعمرو بن معدي يكرب الزبيدي.. لا تقطع أمرا دونهما»!

مع أن كلا منهما ارتد، لكن السبب أسقط النسب، والحسب أعز السبب!

وسار الجيش الفاتح إلى «نهاوند» فانتدبوا طليحة الأسدي يسبر الطريق أمام الجيش، فغاب طويلا، وظنوا به الظنون. . حسبوه قد ارتد يذهب إلى العدو. . فلما أقبل عليهم يصافح قائده «النعمان بن مقرن» علم عن سوء الظن فيه، فقال كلمة الحسب:

- «أوتظنون بي الظنون. . تحسبونني أترك قومي العرب جزراً لهؤلاء الأعاجم»؟!

هكذا. . الرجال كانوا، فأين هم الآن؟!

إني لأغمض عيني، ثم أفتحها على كثير، ولكن لا أرى أحداً * * *

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب!

إن النسب لا يعاب إلا إذا كان هو القاتل، وإن السبب لا يعق لأنه الموحد، وإن الحسب لا يجفى لأنه الحلية والفخار!!

وحري بنا أمام هذا الموضوع أن أنشد قول «الرصافي»:

وإن لهاشم في الدهر مجداً بناه لها الذي هشم الثريدا فدعني والفخار بمجدقوم مضى الزمن القديم بهم حميدا

فخير الناس ذو حسب قديم أقام لنفسه حسباً جديدا وشر العالمين ذوو خمول إذا فاخرتم ذكروا الجدودا

مصر . . الرباط والمتنفس

- كثيرا ما حاولت أن أشدد النكير.. أرفض به خصومة الوقت، لأكون شديد الحرص على الإبقاء.. لا تتأثر بخصومة الوقت علاقة الزمن، فالخصومة.. الوقت بين الزعامات لا تلبث إلا أن تزول.. بالمصالحة، أو الموت، أو حتى الاغتيال!

إن الأمة العربية تمر في مرحلة _ الآن _ أقسى وأنكى من المراحل التي ذاقت مرارتها من قبل، فمرحلة الوقت اليوم أشد وطأة من موجة التتار وسعار الصليبين وطغيان الاستعمار.

مرحلة اليوم: أنها بين المطرقة والسندان.. مطرقة اليهود، مطرقة الاستقطاب لإحدى الإمبراطوريتين. أما السندان فهو تجرع الغصة تلو الغصة، كأنما الأقاليم العربية قد عادت إلى الحروب القبلية. ولعلّ هذه الغصص بهذا الخلاف والافتراق والشقاق هي الأشد شرا من طغيان اليهود، وسيادة الاستقطاب.

وحين رفضنا خصومة الوقت لم نكن في سلامة من الخوض في خصومة الوقت. إنكاراً لعمل دعا إلى خصومة الوقت، ولكننا اليوم في حاجة إلى أن نبدأ في تجديد العلاقة. علاقة الزمن لنكون الأمة الواحدة، لا بشعار إمبراطوري، ولكن بمشاعر الحب والتضامن ننبذ الخلاف. نعطي الفرصة للشعوب أن ترفض خصومة الوقت لتعتنق الصداقة مع المصير. مصير الأمة الواحدة.

من هنا.. أريد أن أتكلم عن «مصر _ الأرض والإنسان» لأعطي تاريخ العلاقة _ الزمن حقها:

إن مصر حين تسلم زمام الأمر فيها فاتحها «عمرو بن العاص» اعتنقت الإسلام، وحين طرقت أبوابها موجة بني هلال وسليم من شرق المدينة المنورة، وعالية نجد أصبحت مصر قد أمسكت بالعرب العرق، والعروبة الاستعراق. . كأنما الأرض العربية عروبة «أحمس» امتد بها الزمن لأن تكون عروبة القرآن، ولو لم تفتح مصر لاهتز الإسلام في الشام من حملات رومانية يقودها القيصر، لكن الجناح الأيمن _ مصر _ قد حمى الإسلام الجناح الأيسر _ الشام.

وكانت لفتة مني قبل أعوام مضت في كلمة قلتها مراراً، فأول مرة كانت أمام أمين الحسيني ورياض الصلح وعزت دروزة وبشير السعداوي في المدينة المنورة، وفي صالة جماعة المحاضرات، وبعد سنوات قلتها أمام شكري القوتلي، في الصالة نفسها، وآخر مرة قلتها أمام الملك سعود يرحمه الله، وأمام جمال عبد الناصر يرحمه الله في حفل أقمناه نحن السعوديين في فندق هيلتون بالقاهرة.. والكلمة هي ذات شطرين:

- «لئن قدس الدين الإسلامي مكة والمدينة وبيت المقدس، فقد قدس العرق والدم والتاريخ والمصير: دمشق وبغداد والقاهرة، وكل شبر من أرض عربية. . من مخاضة عمرو بن العلاء في الخليج، إلى وطأة القدم قدم عقبة بن نافع على المحيط».

أما الشطر الثاني، فقد قلت أمام الملك والرئيس في خطاب ألقيته أمامهما:

- «من المدينة المنورة - قاعدة الفتح الأول - بلدك يا صاحب الجلالة

تفرعت للفتح قاعدتان: قاعدة في دمشق تمتد إلى الكوفة، وقاعدة الفسطاط.. امتدت إلى القيروان، إلى فاس، إلى قرطبة. قاعدة دمشق شرق منها الفتح ولأسباب لم يغرب، أما قاعدة الفسطاط فغرب منها الفتح وغرب»!

لم أقل ذلك استجداء لعاطفة، أو استرخاء من عاطفة، وإنما هو الاعتلاء بالعاطفة. . فحين يفرغ وجدان العربي من عواطف الحب، فإنه أول من يهلك نفسه بالبغضاء!!.

ولنتأمل. لو أن شعب الجزيرة العربية كلها بالمسجدين، وبنجدها وتهائمها وسراتها قد تجرع من الأحداث التي جرت عليه البغضاء واعتنق الأحقاد على الذين أجروها عليه لكان غير جدير بالأمومة وبالأبوة. أبوة التاريخ واللغة والدين والأعراق. إنه لا يعيش البغضاء للشام بما فعل الأمويون في الحجاز، وفي المدينة المنورة ومكة المكرمة بالذات، وإنه لا يعيش الأحقاد على العراق بما فعل المنصور من قتل أبناء عمه في المدينة المنورة، وفي فخ، وفي الكوفة، وبما فعل المعتصم حين أرسل الأفشين وبغى يدكون نجداً دكا. تذوب قبائل، وترحل قبائل، ولو أنه يعيش الأحقاد لما غفر لمصر ما صنعه محمد علي، ولما كان لجمال عبد الناصر، ولما كان العون لأنور السادات قبل العبور، وأثناء العبور، وبعد العبور!

لقد كلفنا تراثنا وميراثنا حين شرفنا بأن نحب. . بأن نسقط البغضاء، نعيش فترة مع خصومة الوقت اضطرارا، ولكننا نعيش بصداقة الزمن دهرنا الطويل!

وهكذا. . كانت هذه الجزيرة أما لإنسانها الذي ذهب للجهاد وللفتح، وكان العراق والشام ميادين الموجة بعد الموجة للفتح شرقا وغربا، وكان

المغرب هو المصب يغترف من المشرق ليستوعب، ليمثل عطاء جديداً، فمن هنا نربأ بالمغرب (كله) أن يستمر في الشقاق. . فعبرة الأندلس أرجو أن لا تعبر المضيق . إلى الأرض التي عبرت المضيق فأعطتنا الفردوس المفقود!

* * *

أما مصر، فبما ذكرنا قبل تحقق فيها معنى الرباط: جيش يسير للفتح، وجيش مسيرته أن انتصر على التتار، وانتصر على الصليبيين، وأعان على هزيمة الاستعمار، والرجاء فيه: أن يكون له عبور بالعودة إلى حظيرة الأمة العربية حين تعبر إليه عواطف الشعوب العربية!

وكلمة الرباط، ليست من عندي. فهناك أثر رواه السيوطي، ومعه آثار أذكرها استجداء للحب، وإسقاماً للبغضاء، وهذه الآثار إن ضعف لها سند أو اختلف لها متن، فواقع مصر فيه التصحيح لها:

فالأثر الأول هو: لا يزال أهل مصر في رباط إلى يوم القيامة.

والأثر الثاني هو: إذا فتحتم أرض القبط فاتخذوا منها جندا كثيفاً سيكون من خير أجناد الأرض.

والأثر الثالث هو: إذا فتحتم أرض القبط فاستوصوا بهم خيراً، فإن لهم رحماً وقرابة.

تلك آثار على أن مصر «دار رباط» فلولا الرباط فيها لما كان الانتصار على التتار والصليبيين ومن بعدهما.

أما مصر المتنفس، فحين ضاقت أرض بالأئمة من الحجاز، وبالعترة من أهل البيت وجد الجميع المكان الذي أحاط وحفظ وأعز واعتنق مذاهب

الأئمة، وحين عض الأفشين نجداً سرت موجة بني هلال وسليم وزغابة، فوجدت الملجأ في مصر وكانت جيش النصر للمعز ينتزع شمال أفريقيا من سلطان بربري ليكون السلطان عربيا.

أما الصورة الأخرى للمتنفس، فإن الكثيرين من الذين يمسهم الضيم في أرضهم يهاجر بعضهم إلى مصر، وإن بقي لا يستطيع الكلام عن الظلم الذي أحاط به، فلا يجد إلا مصر ينفس عن نفسه بالكلام عليها، وحتى السباب يتلمظون على أن يسمعوا سبة لهم من زعيم، كأنه يعطيهم التنفس ليبدأوا السباب. يفرجون به عن كروبهم، فلا تجد شاعراً أو كاتباً يستطيع أن يقول كلمة في إقليمه، ولكنه يجد المجال واسعا أن يقول الكلمة عن إقليمه في شخص الإقليم المصري!.

* * *

الحريق شرق السويس والغريق غربه!

الإنسان في كل أدوار حياته، وفي ما طبعه الله عليه مساير لسنن كونية.. منها التزاوج والازدواج، فالتزاوج هو حياة الحياة به تتكاثر وتنمو بالتناسل والثمار _ من كل زوجين اثنين.

من هنا يحمد التزاوج، لكن الازدواج ليس في طبيعة الإنسان كغريزة وإنما هو التطبع بالاكتساب. نحمد منه الازدواج المتناظر، وحتى الازدواج المضاد كالسماء والأرض، والليل والنهار، والبحر والبر. إلى آخر ما هنالك من هذه الازدواجية التي تتناظر.. نظير يقابل نظيراً.

لكننا قد وقعنا اليوم في ازدواجية التناحر: شرق وغرب وجنوب، ففي الشرق إمبراطورية البيت الأبيض، في الشمال شعوب أطلقوا عليها صفة التقدم، لأن التعريف بذلك قد حدده الرخاء وألزمت به

الصناعة. وجنوب وصفوه بالتخلف لأنه فقير.. مع أنه مصدر الغنى للشعوب الشمالية التي فوق خط العرض ٣٠، فلولا ما يستورده الشمال من الجنوب من الطاقة والغذاء.. لما كانت صناعة في الشمال، ولما كان هذا الترف.

إن هذا التحديد الاقتصادى برقعة للسلوك الإنساني، فشعوب الشمال المتقدمة هي التي وضعت الإنسانية من زمن غير بعيد، وبعد الحربين العالميتين الأولى والثانية في موضع الخوف والهلاك. من هنا _ وبالأسلوب الذي تسير عليه شعوب الشمال التي تعلن اختلافها المذهبي كمادة لتخويف شعوب الجنوب، وإلا فشعوب الشمال وإن لم تكن في أمن من الخوف فإن لديها المناعة من التخويف. . لأنها تعقل كيف تصون الأمن بينها _ لهذا أريد أن أقلب الجغرافية الاقتصادية شمالا وجنوباً إلى جغرفة تحدد أسلوب صانعي الشر والحرب والتخويف. . أجمع كل الشمال في حد واحد، وهو أنه تحده من الغرب: شمال الأورال، إلى ساحل المحيط الهادى غرب الولايات المتحدة وكندا، ويحد من الشرق: أيضاً من جبال الأورال إلى ساحل المحيط الهادي غرب الولايات المتحدة. . فهذا التحديد لا يخرج الاتحاد السوفيتي من هذه الازدواجية التي تنال من شعوب الجنوب وتفترس كل ثرواته كل ثرواته، وتستغل كل ثرواته، ثم هي لا تعطيه العوض.. تأخذ المادة الخام، وحين تدفع القيمة للمادة الخام تسترجع قيمة لما تبيعه من السلاح!

* * *

ولدينا نحن العرب ازدواجية _ آسيويون وأفريقيون _ تحكم الحد بينهما قناة السويس، كأنما العرب شرق السويس نظير للعرب غرب السويس، فتارة يكون هذا الوضع صانع حب. . جامع تراث، تمتد به العنعنات

الحماسية، وحين يشتد الأمر وتضيق الأنفاس يبتعد النظير عن النظير، ليكون هذا الابتعاد أكثر شراً من التضاد. . كما هي الحال الآن!

فالحريق بدأ يشتعل شرق السويس، والغرق بدأ المتعة لمن هم غرب السويس! أفليست السلامة متعة؟!

وأكثر ما يتمتع به غرب السويس الآن هذه المهادنة بين شعوبه.. صنعها حكامه، فهل هي عن المهادنة.. جاءت من سأم الخلاف برجوع الأخ إلى أخيه، أم هي فرض التناظر يستريحون حينا حتى يروا ما يحل شرق السويس، أم هو سلطان فرض استقطابه على الذين تبرعوا بطرح المهادنة؟!

فالتربص بالتناظر، والخضوع لانتظار الطوارئ، والاستماتة في متعة السلامة، وفرض الاستقطاب. . كل ذلك لا يتعدى أن يكون غرقاً، كأنما هو الازدواج بين الحريق والغريق.

ولكن.. من المستفيد من هذا الحريق، ومن ذلك الغريق؟. هل هي إسرائيل وحدها في المشرق، أم هما الإمبراطوريتان يستعجل كل منهما أن تذبح البقرة في المشرق لتسلخ البقرة بعد في المغرب؟

إن إسرائيل ليست وحدها التي تستفيد، بل هما إمبراطورية البيت الأبيض وإمبراطورية الكرملين، فالأولى تزعم أن لها أصدقاء فتأتي إسرائيل بكل ما تفعل من التدمير والطغيان تدمر هذا الزعم لتبقى الولايات المتحدة بلا أصدقاء، كأنما إسرائيل ـ أرادت أو لم ترد أو أنها قصدت أو لم تقصد ـ أن تعطي إمبراطورية الكرملين ما تريد، وأن تحرم الولايات المتحدة ما أرادت، فأشعلت الحريق، فإذا الولايات المتحدة لا تصنع شيئاً تصون به مصالحها أو حتى تبقى على أصدقائها. . ذلك أنهم قالوا حين تساءلوا عن

من أدخل الاتحاد السوفيتي إلى مناطق نفوذه في الأرض العربية شرق السويس وغرب السويس. مع أنه ينبغي على عقول أمريكية أن تسأل نفسها: أليس الاتحاد السوفيتي أصبح داخل الولايات المتحدة بهؤلاء اليهود الصهيونيين؟!

فلئن كانت إسرائيل عطاء للاتحاد السوفياتي، فإن ذلك ما فرضه اليهود على الإدارة الأمريكية.

إن نفوذ الاتحاد السوفياتي قد لبسه اليهود في داخل الولايات المتحدة، فعقدة فيتنام، والخوف وطلب الأمن. كل ذلك قد أرجف بالشعب الأمريكي كما أرجف الإدارة الأمريكية، وكل ذلك أيضاً عطاء للاتحاد السوفياتي من داخل الولايات المتحدة.

إن الحريق شرق السويس لن يحرق هذه الأرض وحدها، وإنما نيران هذا الحريق ستأكل _ أول ما تأكل _ الصناعة في الغرب، وإنتاج الغرب، والبقية الباقية من نفوذ الغرب.

أفلا يوجد عقل أمريكي يبصر شعبه يرفض هذه الاستكانة لما يصنعه اليهود داخل الولايات المتحدة؟!

أحسب أن الأزمة كلما اشتدت سيجد الغرب القوة التي يبصر بها الولايات المتحدة. . لا لينقذ الأرض العربية، وإنما لينقذ نفسه وصناعته، ثم الولايات المتحدة من سلطان اليهود!!

وقالها طليحة . . فصدقها خالد

أو تظنون بي الظنون.. تحسبونني أترك قومي العرب جزراً لهؤلاء الأعاجم؟!

هذه الكلمة قالها طليحة الأسدي. أسلم ثم ارتد وادعى النبوة، فإذا الهداية بعد أن هزم تقوده بسلسلة إلى الجنة. فارسا في القادسية، لا يقطع سعد أمراً دون مشورته، ثم يسير إلى فتح الفتوح «نهاوند» يسبر الطريق تحت قيادة ابن عمه النعمان بن مقرن كلاهما من عالية نجد أعتلت بهما العالية، وحين ظنوا به الظنون لأنه تغيب طويلا أن يأتي بخبر الطريق فحين عاد رائد القوم، وسمع بهذه الظنون قال: «أوتحسبون أنني أترك قومي العرب جزراً لهؤلاء الأعاجم»؟!

هكذا قالها الفارس كأنما هو، وبالفتح العظيم قد مزق ملك «جمشيت» و«أنوشروان» ليلتئم ملك الإسلام في إيران، لتحظى حضارة الإسلام بالرجال الذين تناولوا العلم الملقب بالثريا فما أشد ما أنكر عرب الجاهلية سلطان فارس وما أشد حب العرب في الإسلام للمسلم في فارس ولكن ومن المحزن أن نقول لكن. . إلا أن الواقع يأبى علينا أن نستكين لظلم رجال في فارس «إيران» فهم فوق أن ظلموا أنفسهم بالحب انقلب إلى بغضاء لم تعد أن توقد النار الوثنية، وإنما عادت نار الحقد على العرب الذين حملوا تعد أن توقد النار الوثنية، وإنما عادت نار الحقد على العرب الذين حملوا

إلى إيران الإسلام. فلئن كانت هدية فارس ابن سينا والفارابي وأبو حنيفة وابن المقفع والجاحظ وأبو نواس ومهيار فإنما الصحيح هو أن هداية الإسلام وسلطان اللغة العربية، وانفتاح الوجدان المسلم، إشراقة العقل بكل ذلك ما كان كله إلا هدية العرب لفارس.

- حين أستعرض ذلك فاخراً غير ناكر، شاكرا غير كافر فإني حين ذلك أصرح «واشقوة الإسلام ببعض من يدعيه» أتحبون أسرة عربية وتصبون البغضاء على كل العرب؟ ليس ذلك من التشيع في شيء وإنما هو الشعوبية بكل شيء.

- إن البحرين جارة كلها سلم لكم، كما كانت كلها سبيل الإسلام اللهكم، أفتتآمرون عليها؟! تسخرون أغيلمة صعاليك، كأنما صداقتكم مع أبناء السبي «اليهود» هذه التي أقول ما طرأت جديدة؟ فالإمبراطور كان صديق يهود اختفت في حومة الثورة وذر قرنها في حمأة الثأر.

- هل تعلمتم من أبناء السبي، أو من إليهم أو من هم معكم من الذين قد بلغوا من الحطة التي تبرأ منها طليحة الأسدي؟!

- وكشفت دولة البحرين جريمة التآمر، فإذا الملك خالد بن عبد العزيز يمسك بعمق التاريخ وحمية العربي ونصرة المسلم لأخيه، فإذا هو يقول ليفعل ما قال «أنا لست أقل من طليحة» فلن أترك قومي العرب لهؤلاء الأعاجم وإذا أخوه الأمير فهد ولي عهده يصافح النجدة كأنما هما طليحة الأسدي والنعمان بن مقرن، وإذا هما يكلفان وزير الداخلية أخاهما نايف بن عبد العزيز، يصل إلى البحرين، يقول «إن كل الكيان الكبير المملكة العربية السعودية، جيشاً وحرساً شيبا وشبانا، قوة وثروة كلها معدة تدافع عن نفسها لأن البحرين هي نفسها لأن كل الخليج هو ذاتها».

ـ ولم ينفع تكذيب إيران، فمقترف الجريمة لا يترفع عن الكذب.

- إن الملك خالد بن عبد العزيز قد وطن نفسه أن يكون معتزاً بشرف المسؤولية، وتكليف الحماية، والحفاظ على الذات أن يكون المصدق لكلمة طليحة، لا يترك قومه العرب جزراً لهؤلاء الأعاجم. . كأن الأسياف المسلطة استعرضت بها شماريخ اليمامة قد ابيضت تبرق على شماريخ السراة وحزون تهامة.

يقول شاعرهم:

إن تتهمي فتهامة وطني أو تنجدي يكن الهوى نجد

- فصون الوحدة للكيان الكبير هي في تمام الاتحاد مع كل شعوب الكيان الأكبر.. كيان العرب جميعاً.

ومع الرئيس فرانسوا ميتران

أيها الرئيس، إن أول بلد تزوره في العالم العربي «المملكة العربية السعودية» تلك قيمة نرحب بها. . وإن جاءت وفاء تحيي بها أول رئيس دولة عربية زار فرنسا وهو الملك خالد.

فالترحيب بك كان في تلك الخطوات الكريمة التي قابلت فيها الملك خالد بن عبد العزيز.

إن زيارة الملك خالد تحمل التحية مرتين: مرة حيا بها الشعب الفرنسي.. يسقط بها الأراجيف التي أحاطت.. تزرع الشكوك في موقف جديد تنهجه فرنسا.. تغير موقفها من العالم العربي.

والمرة الثانية هي التحية لك انتحرت بها كل الأراجيف حولك كأنما

الملك خالد وكأنما ولي عهده سمو الأمير فهد قد أعلنا للدنيا كلها أن موقف فرنسا لم يتغير.. بل وفي ظلال هاتين الزيارتين التأكيد على أن مواقف فرنسا مع العالم العربي لن تتغير.

وها أنت تعطى هذا التأكيد حقه من الصدق. . تنمو به الصداقة، فالشعب العربي السعودي . بل والشعوب العربية لا تطلب من أصدقائها الانحياز إليها ضد إسرائيل، وإنما تطلب من الأصدقاء جميعا ومنك بالذات أن تنحازوا إلى مصالح شعوبكم. . تسقطون عواطف «جيمولية» التي خاض بها حربا ضد العرب حليفا لإسرائيل. . وتتسع صدوركم لما اتسعت به الكلمة كتبها «ليون بلو» حيث التفت إلى الشرق يوم اغتالوا غاندي فكتب الرثاء كلمة مجنحة «اليوم انتحرت الأرض» لفتة من زعيم اشتراكي احتفظ بها الشرق علامة على أن التوأم على التوأم. وها أنت مثل «ليون بلو» بل وأكثر إيجابية منه تلوي عنق كلمة شاعر الإمبراطورية البريطانية «كيبلانك» الشرق شرق. . والغرب غرب ولن يلتقي التوأمان فأنت اليوم تلتفت إلى الشرق مرة أخرى تزور المملكة العربية السعودية مشرق النور للإنسانية... فباريس مدينة النور تنورت حين كانت الواسطة تأخذ عمر «البرنات» الحضارة الوسيط. . حضارة العرب المسلمة . . المسلمة . . فنحن العرب الأمة الوسيط، توسطنا ونحن وسط الأرض. . إن أعطى الإنسانية ما أخذناه من حضارة الصين. . سكرا بلورناه . . فقد كان في الصين مازال سائلا وقرطاسا كتبنا عليه الحضارة. . وتوسطنا الأرض فأخذنا حضارة الهند، فالرقم الحسابي اليوم هنديا استعرب كما أنكم عبر الأندلس أخذتم الرقم الحسابي العربي عربيا تغرب. . وتوسطنا الأرض فأعطيناكم حضارة الإغريق والرومان. . فالفلسفة والقانون عطاؤنا لكم . . فلو لم نكن أمة الوسيط لما كنتم الأمة الواسطة. تلك علاقة التاريخ في أعماق التاريخ.

أيها الرئيس!!

حين أسقطت المخافة من أول لحظة اقتعدت فيها عرش الجمهورية أعطيت الطمأنينة ليس للعرب وحدهم وإنما لحلفائك وشركائك في الغرب كله وحتى الولايات المتحدة، فقد كان ظنهم أن الاشتراكين ينحازون إلى الشيوعية مع أن الصدق مع التاريخ يثبت أنكم كحزب اشتراكي ومعكم حزب العمال ومعكم الرأسان في الاشتراكية الدولية كرايسكي وبرانت لم تقدموا المذهب على الوطن. فعندكم أنتم الاشتراكيين الاشتراكية في خدمة الوطن على العكس من الشيوعية تلغي الوطنية والقومية للإغراء بالشيوعية.

من هنا.. كنتم أشد قوة تحجزون اليسار الماركسي من أن يستغول في غرب أوروبا.. بهذا كله لم نجد غضاضة في أن نكون أصدقاء.. والصداقة التي نريدها ليست عاطفة.. شاعرة.. وإنما هي عقل يتحرك لحماية الشعوب.. شعوبنا وشعوبكم.. من الفوضى والطغيان والعدوان وتسخير الإنسان آلة تحرق عواطفه وينتحر عقله.

أيها الرئيس!!

لا بد من أنك اطلعت على المبادئ الثمانية التي أذاعها على الدنيا كلها صديقاً وخصيما صاحب حق أو حليف عدوان أن هذه المبادئ قد وضعت إطار كامب ديفيد في وضعه المتأزم الذي لا ينفرج إلا بأن تمارس أنت وأصدقاؤك. تقول للولايات المتحدة إن إطار كامب ديفيد ولعبة الحكم الذاتي ينبغي أن لا تكون سرمدية السياسة الأمريكية، فسمو الأمير فهد قد وضع البديل. تلك إيجابية من سموه وخسارة أن تقابل بالسلبية من الولايات المتحدة الأمريكية التي تزعم أنها تريد السلام وجريمة أن ترفض

هذه المبادئ ترسيخا لرغبة الاتحاد السوفيتي الذي لا يريد إلا أن يكون الوضع في الشرق الأوسط على حاله. . لا سلم ولا حرب . . سلاح مكدس ويد معطلة .

أيها الرئيس!!

إن العرب اليوم وفي مقدمتهم المملكة العربية السعودية قد ملكوا الرشد حين يلتفتون إلى ما تقدم من هؤلاء الأصدقاء من الاستعمار وما إليهم..

إن فرنسا كان ماضي العرب معها أنهم حاقدون عليها لأنها استعمرت الشمال الإفريقي والشام وتآمرت بتحقيق وعد بلفور حين انساقت وراء نقض العهود بمعاهدة «سايكس بيكو» كل ذلك كان في وجدان العرب من قبل. أزاحوه الآن جانبا كما أزحتم أنتم أحقادكم على البريطانيين الذين هزموا لويس الخامس عشر وسجنوا نابليون في الجزيرة النائية غرب أفريقيا في ظلمات الأطلسي وحين حرضوا على حرق «جان دارك» تناسيتم ذلك فكنتم أصدقاء السلام في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية.

وتناسيتم أيضا أحقادكم على الألمان التي زرعتها حرب السبعين وهزيمة الحرب الأولى والثانية فإذا فرنسا وألمانيا مركز الثقل في السياسة الأوروبية.. كذلك نحن نتناسى لأن تعمير الحاضر وصنع السلام ورد الطغيان بناء للمستقبل.. وأنتم كنتم أول الصديق لشعب الولايات المتحدة.. ولعل الولايات الآن تثوب إلى رشدها فلا تكون أول دولة أوروبية تتناسى الصداقة وتحاذر من الخصومة.

أيها الرئيس!!

إن المملكة العربية السعودية لم تبخل بصداقتها لكم في أيام المحنة. . وهي ترحب بصداقتكم الآن. .

ولك التحية أخيراً.

صور:

- وكثير منا لم يعرف أن أول قنصل لفرنسا أيام الدولة العثمانية بجدة كان الضابط الصغير فأصبح الجنرال الكبير «كاترو».

- ومن الصور الطريفة ما ترجمه أديب إسحق عن نابليون بونابرت قال أديب إسحق:

قالوا لنابليون ذات عشية:

إذا كان يرقب في السماء الأنجم

هل بعد حكم الأرض من أمنية

قال أرقب كيف أفتتح السماء

وترجم أديب اسحق كلمة نابليون (فتش عن المرأة)

فقال:

إذا رأيت أموراً منها الفؤاد تفتت

فتش عليها تجدها من النساء تأتت

_ وتحدث النمر كلمنصو قال:

كنت في حديقة أستروح ومررت بجانب سيدة ومعها ابنتها سألت الابنة أمها تشير إلى: من هذا؟ فقالت الأم: هذا النمر كلمنصو منقذ فرنسا.

فقالت الابنة: مثل جان دارك فقالت الأم. . نعم . . فإذا البنت تقول لماذا لم يحرقوه؟ يعلق كلمنصور بعد ذلك فيقول . . وهأنذا أنتظر الإحراق .

- وكان نابليون يراقب الصحيفة وأخبارها فجاءه المحرر يطلعه على خبر فإذا فيه لقد انتصر الإمبراطور على أعدائه بشرذمة من الجنود فصرخ الإمبراطور احذف هذا الإمبراطور لا يحتاج إلى مجد. أكتب لقد هزم الإمبراطور أعداءه بجيش جرار لا قبل به.. ذلك أن الإمبراطور يحتاج إلى الهيبة فالمجد لبسه.

من شاعر الربابة إلى الإذاعة

هكذا العربي. . لم تتغير حماسته نحو الأبطال، ولا يعني أن يكون البطل من صناع تاريخه، فقد أصبح «البطل» في مشاعر العربي اليوم هو هادم تاريخه!

أيام شاعر الربابة. . كانت الحماسة تغمر مشاعر العربي لأبطال الملاحم في تاريخنا.

شاعر الربابة هو المخرج، والممثل، أما المسرح فهو المقهى.. بفلوس قليلة يدخل العربي إلى المسرح، فريق مع أبي زيد الهلالي، والآخرون مع ذياب بن غانم، وفريق مع «خليفة الزناتي».. حتى يصبح فريق مع «خليفة الزناتي».. حتى يصبح فريق وهلال!

ولعلّ في تمثيلية أخرى عن «عنترة»، أو «ذات الهمة»، أو غيرهما تتوزع الحماسة كما توزعت في ملحمة بني هلال.

* * *

كان ذلك حياة في وجدان العرب، ولكن شاعر الربابة قد انتهى،

وكاتب القصة اليوم ليس عربياً. يكتبها كل برلمان في الديمقراطيات أيام الانتخابات. كل العالم العربي اليوم يسمر أذنه على المذياع. . بعضهم يريد أن يبقى "بيجن" ومنهم: ياسر عرفات. وبعضهم يريد "بيريز"، كما كان العرب من قبل. أي الحرب العامة الأولى: منهم من أنصار حزب المحافظين، وفريق يعلن آماله في حل القضية على حزب العمال، كما هو الشأن في فرنسا: الراديكاليون، اليساريون. إلى الديجوليين، والاشتراكيين، فحين نجح حزب العمال برئاسة "رمساي مكدونالد" في العشرينات. فرح كثير من الزعماء العرب لأن تغييراً في السياسة البريطانية سيحدث، وتفاءل الذين تستعمرهم فرنسا بأن أي خطوة إيجابية من حزب العمال ستتبعها خطوة إيجابية من فرنسا. . حتى إن سعد زغلول يرحمه الله، كان لديه هذا التفاؤل بحزب العمال، فذهب يفاوض. . حتى إذا عاد قال: (خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز)!. . وخصوم سعد يتهمونه بأنه لم يخسر صداقة الإنجليز في يوم ما!

هكذا العرب. مع شاعر الربابة كانوا يفتشون عن بطلهم، أما الآن فينتظرون بأسلوب التفاؤل، أو على طريقة (القعدية) من الخوارج أن يأتيهم الإنصاف والعدل من إحدى الإمبراطوريتين!.

* * *

والكلمة قالها فعالها

وتحدث صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز فإذا حديثه موجه إلى الدنيا كلها. . كأنما هو قد قال لجميع الأطراف معتديا ومعتدى عليه للعدو ومتربصا بعدوان وعميلا يركب كاهله المعتدون فكل هذه الأطراف غربية وشرقية عربية ويهودية أسمعها بكلمته ما يعنيه تحرك المملكة

العربية السعودية تصنع به سلاما وترد به عدوانا كأنما التصدي فيها هو مقابلة للتحدي.

إن حديث الأمير فهد قد جاء في حينه حين تحركت الكلمات على بعض الأفواه تطري موقف المملكة العربية السعودية والذي وقفته متصدية لعدوان إسرائيل على بيروت على العمارات والأمهات والأطفال ورغيف العيش والشجرة والحانوت عربدة عن غطرسة تتظاهر بها إسرائيل تستعرض عضلات القوة التي لم يصنعها يهودي وإنما أمدها بذلك أمريكي يمارس ازدواج الصداقة فهو صديق لليهود حين يمد إسرائيل بكل القوة الطاغية ويضع صداقة العرب على الهامش حتى تم للاتحاد السوفياتي أن يضع أقدامه وأسطوله تحيط بالمصالح الأمريكية وتحط من قدر الغرب كله فالموقف السعودي قد أعطى تحركاً للسلام يتقدم به، فرغم أنف إسرائيل قد اعترفت ضمناً بمنظمة التحرير تبادلتا إطلاق النار ثم أطاع كل منهما النصيحة في وقف إطلاق النار.

إن المملكة العربية السعودية لا تتوارى خلف البرقع ولا تتستر، فهي تعلن صداقتها للولايات المتحدة صابرة تتصبر لعلّ عقلا أمريكياً في وزن عقلية مورغانتو وهنري فورد وفورت برايت، يعرف مساوئ اليهود يقول كما قال أولئك ما لكم ولهؤلاء المهجرين من الشرق.

إن المملكة العربية السعودية حين تصبر على مضض نحو هذه الصداقة فهي تطبق المثل العربي (صديقك من صدقك، لا من صدقك) ويعني ذلك أنها تقبل على الصديق إن أحسن وترفض أي عمل يشين موقفها من هذه الصداقة، أما إسرائيل ـ بل ـ وكل اليهود فإنهم ينحرفون عن هذا المثل فهم لا يصدقون مع الصديق ولا يصادقون فإنهم كما تقول العامة «كل يوم

يريدون معروفاً جديداً» حتى إنهم قد أسقطوا هيبة الولايات المتحدة.

ومرة أخرى فإن المملكة العربية السعودية طبقت المثل العربي في تعريف الصداقة والصديق فإنها تسير مع المثل الإفرنسي (صادق صديق صديقك ولا تعادِ عدوه فهذا من شأن كلبه وخادمه)، فالمملكة العربية السعودية ليست تابعا ولا مستقطباً فهي تصادق الولايات المتحدة ولن تعادي أعداءها.

أما إسرائيل، أما اليهود فقد عكسوا مسيرتهم نحو هذا المثل الإفرنسي فهم لا يصادقون صديق الولايات المتحدة مع أنهم يدّعون أنهم أصدقاؤها وهم لا يعادون أعداءها، فلو برز عقل أمريكي كعقلية الجنرال ايزنهاور لقال لشعبه. . إن هؤلاء الإسرائيليين يطغون بسلاحكم فهم أصدقاء بهذا العدوان للاتحاد السوفياتي لأن كل طغيان من إسرائيل على العراق أو على لبنان أو كل عدوان سبق هو الذي مهد للاتحاد السوفياتي أن ينغص العيش على المائدة في البيت الأبيض.

إن سمو الأمير فهد لم يكن إلا رائداً لم يكذب قومه فهو حين أعلن المبادئ الثمانية وضع مجلس الأمن وهيئة الأمم والجامعة العربية والسوق المشتركة ومنظمة التحرير أمام الوضوح يتضح به الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الجميع إيجاب لا يتخفى وراء كامب ديفيد وإيجاب لا يخشى أي إمبراطورية ما زالت تستفيد من هذا الحريق شرق السويس كأنما هذه المبادئ الثمانية منطلق ثوري ينبغي على العرب _ وهم كل الثائرين _ وعلى الغرب وهم كل الموتورين أن يعلنوا بصراحة ترحيبهم بهذه المبادئ، فأي تحفظ عليها من أي جهة لم يكن إلا عطاءً سخيا لإسرائيل ومعذرة تطير بجناحين إلى البيت الأبيض.

إن إطار كامب ديفيد لم يكن مطلباً عربيا وإنما كان إملاء أمريكياً من إملاء يهودي، فالحكم الذاتي ترسيخ للاستعمار اليهودي، فكل يوم تخرج إسرائيل على الدنيا ومداد توقيع مناحيم بيجن لم يجف على ما جاء في إطار كامب ديفيد قد أعلن ضم القدس العربية المسلمة، وهو اليوم ينقل الوزارات إلى القدس ويزرع المستعمرات، فقد استحال إطار كامب ديفيد طريقاً ممهدا لعربدة إسرائيل، أما سلامة مصر فلم تكن إلا سلامة لإسرائيل، فلقد جربت إسرائيل شن الحرب على مصر واحتلت سيناء مرتين فأجلاها في المرة الأولى الجنرال الكبير ايزنهاور وأجلاها في المرة الثانية النصر في العبور.

* * *

وقال أحدهم: لقد وفقت المملكة العربية السعودية في وقف إطلاق النار فلماذا لم يعلن ذلك في وقته؟ فكان الجواب هو ما قاله يوما ما رئيس وزراء حينذاك الدكتور عبد العزيز حجازي: ليتنا نمارس وقار الصمت كما تمارسه المملكة العربية السعودية، فلو لم تعلن بعض الألسنة هذا الموقف في واشنطن لما أعلنته المملكة العربية السعودية لأنها فيما تصنع من مناصرة إخوانها لا تبيح لنفسها الفخار بما صنعت، فأي كلمة فاخرة ينطقها بلسان ناصر أخاه إنما تحمل التجريح لهذا الموقف وإن لم يتأذ من ناصره، فالفخار بما فعل، وقد وجدت أن إعلان ذلك ضرورة لتوضح بعض التأويلات التي قد تفهم من خلفيات الأغلال في العاصمة الأمريكية فحين أعلن الأمير فهد ذلك أوضح موقفه وموقف الولايات المتحدة التي استجابت لنصح الصديق لصديقه، كما أوضح أن منظمة التحرير وقد استجابت لنصحه قد أعلنت للدنيا كلها أنها تتصرف كحكومة مسؤولة وكثورة عاقلة وكجهاد مقدس.

ولست أتهم أن إعلان هذا الموقف قبل أن تعلنه المملكة وقبل أن يضع الأمير فهد النقاط على الحروف أن ذلك تملّقٌ للولايات المتحدة بإطراء الصداقة السعودية أو أنه المجاراة للسعودية . وفي يقيني أنها حملة مصطنعة على الولايات المتحدة ، فمن خلفيات هذا الإعلان أن من أعلنه يقول للولايات المتحدة لولا إطار كامب ديفيد لكنت الحري السباق قبل السعودية في أن أسعى لوقف إطلاق النار . لكن إطار كامب ديفيد قد حرمني ذلك كأنما هو العتاب للرئيس ريجان ، أو المن أو ما إلى ذلك .

فالدعوة الملحة هو أن تسير الأمة العربية تحتضن هذه المبادئ تطلب السلام على أساسها وتخوض الحرب لتأسيسها. . فإذا ما أنصف العرب أنفسهم وتوحدوا في هذا الموقف تجد السوق الأوروبية المشتركة متنفساً من ضيق كامب ديفيد وتجد الولايات المتحدة وسيلة بها تضغط على إسرائيل ويجد الاتحاد السوفياتي أن من الإبقاء على نفوذه أن يكون مع هذه المبادئ ليصدق مع منظمة التحرير ومع أصدقائه.

وحين ذكرت إيزنهاور فإني أعجب من الجنرال ألكسندر هيج.. ألا يكون على مستوى إيزنهاور.

مبادرة أمم . . مناورة؟

بعد خطوة أو خطوتين من احتلال الاتحاد السوفياتي للأفغان، وإبان بوادر الوضع المتأزم في إيران، وما يذاع عن ما هو متوقع للخليج.. سواء عن مطامع الاتحاد السوفيتي، أو ما يذاع عن موقف دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة من العزم على توزيع القوة سريعة الانتشار للدفاع عن الخليج، فأمام هذا الواقع، أو هو من إيحاءاته.. دعا الاتحاد السوفياتي، وبلسان الرئيس بريجنيف وحين زيارته للهند، إلى عقد مؤتمر لمناقشة

القضية الفلسطينية تحضره جميع الأطراف المعنية، ومن بينهم: منظمة التحرير!

فهل هذه الدعوة من الرئيس بريجنيف مبادرة تتعانق مع تصديق الواقع لها، أو تستجيب لها الأطراف المعنية، بما فيها منظمة التحرير.. بما فيه إسرائيل، أم هي مناورة كعامل مخدر تتصرف به العواطف، أو تتحول به منابر «هايد بارك» العالمية عما صنع الاتحاد السوفياتي في الأفغان؟! فأغلب الظن أنها ليست مبادرة، فلا الواقع يؤيدها.. لأنها ليست في قوة مؤتمر جنيف الذي أزمن مرضه، إذا كانت به بقية من حياة، أو الذي أصبح في الهالكين.

ولعلّي أطرح سؤالا أنتزعه من واقع الأطراف المعنية: فهل كل الأطراف عرباً وإسرائيليين، وكذلك الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.. مجمعون على أن يكون هذا المؤتمر؟!

أكاد أشك في أن هناك إجماعا، بل إن اليقين يعطي المعلق أن يقول كلمة يحدد فيها أن هذا المؤتمر مناورة لا مبادرة، فهو لن يعقد، وما استجابت له كل الأطراف. صمت مطبق من أقاليم صديقة الاتحاد السوفيتي، ومن منظمة التحرير، ومن إسرائيل والولايات المتحدة.

غير أن بعض هؤلاء الأطراف، وقد زار كل منهم موسكو، أذاعوا التحييد لعقد مثل هذا المؤتمر في بيان مشترك أذيع من موسكو، ولكن طرفاً آخر قد زار موسكو بعد هؤلاء ولم نسمع أنه شارك في تحبيذ هذه الدعوة لعقد المؤتمر. ذلكم هو الرئيس الشاذلي بن جديد، فبعد أن أذيع ما وافق عليه المحبذون، وتلاهم في الزيارة: الشاذلي بن جديد، فلم يكن مع أولئك المحبذين.

فهل هذا الصمت من الأقاليم الصديقة للاتحاد السوفياتي ومنظمة التحرير.. وضع قد خطط له لجس النبض؟ فإذا ما كان هناك إجماع للترحيب به كانوا مع المرحبين، وإن لم يكن أصبحوا من غير المتورطين! ولعلّ صمت الشاذلي بن جديد يحتمل أن يكون رفضاً منه، أو أن يكون إشارة لتحديد موقفه مع الذين لم يرحبوا به.. بينما هم في موقف واحد معه.

* * *

إن هذا المؤتمر مستحيل أن يعقد، فأول ما يتطلب له أن يتم التفاهم على من يكون حاضرا فيه، فلا إسرائيل ستحضره إذا ما حضرته منظمة التحرير، ولا منظمة التحرير ستحضره إذا ما حضرته إسرائيل. بينما هذا المؤتمر هو لمناقشة الوضع بين إسرائيل والعرب عامة، وبين إسرائيل ومنظمة التحرير خاصة. فأصبحت الدعوة لهذا المؤتمر غير ذات موضوع، لأن طرفي الخصام والحرب والنزاع لن يكونا على مائدة واحدة، وإنما الدعوة إليه هي استهلاك ليس محليا في الاتحاد السوفياتي، وإنما هو «حلولي» في العالم العربي. يتلقى هذه التصريحات، كأنما هي تعبير عن ردود الفعل منه، فالبعض حين قبلها. قبل رد الفعل، والذين صمتوا، أو الذين يرفضون تأخروا عن الفعل. فالفعل مع هذا المؤتمر أو ضده ينبغي أن يكون إجماعيا إذا كان العرب أمة واحدة، وإذا كانت القضية قضية أمة واحدة!

* * *

وقالها سعد للقصاب والشهبندر

وقرأت التعليق المهذب. . كتبه صديقنا الأستاذ «أكرم زعيتر» في مقاله

الأسبوعي الذي نشر يوم الجمعة ٢١ ـ أغسطس ـ يوم حريق المقدس.

وقد أتحفني بثناء أحمده له، وإن بطّنه بنقد لا أتحرج منه، بل إن حمدي له أكبر من ثنائه عليّ. لأنه فتح الباب على مصراعيه. أدخل منه لتأكيد هذه الكلمة التي قالها سعد زغلول، فترة معينة من تاريخ مصر. أيام جهادنا ضد الاستعمار الإنجليزي، وهي ـ ومن تاريخ مصر ـ لم تكن ولن تكون كلمة تنغلق بها مصر على نفسها، معزولة عن الأمة العربية.

إن «سعد» لم يقل هذه الكلمة عفواً، أو إحماضة يتفكه بها مع عبد الرحمن باشا عزام، فأنا لم أسمعها من «عزام باشا» وقد تشرفت بلقائه كثيراً في الطائف وجدة، وعلمت منه الكثير، ولكني لم أسمع هذه الكلمة منه، ولم يكن فيما تحدثت به إليه، أو بما حدثني به يرحمه الله داع لبحث هذه الكلمة _ قالها سعد _

وحين ذكرت ذلك. . أنسبه لسعد زغلول ـ يرحمه الله ـ صفر زائد صفر يساوي صفرا، ويعني بها جاداً لا مازحا: إن مصر في ذلك الوقت كانت صفرا. . جردها الاستعمار من قوة، وأن العرب أصبحوا صفرا. هذا ما يعنيه سعد، ولكن. . ممن سمعتها، وهو . . لمن قالها؟!

ففي شهر رجب من عام ١٣٤٦هـ وصل إلى المدينة المنورة الزعيم السوري الشيخ «كامل القصاب»، ومعه صديقه: مراد بك الاختيار، فكامل القصاب كان يومها مديرا للمعارف في المملكة العربية السعودية.. وصل إلى المدينة يتفقد مدرستها، ومراد الاختيار ضابط مدفعية سوري معروف. وفي بيت الشيخ «عبد القادر شلبي» الطرابلسي اللبناني.. كنا جلوسا نسمع القصاب يتكلم، وسوريا في تلك الأيام مشغولة (بالقضية!) فقال:

- ذهبت أنا والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، فاستقبلنا سعد زغلول،

وتحدثنا إليه، نعرض عليه أنه ينبغي لثورة ١٩ أن لا تخبو، فلا تموت بالمفاوضات، ولدينا المدد لك من السلاح تمسك به الثورة المصرية، فرد علينا سعد بكل الصراحة والصرامة: لا نريدها ثورة مسلحة. . إن ما تعرضونه لن يفعل شيئاً، فصفر زائد صفر يساوى صفراً!!

ولعلّ هذه الرواية عن القصاب قد رواها الشهبندر لأعضاء حزبه، فلا أستبعد أن كثيراً من تلامذة القصاب والشهبندر يزكون شهادتي هذه!

أما العفوية التي تقول عنها، فسعد أبعد ما يكون عنه، فالزعامة تسترخص حين توصف بهذه العفوية.

أما مزاحه مع «أبي عوف» عبد الرحمن عزام، فلم يقصد بها المزاح، وإن جاءت في قالب المزاح.. بل لا أحسبني إلا أني على اليقين من أن عبد الرحمن عزام - العربي صليبه.. صاحب العزوة، هو و «حمد باشا الباسل» العربي صليبه، قد ألحا على سعد أن لا يقول هذه الكلمة!!.. فأصبح وهو في شموخ زعامته، يرفه عن هذين العربيين بهذه الصورة التي رويت عن عزام باشا.

وبعيد أن أصدق أن «عزام باشا» لم يسمع العتب من صديقه عبد الرحمن الشهبندر، ولكنه حين رواها _ كما ذكر الأستاذ أكرم _ أحب أن يثبت عروبة مصر، كما كان ذلك حبه وهواه وعمله وجهاده. فأنكر على سعد إنكارها. يخفف من وقعها على أهل الشام!

إن التاريخ أكبر الفجائع فيه أننا أغرقناه بالثناء وبالمعاذير، حتى أصبح من يرتكب الجريمة والخطأ يرضى لنفسه ذلك، لأنه سيجد من يسترضيه من المؤرخين!!

إن «سعد زغلول» أقول فيه الكلمة التي قالها «ابن تيمية» شيخ الإسلام، وهو ينتقد ابن حزم..

- قال ابن تيمية: (وأبو محمد كبير عندنا، ولكن الحق أكبر منه) وكذلك أقول عن سعد - بقية الناس من فصحاء الكلمة، وصناع المجنحات - أقول: وسعد كبير عندنا، ولكن الحق والتاريخ أكبر منه!

ولعلّي لا أظلم «سعداً» حين أذكر كلمة للعقاد ـ المفتون بزعامة سعد ـ في كتابه: سعد زغلول.. أبان فيها الفرق بين زعامة العزوة والقبيلة.. زعامة الصعيد، وبين زعامة العاصمة، أو الوجه البحري كله، قال العقاد في كتابه ذاك، أروي ذلك بمعناه فإني لم أحفظ النص:

- قال: حين اجتمع الأربعة الزعماء في مالطا يوم نفاهم الإنجليز وهم: سعد زغلول، حمد الباسل، محمد محمود، إسماعيل صدقي، قال سعد: نفينا، فماتت الثورة في مصر، ووافقه إسماعيل صدقي على ذلك، فإذا شموخ العربي الصليبة زعيم الصعيد «محمد باشا محمود» يقول: «لئن لم تثر القاهرة فستثور أسيوط»!.

فإذا _ ولد على _ العربي الصليبة. . يشمخ بأنفه فيقول:

- لئن لم تثر القاهرة، فستثور الفيوم! ذلكم «حمد الباسل».

وفعلا، كانت الثورة في أسيوط، وكانت الثورة في الفيوم، لم ينكرها العقاد واعترف بها «فكري أباظة» في: الضاحك الباكي!

إن محمد محمود، وحمد الباسل، وعبد الرحمن عزام، بعزوة سلين، وأولاده علي، والهوارة، والأشراف، والحميدات، والحميريين في المنيا وفي الجيزة هم الأكثرون. . هم عروبة مصر!!

فالصحيح أن سعدا قالها. يرفض العون من الدمشقيين، فالمعذرة له، ليست بقولة المزاح، وإنما كان ذلك إملاء الظروف. حتمت على زعيم الثورة أن لا يشعر الإنجليز بتكتل العرب حوله، فذلك يسلط الإنجليز أكثر، فأحب لمصر أن تنفرد بجهادها في المفاوضات. فالمعذرة هي في الخضوع لضغط الظروف، لا للمزاح، ولا حتى للاعتذار من عبد الرحمن عزام!!

* * *

وأريد أن أزيد على الأستاذ «أكرم زعيتر» بأن الوفد المصري لم يحفل بالعالم العربي ولا يعرف عنه شيئاً، لقد فقد هذه المعرفة حينما انفصل عنه عبد الرحمن باشا عزام، وحمد باشا الباسل. حتى إن المؤتمر الوفدي، وقد أريد منه أن يتكلم عن العرب، لم يجدوا غير العقاد يتكلم عن ذلك، ومع احترامي لأستاذنا العقاد.. كان يعرف القومية العربية.. أما حين الشتعلت وتكوّنت الحكومات العربية، واشتعلت الثورة في سوريا وفي فلسطين، فإن العقاد لم يكن يعنى بذلك!

ولعلّي أذكر الأستاذ «أكرم» بما تحدث به أمين الحسيني ـ مفتي فلسطين ـ وما شافهني به «عز الدين الشوا» في أوتيل مكة بأجياد. . لقد ذهب أمين الحسيني، ومعه وفد من فلسطين، ومنهم عز الدين الشوا، إلى لندن يفاوضون من أجل قضية فلسطين، وكان من المصادفات أن الوفد المصري برئاسة النحاس باشا، المكوّن من الوفد ومن أعضاء الجبهة، كانوا في الوقت نفسه في لندن يفاوضون الإنجليز في مجريات (معاهدة الشرف والاستقلال ـ معاهدة ٣٦) فاجتمع النحاس باشا مع السيد أمين الحسيني، فقال له:

- (يا سماحة المفتي . . ما تحل المشكلة مع اليهود . . يا أخي عاملوهم كما عاملنا الأقباط) يحسب أن اليهود أقلية كالأقباط، وأنهم من أهل فلسطين، كالأقباط من أهل مصر!!

أفيدل ذلك على معرفة النحاس بقضية فلسطين، أم الأمر غير ذلك؟!

- وأذكر الأستاذ «أكرم» أيضا بموقف إسماعيل صدقي رئيس الوزراء حين ذاك.. ينفذ أوامر الملك فؤاد، وبموقف الوفد المصري برئاسة النحاس ضد المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس، وحتى الأزهر بقيادة «الأحمدي الظواهري». كلهم كانوا ضد المؤتمر الإسلامي في القدس، ولم يحضره من مصر إلا «عبد الرحمن باشا عزام» فردا مستقلا. لم يسأل عن غضب السراي، وإسماعيل صدقي الذي سلط عليه «سليمان فوزي» صاحب الكشكول. يشغب عليه وهو يخطب في المسجد الأقصى، فإذا العربي الصليبة - ابن عم عبد الرحمن عزام - مثقال باشا الفائز، شيخ بني صخر يسل سيفه يريد أن يدرك سليمان فوزي لعرقبه حماة لعزام، ولم يحضره - أيضا - من مصر إلا «محمد علي علوبة باشا» ممثلا للأحرار

فهل بعد ذلك _ يا صديقي أكرم _ لا نؤكد أن «جمال عبد الناصر» هو الذي لوى عنق التاريخ، فقال لمصر: أنت عربية، مادة في الدستور!!

الجنرال فرانكو

وأخيرا مات الجنرال الرئيس فرانكو. رجل شغل الدنيا حيا وحين صارعه الموت. شغل أوروبا في حياته. شطرها أقساما ثلاثة. النازية والفاشية أعني هتلر. وموسوليني كانوا معه. والشيوعية أعني ستالين كانت ضده. وبريطانيا العظمى الإمبراطورية اختارت لنفسها الحياد. كأنها ليست دولة غير أوروبية كما هو زعمهم حين يحجبون الخير إذا ما ملكوه عن أوروبا بينما هم يدفعون الشر عنها. اقتنت الثروات فاغتنمت فلم تشرك دولة أوروبية بما حصلت عليه وإن أعانت بالوقوف عن الحركة ضد الدول الصغيرة الأوروبية التي تشاركها الاستعمار بينما هي تحركت. فخاضت حروبا طاحنة يتسع استعمار ألمانيا أو يتورط استعمار فرنسا.

من هنا كان موقف الحياد كأنها تمارس تنفيذ كلمة شيوخ القبائل «سلط القوم على القوم فقايدها على أهلها!!..».

فالرئيس فرانكو كان محور تاريخ ليس لأسبانيا وحدها وإنما في أوروبا وفي المغرب العربي. والسؤال: كيف كان ذلك؟.

إن فرانكو كان ضابطا قائداً لجيش إسباني في المغرب حارساً لاستعمار أسبانيا وفي الوقت نفسه يقوم بحراسة الاستعمار كله فكل جندي لأي دولة مستعمرة هو حارس لاستعمارها لا يحرسها لحساب دولته فحسب وإنما هو

وبموقف غير مباشر يقف حارساً لاستعمار الآخرين، فرغم التناقض على نزح الخيرات فإنهم في ردع المالكين سواء.. فلو نجح الخطابي عبد الكريم في الريف ـ يرحمه الله ـ لعانى الاستعمار الإفرنسي وما إليه تحركاً يسبق التحرك الأخير.

أما محوره - أعني محور الجنرال فرانكو في المغرب العربي المسلم فإنه حين زحف بجيشه. يسحبه من هناك يدخل به أسبانيا يسقط نظاماً ويقيم نقيضاً فإنه قد أعطى المغرب فرصة التنفس فالتحرك. فلا أدعي خطأ أن الجنرال فرانكو كان بهذا الزحف من المغرب إلى إسبانيا هو الذي أتاح للشمال الأفريقي بعض الفرص للتحرك.

وللجنرال ديجول أن ينفض يده من الاستعمار.. لا أدعي أن عمل الجنرال فرانكو كان هو السبب لصراع العقيدة والقومية العربية.

فالشيوعية لن يستقيم لها أمر في الأرض العربية ما دام محراب يتلى فيه قرآن ومنبر تعلو عليه كلمة الله أكبر ومئذنة كلها الله أكبر ومسجد يصلي فيه المكبرون..

فاليمين العقائدي عند الجنرال فرانكو والوراثة الأندلسية والمعيشة المغربية كلها أصلت فيه أن يحارب الصهيونية والاعتراف بإسرئيل وأن يكون صديقاً للعرب، فالعراقة في التاريخ لأسبانيا كما هي لأثينا. . كما هي لدلهي جعلت كل هؤلاء . . وبحكم هذه العراقة ألا تعترف بإسرائيل .

من هنا هرع العظام يعزون في وفاته وفي اللحظة نفسها يهنئون النظام العتيد ـ اليمين ـ بتتويج الملك جوان. .

إن الجنرال فرانكو حبسوه نازياً فاشياً، قد يكون هذا لأنه من أهل اليمين ولكنه كان أسبانياً لم يلعب به هتلر ولا موسوليني بل هو الذي لعب

بهم لعبته في الانتصار على الشيوعية وكانت اللعبة الكبرى في موقف الحياد في الحرب العالمية الثانية مما كان له انتصار الحلفاء..

ولعلّ السياسة البريطانية قد عرفت هذا كله فحين سئل أحد دهاقنتهم: ومع من تقف أسبانيا؟ هل تكون عوناً للفاشية والنازية ضد الحلفاء؟

فقال هذا البريطاني: إن أسبانيا ستكون مع الذين لن تتلطخ أيديهم بدماء أبنائها، إنها لن تكون نازية فاشية. ولن تكون شيوعية لتكون بذلك عونا لبريطانيا، فرمت بريطانيا برجلها وزير خارجيتها اليهودي «صموئيل هور» أنزلته من وزارة الخارجية ليعمل سفيراً في إسبانيا موظفاً في وزارة الخارجية فحرس موقف الحياد لأن فرانكو حرص على الاستمرار في موقف الحياد حتى إذا انتصروا رجع «صموئيل هور» يحمل لقب لورد بن. . كان بريطانياً ويهوديا فلم تغيره هذه الازدواجية لأن الصهيونية واليهودية في كل مكان كانت مع الحلفاء.

إن أوروبا قد لعنت الجنرال فرانكو حيا وأخذت قبل مرضه بأيام تلاعنه تسأله متى يموت قالوا إن الجنرال لا يريد أن يموت!.. ولكنه مات.. رجل تاريخ.. وعظيما في أسبانيا.. ومحترما لدى العرب.. حتى موقفه في الصحراء كان غير عسير ولعلّه هو صاحب التيسير فيه.

وجاء بكم من البدو

حين يصل هذا المقال إلى قرائه في صبيحة يوم السبت ـ الثاني والعشرين من أغسطس ـ تنقلب الآهات التي شعر بها العرب تعبيراً عن ألم.. سواء افتعلوه أو انفعلوا به، كانوا في يوم الجمعة قبل السبت قد طلب منهم أن يتذكروا حريق القدس، فسمعوا وقرأوا حتى إذا نفضوا غبار الذكريات رجعوا وكأن المسجد الأقصى لم يحرق! فلقد أصبحت الذكريات

المريرة في وجدان طلاب السلامة ملهاة . . وقتاً لقتل الوقت .

إن هذه الذكرى التي لا أصفها ومع حال العرب معها إلا كما قال «الحارث بن حلزة»: أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء.

من مناد، ولا مجيب، وتصهال خيل، فخلال ذاك رغاء!

إن هذا البيت الثاني قد قلبناه هكذا لأنه التصوير الصحيح للواقع الآن!.

ومن أحرق المسجد الأقصى في يوم ٢١ أغسطس من عام سجل في التاريخ، ولم يسجل في الذاكرة؟!

الإجابة تقول: إنهم اليهود - بنو إسرائيل - ذلك عملهم المباشر حين أشعلوا النار، ولكن «أورشليم»: بيت المقدس. المسجد الأقصى. القبلة الأولى . مسرى النبي والخطوة الأولى في معراجه. قد احترق قبل هذا اليوم، فالنار التي اشتعلت تلتهم المسجد قد تكون ناراً مقدسة، لو أنها أحرقت مع أعمدة المسجد القلوب المسلمة، والوجدان العربي. فكثير من النيران في كثير من المذاهب عليها سمة القداسة. كالنار التي آنسها موسى على الطور.

إن الذين أحرقوا المسجد هم الذين مزقوا العالم العربي. العرب أنفسهم مزقوا أنفسهم، فأعطوا للاستعمار أن يمزقهم، وعطاؤهم اليوم للاستقطاب، فاليهود ليسوا وحدهم الذين أشعلوا النار. الإنجليز أشعلوه بوعد بلفور، وبإسقاط الخلافة، وباستعمار مصر والعراق، وفلسطين. وفرنسا كانت المشعلة للنار حين استعمرت سوريا ولبنان، وحين أرادت أن تسرمد استعمارها للشمال الأفريقي!

كل هؤلاء أحرقوا بيت المقدس..

فهل عمل اليهود عمل حضاري، أم هو همجية بربرية؟! إن الإجابة تحتاج إلى تفصيل دقيق في فقرات تأتي بعد:

- أولاً: إن الاستعمار - كل الاستعمار - لم يكن عملاً حضارياً ولو مارسته دولة عريقة أو حديثة في الحضارة، فغزو الشعوب بربرية كموجة «اتيلا» و «جنكيزخان» وإن برقعوها بدعوى التمدين.

- ثانياً: إن ألمانيا شعب حضاري.. خرج من همجية الجرمن إلى حضارة القرن العشرين، ولكن النازية بالدمار الذي فعلته، لم تكن في كل ما فعلت حضارية.

وإيطاليا: قد تكون أقدم عراقة من ألمانيا في الحضارة التي ورثتها عن إمبراطورية الرومان. ولكن غزو ليبيا والحبشة واحتلال الصومال. لم يكن كل ذلك عملا حضاريا، فالفاشية بربرية، وكذلك القول عن الاستعمار الفرنسي، والاستعمار البريطاني، والحماقة اليابانية في حربها ضد الصين، والتحامق السوفياتي ضد العالم الآن. كل ذلك عمل بربري بوسيلة حضارية.

- ثالثاً: من هنا.. كان الإدعاء بأن إسرائيل اليهودية تمارس غزواً حضارياً.. تدمر به حضارة الأمة العربية، وفي طليعتها حضارة مصر، كما هي كلمة جمال عبد الناصر _ يرحمه الله _ إن وصف إسرائيل اليهودية بالحضارة، وإنها تريد فرض حضارة الغرب.. وصف فضفاض يأخذ التاريخ على جمال عبد الناصر، فهو أول من أذاع بالكلمة البلغاء المشهورة على المنبر: إن إسرائيل تمارس غزواً حضارياً لتدمير الحضارة العربية كلها لتحل بعد ذلك حضارة الغرب.. بينما الواقع أن اليهود لاحضارة لهم، لأنهم بدو أصحاب عير، وحتى ما يوصف به الغرب بأنه

يتمتع بحضارة، فذلك أيضاً وصف فضفاض، فالغرب الآن يعيش المدنية بكل وسائل العلم، فإذا لم تدمر هذه المدنية في حرب نووية سيكون ما بنته حضارة فيما بعد.

- رابعاً: اليهود لا حضارة لهم لأنهم بدو، فهذه الكلمة من الآية الكريمة، وفي سورة يوسف وعلى لسانه وقد آوى إليه أبويه، قد وصفت اليهود بأنهم بدو: (جاء بكم من البدو)، فالقرآن وصفهم بأنهم بدو والبدوي، لم يصنع حضارة. فالعرب في الجاهلية _ أعني العدنانيين _ لم يصنعوا الحضارة إلا في عهد الإسلام حين زالت غشاوة البداوة، فاستقطبوا العلم وتوحدت الأمة مسلمة صنعت الحضارة الوسيط.

- خامساً: وقد جاء بكم من البدو، فكم كان عدد الإسرائيليين، ومن أين جاؤوا؟ حين جاء الرسول يعقوب إسرائيل إلى مصر، ورحب به ابنه الصديق يوسف يستقبله عزيز مصر. لم يكن مع يعقوب عليه السلام إلا ست وثمانون نسمة. هو والأسباط، وبعض من كان معه من رجال ونساء وأطفال، فهذا العدد القليل الذي جاء من البدو. من وادي عربا قرب بئر السبع، أو من الأوجال، أو من بادية «حران»: (الحميمة) هذا العدد لم يصنع حضارة، مع أنه المرحلة الثانية من بداية بني إسرائيل، فالمرحلة الأولى: هي في عبور الجد الأعلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل يعبر النهر إلى فلسطين. يهجر بلده «أورالكلدان». يحارب الصابئة عبدة الكواكب. ينشر كلمة التوحيد، فلم يكن إلا وحده _ أمة وحده _ عاش في مدينة الخليل، بينما مدينة «أورشليم» كانت مدينة قائمة وليس فيها قدم لأي إسرائيلي . لأي عبراني، وعاش إسحق عليه السلام على هامش الأرض في جوار أهلها الكنعانيين والآراميين. حتى إذا نمت أنسال إسرائيل في

مصر تكون من هذه الأنسال شعب قد بلغ يوم عبروا البحر بالمعجزة ـ أكرم الله بها رسوله النبي موسى عليه السلام ـ كان عددهم حين ذاك قد بلغ أكثر من ستمائة ألف. . بهذا العبور تكوّن الشعب الإسرائيلي اليهودي، ولعلّي أخالف المؤرخين حين أقول: إن تسميتهم «بالعبرانيين» لم تكن عن عبور النهر شرق الجزيرة العربية، وإنما كان هذا الوصف ينطبق كل الانطباق على عبورهم البحر بأثني عشر طريقاً فتحها الله لهم وهم يفرون من فرعون.

_ سادساً: وعبروا فمكثوا في سيناء يحنون إلى عبادة العجل.. يشقون العصا على طاعة موسى وهارون. . يهلكون في يوم الظلة . . يتيهون أربعين عاماً، فعز عليهم أن يقتنوا البعير، فأصبحوا المجتمع الحماري، وأدنى أنواع البادية يعيشون في مجتمع حماري (كالصلب والغجر) وبكل الأسماء التي تطلق على البهوميين جميعاً، ففلسطين لم تكن أرضهم، وبيت المقدس «أورشليم» لم تكن مدينتهم وحين تهيأ لهم سلطان طالوت، ومنح الله القوة لداوود، وتفرق أمر الكنعانيين والآراميين.. استطاعوا أن يحتلوا فلسطين، فكان ملك داوود، وملك سليمان، ملكاً حضارياً بلغ القمة، ولكن . . لم يكن ذلك البناء الحضاري لملك سليمان من صنع أي يهودي، بل كان ذلك منحة الله للنبي الرسول سليمان .. يقيم بناءها من سخرهم الله لسليمان الطير والجن والمردة والفعلة من الأراميين. . حتى بناء الهيكل لم يرفع أي يهودي لبنة فيه، وحتى ضاقوا بسليمان ينتظرون موته لحظة بعد أخرى ليتخلصوا من قيد الطاعة والإيمان.. ليكونوا شعباً فاسداً عابثاً، حتى إذا توفاه الله فأخفى عليهم موته حيناً، فلما علموا هتف الهمجية في أفئدتهم فرحة بموت سليمان. هكذا اليهود.. كل عملهم في إسرائيل، وطغيانهم على الإنسان والأرض، لم يكن عملا حضارياً، وإنما همجية بربرية.. نازية فاشية وتترية.

التحايل على التحول

ولا شك، ودون ما ريب، أن سلوك اليهود أول تاريخهم، وفي كل تاريخهم، وحتى الآن لا يكسبون المواقف ولا يمارسون الظلم، ولا يتعاملون بالمال إلا بأسلوب التحايل. يتظلمون أحياناً حتى لو صنعوا السبب الذي يظلمون من أجله، ويبكون أحياناً، فالدموع من أمضى أسلحهتم يسرقون بها عواطف الناس، كأنما الحبل من الناس يفتلونه فتلا بالمسكنة، فإذا هم، وقد أخذوا من التحايل كل ما يريدون حتى إذا وصلوا إلى قوة يملكونها، أو قوة خدروها فأعانتهم، كانوا صناع الجبروت والطغيان.

وهكذا صنعوا في فلسطين، فقد اكتسبوا بالتحايل وعد بلفور، والاعتراف بالدولة باسم إسرائيل.. مع أن إسرائيل الجد يعقوب الرسول النبي بريء من طغمة هؤلاء اليهود، بل المتهودين الذين هم ليسوا من نسل يعقوب، وإنما هم خرز أشكناز، تتريون وسلافيون، فإسرائيل بريء منهم.. فإن هؤلاء بدأوا الآن المرحلة الثانية من مراحل التحايل حين شعروا بأن لدى الولايات المتحدة بعض التحول ليس لصالح العرب، وليس هو ضد إسرائيل، وإنما هو لصالح الولايات المتحدة نفسها، فهم يتحايلون الآن على أن لا يتم التحول، ولا يهمهم أن تتردى سياسة الولايات المتحدة بإسقاط الهيبة، ونفور الأصدقاء، وتعطل المصالح، والشك في الدول الغربية من ناحية تذبذب السياسة الأمريكية. يظنون الآن في أول الأمر أن

السياسة الأمريكية غير قادرة على صون مصالحها ومصالح الغرب. ذلك لأن التحايل اليهودي إذا ما استطاع أن يضعف من التحول أو يمنعه، فإن الغرب ـ كل الغرب ـ وحتى الولايات المتحدة، يجدون أنفسهم بلا أرض تصادقهم تكون ملجأ للتسهيلات، ولا صديق ينتصر لهم ولو لم يكن معهم، وإنما ليس هو عليهم. كل ذلك يصنعه التحايل الإسرائيلي، كما هو صنيع التحامل الإسرائيلي طغيانا على العرب.

* * *

لقد بدأ هذا التحايل حين شعرت إسرائيل بأن الولايات المتحدة قد ضاقت بطغيانها على لبنان وعلى العراق. . كأنما سياسة الولايات المتحدة تسأل نفسها: أليس من الوفاء لإطار كامب ديفيد _ أكسبها السلامة من مصر _ أن لا تضع الولايات المتحدة ومصر في الموقف الحرج؟!

لقد أبى مناحيم بيجن أن يذهب إلى الولايات المتحدة قبل أن تعيد إرسال الطائرات التي أوقفتها مؤخراً، وليس ذلك من عجرفة الضعف، وإنما هو من قوة الإضعاف لسياسة الولايات المتحدة. . تسلطت بها اليهودية العالمية الصهيونية داخل المؤسسات الديمقراطية، كأنما الديمقراطية في الولايات المتحدة أصبحت الدكتاتورية على الإدارة الأمريكية!

وأرسلوا الطائرات، وتقدم بيجن بجرعة التحايل. . يتفضل ويمتن على الولايات المتحدة حين يجعل من الأرض التي احتلتها إسرائيل مستودعات لذخيرة الجيش الأمريكي، كأنه لا مكان للتسهيلات، ولا أرض لحلف الأطلسى تكون فيها المستودعات!.

ـ ما هو المهم لهذه المستودعات. . يخزن فيها عتاد الجيش

الأمريكي. . لماذا لا يكون العطاء الموافقة على وجود قواعد للجيش الأمريكي لدى إسرائيل؟!

إن العون بالمستودعات كذبة على التاريخ، وتحايل على الإدارة الأمريكية، ليعطي الفرصة لأنصار إسرائيل في الولايات المتحدة أن يشتد ضغطهم على الإدارة الأمريكية، ولقد قلنا من قبل، وبصورة من التحدي: أن بيجن، وكل رئيس وزارة إسرائيلي لن يمنح الولايات المتحدة قاعدة لديه، فذلك حرب ضد الاتحاد السوفياتي كأي قاعدة في حلف الأطلسي، وإسرائيل لن تكون في موقف تنتصر به الولايات المتحدة ويغضب الاتحاد السوفياتي، فهي في فلسطين تطير بجناحين: جناح يتجه من واشنطن إلى السوفياتي، وجناح اتجه من موسكو إلى تل أبيب.

ـ وهل هناك تحول في سياسة الولايات المتحدة؟!

نعم، فإن بعض ما يذاع على لسان الرئيس ريجان، ما كتبته بعض المجلات، إشارة إلى وجود تحول ليس ضد إسرائيل، ولا لصالح العرب، وإنما هو لصالح الولايات المتحدة.

ولا أريد أن أبشر به، ولا أملك التحذير منه، وإنما كل ما أعرضه هو في ما تصنعه إسرائيل من التحايل، وما يذاع عن الولايات المتحدة من التحول.

* * *

_ وسؤال: من الذي صنع التحول؟!

صنعه العرب الذين يملكون وضع الولايات المتحدة أمام حرمانها من المصالح، فقد قال الرئيس ريجان: إنه يشعر بتحسن العلاقات مع العرب

المعتدلين، ويصنع هذا التحول أيضاً: الموقف الضاغط على العرب، والذي أوجب على الغرب أن يضغط به بصورة أو بأخرى على الولايات المتحدة، وقد أبرزت فرنسا هذا الضغط بصورة جلية حين قابل وزير خارجيتها «ياسر عرفات» ويصنع هذا التحول أيضا: الموقف الضاغط، بل والسافر على الولايات المتحدة من سياستها، وهو ما يمارسه الاتحاد السوفياتي.. غرب الهيملايا، وشرق أفريقيا، وأواسطها، وحتى غربها وجنوبها الغربي..

كل هذه العوامل الضاغطة أحسب أن الولايات المتحدة مضطرة إلى تنفذ كلمة الرئيس ريجان: (لا ينبغي للولايات المتحدة أن تنحاز إلى إسرائيل، أو أن تنحاز إلى العرب).. هذه الكلمة من ريجان مفتاح التحول إسرائيل، أو أن تنحاز إلى العرب أن تكون إسرائيل في موقف المطيع المتحدة، فكل ما يريده العرب أن تكون إسرائيل في موقف المطيع للولايات المتحدة، على أساس أن الولايات المتحدة لا تستعصى سياستها أمام إعطاء العرب الحماية من طغيان إسرائيل.. ليس بجيش أمريكي، وإنما بقوة سلاح يشتريه العرب بالمال الوفير.. يعين الولايات المتحدة على اعتدال ميزانها التجاري لتكون قوة الدولار هي القوة الأقوى أكثر من الصواريخ، فإذا ما اعتدلت سياسة الولايات المتحدة، وأنكرت على إسرائيل تدخلها في سياستها.. تفرض عليها أن لا يتبع سلاحا للعرب، فحين ذاك يمكن لأي عربي أن يصدق هذه الأنباء التي تقول: إن هناك في سياسة الولايات المتحدة تحولا!

ولا أدري. . هل ينجح التحايل، أم يستمر التحول؟!

ذلك ما يتضح بعد زيارة بيجن لريجان، وبعد أن تتم الزيارات الأخرى، وإن غداً لناظره قريب!!

جروميكو يستقبل شامير

بعض الذين سمعوا هذا الخبر عجبوا كيف يستقبل جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفيتي: شامير وزير خارجية إسرائيل!

واتجه العجب منهم يسألون: هل استأذن «شامير» الولايات المتحدة، أو هل عند منظمة التحرير الفلسطينية علم بهذا الاستقبال ونتيجة الاجتماع؟!

وفي يقيني أنه لا معنى لهذا العجب، لأن وزير خارجية الاتحاد السوفياتي بكل القوة التي تملكها إمبراطوريته لا يسأل عن من يرضى، أو من يغضب، فالإمبراطوريات أكبر من أن تستأذن الأصدقاء.

واليهودي «شامير» قد اتخذ هذا الموقف في أكثر من تصرف، فهو أيضا لا يسأل عن رضا الصديق أو غضبه، بل ربما أراد بذلك إغاظة الصديق، وليس ذلك بالأسلوب الذي يتخذه بعض الساسة فيقولون: دعونا نصادق الاتحاد السوفياتي كأسلوب للحرب ضد الولايات المتحدة. أو يقول الآخرون: دعونا نصادق الولايات المتحدة لعلها تساندنا ضد الاتحاد السوفيتي!

* * *

ف «شامير» ليس كذلك، بل ربما أنه سيقول للولايات المتحدة: ألست الحريصة على ضمان الأمن لإسرائيل، فمن السهل أن تصونيه ضد العرب، وحين قابلت وزير خارجية الاتحاد السوفياتي أردت باسم إسرائيل أن نخفف العبء عنكم، لأن ضمان الأمن من الاتحاد السوفياتي ينبغي أن يكون من الاتحاد السوفياتي نفسه، فمن الصعب أن يمارسوا نوعاً من المواجهة ضد الكرملين لضمان أمننا!

وهذه الحجة قد لا تنطلي على الولايات المتحدة، ولكنها شديدة الرغبة

إن كانت، لأنه من الناحية الأخرى سيعطي العرب فرصة التفكير في مدى الصدق في موقف الاتحاد السوفياتي معهم.

وهكذا تتلاحق الأحداث مسرعة اليوم وستكون مذهلة غدا، فالكل يتحرك ويلهث. لا سؤال عن الأخطاء، ولا إدراك للصواب، ولا معرفة يجد فيها الإنسان نفسه في مكانه يصارع الأحداث. قد يكون في لحظة مع الشرق، وفي لحظة مع الغرب، كأن العلاقة بين الإمبراطوريتين قد اتخذت أسلوب المكايدة. . ذلك تصرف العاجزين، وذلك _ مرة أخرى _ سلطان الأقوياء!

* * *

إن استقبال جروميكو لشامير ليس فيه الجديد، لأن اعتراف إمبراطورية الكرملين بإسرائيل واقع كالتزام، أما عودة العلاقات أو الإبقاء على قطعها فذلك إعلان. . لعبة تلعب بها سياسة الأقوياء على الضعفاء، فالاعتراف التزام دولي، أما العلاقات فشيء آخر!

إن إمبراطورية الكرملين تعترف بإسرائيل، ولا يؤثر في ذلك قطع العلاقات.

وإمبراطورية الكرملين ـ مرة أخرى ـ موصولة العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية، أو حتى في تحديد معنى الوطن الفلسطيني!

ولعلّ تأخر إعلان دولة فلسطين قد تأتّى من حسن العلاقات مع الاتحاد السوفيتي!

سوء العلاقات مع الولايات المتحدة لا يعطل إعلان دولة فلسطين،

ولكن بالتأكيد: حسن العلاقات مع الاتحاد السوفياتي هو المعطل الأول والأخير.

ولقد قلنا من قبل: إن العالم الشيوعي بقيادة إمبراطورية الكرملين قد جامل العرب بلعبة قطع العلاقات مع إسرائيل، فالعرب قد خسروا بهذا الأسلوب. أما إسرائيل، والعالم الشيوعي فقد ربحا به ومنه، لأنه أسقط الأعباء، فلو كان لكل دولة من دول «وارسو» سفير في إسرائيل لكلفهم ذلك نوعا من المشقة حين يحدث بعض الانشقاق بين أصدقاء هذا العالم الشيوعي من العرب. حين يتصل تساؤلهم عن مواقف السفراء لدى إسرائيل.

أسقط الاتحاد السوفياتي هذا العبء فارتاح وأراح إسرائيل.

* * *

ولا يفوتني أن أذكر ما تحدث به الرئيس معمر القذافي يطلب من رومانيا حين زارها أن تقطع العلاقة مع إسرائيل تبعاً لحلفائها في العالم الشيوعي، كأن قطع رومانيا للعلاقات في تصور هذا الزعيم العربي ضربة قاصمة لإسرائيل، لكن رومانيا لا تريد أن تخسر ما كسبت، وليس ذلك كسبها وحدها وإنما سوء الظن يعطيني أن أقول: إن رومانيا بما كسبت. كان ذلك كسبا لحلفائها بصورة أو بأخرى.

حين تقطع رومانيا العلاقات، فإن إسرائيل ستكسب كثيراً، لأن بعض مواقف الرئيس «شاوشيسكو» قد أقلقت إسرائيل، حتى إنها نظمته في سلك واحد مع المستشار «كرايسكي»!!.

بيجن رئيس عصابة إسرائيل

لقد كنت مع "ياسر عرفات" ومع كل الذين يحبذون بقاء "بيجن" رئيساً لوزراء إسرائيل لأنه قد أوصل الوضع في الشرق الأوسط كله إلى ذروة الشر، ولا أقول إلى حافة الهاوية، فحافة الهاوية مطلب الإمبراطوريتين، أما ذروة الشر فمخافة الإمبراطوريتين.

ثم.. إن "بيجن" بكل ما صنع في لبنان، وفي بغداد، وبكل السخرية أو التسخير لإطار "كامب ديفيد" قد أخرج أصدقاءه وأخرج أصفياءه.. فالولايات المتحدة قد وضعها في الموقف الحرج.. إذا كان ما نظنه فيها صحيحاً، أو أنه، ولا أدري، قد أوصلها إلى الطريق التي تخرج به.. تعلن أنه لا أصدقاء غير إسرائيل.. تعلن بصراحة ـ التي اضطرها مناحيم بيجن لنها مع إسرائيل ولو اقترفت إسرائيل إسقاط معاهدة السلام.. ليقول ناطق أمريكي: إسرائيل قد حجزناها عن مصر، وحجزنا مصر عن إسرائيل، وكلاهما معنا.. بل إن منطق الاستحواذ عليهما أن يكون هناك بعض التفريق بينهما، ليكون كل من إسرائيل ومصر في حاجة إلينا!!

حين تكون النتيجة على هذه الصورة من مناحيم بيجن فهو في اختيار الثائر العربي: أن يبقى رئيساً لحكومة إسرائيل!

أما «بيريز» فسيحاول التحذير بأسلوب آخر.. يمد حبل المفاوضات.. يسترخي عضلات الطغيان في لبنان.. يكيل الوعود للحكم الذاتي، كأنه يعطي العرب جرعة مسكنة، ويعطي بيجن فرصة ممكنة و «بيريز» يعمل له «بيجن» كما أن بيجن قد عمل لبيريز، فهذا التساوي في نتيجة الانتخابات هل هو عمل برلماني حر، أم هو توزيع المقاعد لتوزيع التصرفات.. تفعله هذه العصابة اليهودية؟!

إن من الحماقة أن تتعامل الدول، وأخص منها الدول الغربية التي تلقى بعض زعمائها الصفعات من مناحيم بيجن، مع إسرائيل على أنها دولة. . مع أنها عصابة!

إن الرواية لم تتم فصولها. . وقد يبدأ الفصل الثاني بعد الخامس من أغسطس في كامب ديفيد، أو في أي «كمب» آخر!

حوار بين مناحيم وشمعون

وأخذتني غفوة.. آمنة من نعاس، أصحو بها.. تستريح نفسي من أكدار اليقظة، فكثيراً ما تكون الإغفاءة صحو وجدان، وكثيراً ما تكون اليقظة كدرا يكرب الإنسان.. فالغفوة جرتني إلى وادي عبقر، فانحدرت أستبطن الوادي السحيق العميق في تاريخ الأمة العربية، كأنني طسم وجديس قد استأثروا بوادي عبقر.. يبقى في تعريف النبوغ والنابغين أثرا من حضارة كانت الأساطير حقيقتها.. حتى إذا ضاع من أعماقها التاريخ نسفوا الحقيقة التي هي واقعهم الآن، فصاغتها الدنيا عليهم أساطير. فكارثة ـ أيما كارثة ـ أن يصبح واقع العرب اليوم أسطورة. فطسم وجديس أغرقتها رمال نجد وكوارث الطبيعة، لكن بقاء وادي عبقر هو كالبقاء لأرم ذات العماد التي لم دفنتها الرمال، فإذا بالقرآن يعطينا صورة عنها: (ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد).

تلك الحقيقة.. عميقة في التاريخ، لا تبهرجها الأسطورة، ولا يخفض من شأنها أنها غير منظورة. وصحوت من الغفوة، فإذا بي أرى جماعات من بني الإنسان: شيباً لم يأكلهم الدهر.. قد جمعهم المصير الواحد في قبورهم والتفت إلى ناحية فوجدت ثلاثة من مصاصي الدماء في ركن بعيد.. يجرى بينهم هذا الحوار، هم: مناحيم، وشمعون، وناعوم.. يهود

وضعت أسماءهم العبرية لأردهم إلى التلمود زارع البغضاء.. قاتل البشر.. ماسخ الإنسان اليهودي. «البروتوكولات» ما هي إلا ترجمة عصرية لما دعا إليه التلمود.

- قال مناحيم يخاطب شمعون: أنتم في حزب العمل قدتم إسرائيل بأسلوب الحرب فخضتم حروباً عدة، لم تحرزوا انتصاراً فيها وإن حققت هزائم على العرب، فالنصر ينبغي أن يكون له امتداد، ولكنه قد ضاع منكم ومازال مهددا بالضياع. إنكم لم تعرفوا أن اليهودي لا ينتصر بالحرب وإنما النصر له هو أن يخضع السلام للحرب. صنعتم لإسرائيل الكثير ولكن هذا الكثير بدأ يلاحقه الزوال. جلوتم عن سيناء مرتين، فالنصر لكم فيها قد ضاع، واحتلالكم للضفة الغربية وغزة مازال مهدداً بأن لا يبقى!

ـ قال شمعون: زرعنا فأكلتم، وماذا زرعتم أنتم يا بيجن لنأكل؟!

- قال بيجن: نحن جئنا على أنقاضكم فخلصنا إسرائيل من بقاء مصر دولة محاربة. فالسلام بين إسرائيل ومصر لم يكن فيه أي انتصار لمصر، أو انتصار للعرب، وإنما فيه كل الانتصار لإسرائيل. لقد زرعنا وعد بلفور إسفيناً شطر العرب شطرين: مشرقي ومغربي. شرق السويس وغرب السويس، ولكننا بالسلام مع مصر عمقنا هذا الانشطار فأصبحت مصر برزخاً لا يتخطاه المغربي إلى المشرقي، ولا المشرقي إلى المغربي.

ـ قال شمعون: وكيف استطعتم ذلك؟!

- قال بيجن: الذين ينظرون إلى ظواهر الأمور يحسبونه عطاء أمريكياً أو عطاء سوفيتيا، مع أن الحقيقة التي تشبه الأسطورة أنه عطاء العرب لنا، فأخذناه، وظلم لمصر أن يكون هذا العطاء لنا منها وحدها، بل هو عطاء العرب جميعاً لنا. الخوف منا جعلهم يتفوقون بحجة أن ذلك هو الحرب

علينا. قالوا إنهم سيرموننا في البحر فتبرأ جميعهم من ذلك، بينما كثير منهم لازالوا على هذا الرأي. يعترفون بالقرار ٢٤٢ وفيه الاعتراف بإسرائيل ويرفضون المقترحات السعودية بحجة أنها تتضمن الاعتراف بإسرائيل!. . أي منطق هذا، لكنه الأسلوب الذي يرضينا وإن تظاهرنا بالغضب منه. إن عدم الاعتراف بإسرائيل يعني أنهم سيرموننا في البحر، فما لهم يتبرأون من ذلك؟!

* * *

_ قال شمعون: وهل صحيح أنكم ستجلون من بقية سيناء نهائياً؟

- قال مناحيم: نعم، ولم لا.. إن احتلال سيناء كلفنا الكثير.. انسحبنا أول مرة بضغط أمريكي وانسحبنا في المرة الثانية حين هزمنا بالخطوات المنتصرة في العبور وبسلاح سوفياتي، فماذا ينفعنا البقاء في سيناء وقد أصبحت مصر بمعاهدة السلام في معزل عن الحرب، وفي نطاق السلام؟ فذلك هو الذي نرضاه. إن سلامة إسرائيل من الحرب مع مصر عطاء لقوة الحرب ضد الآخرين.

_ قال شمعون: إن أستاذك هتلر قال «المعاهدات قصاصة من الورق» فهل تضمن بقاء مصر بعد الجلاء عن سيناء على الوضع الذي يرضيك، وقد أصبحت مصر الآن قوة متطوعة لا تستغني عنها الولايات المتحدة، فلو أعادت مصر لنفسها نظرة جديدة لأمكن لمصر وبعون الرأي العام العالمي، وبيقظة عربية جامعة، وباضطرار أمريكي أن تضع معاهدة السلام قصاصة ورق، فإن بقاء الاحتلال للضفة الغربية وقطاع غزة منطلق لأن تعيد مصر ما تأخذه من تفوق موقفها إذا ما قالت: الجلاء عن الضفة الغربية وقطاع غزة، وإلا فلا سلام؟!

- وهنا صرخ ناعوم (جولدمان) فقال: إن عليكم وأنتم حكام إسرائيل أن تعرفوا أن العرب لن يتركوا مصر طعاما للسلام معكم، فإن خالفوها اليوم فإنهم وبصورة وبأخرى سيعودون إلى التضامن.. سواء بيقظة من الزعماء، وبصرخة حاسمة من الشعوب. فالشعوب لا تقبل الضياع لنفسها، وقد انتهى عهد التقديس للزعماء؟

* * *

- قال مناحيم: أنا لا أنكر على حارس الكهنوت اليهودي - ناعوم - نظرته البعيدة، ولكن قسوة الزمن الآن أبعدت هذه الخواطر، فإسرائيل قد أسرعت حين شطرت العرب إلى شطرين. بعضهم اتجه إلى موسكو، فاضطرت واشنطن أن تتجه إلى البعض الآخر. هذا ما يجعل الوفاق بين العرب بعيداً!

- قال ناعوم: حين اتجهت الولايات المتحدة إلى بعض العرب، فإن ذلك سيقلل من فرص اتجاهها لإسرائيل، وحين ذلك تصبح إسرائيل موقف المستجدي بدون استعلاء، فقد سئم الشعب الأمريكي هذا الاستعلاء.

- واستطرد ناعوم يقول: إنكم لم تعرفوا قوة اليهود بعد، فاليهودي ليس حامل سلاح وإنما هو صاحب فكر مدمر، فكل ما صنع اليهود في التاريخ لم يكن بقوة الذراع، وإنما بالفكر المدمر. إن العالم يتهم اليهود بأنهم يملكون المال، وهذا مبالغ فيه، فامتلاك المال قد يكون فيه الخطر على صاحبه، إن اليهود يملكون السيطرة على المال. سواء ملكوا الكثير أو القليل، فكل سيطرتهم على ما يملك الآخرون. كل الأساليب الاقتصادية، والتجارية والبنكية . . حتى أسعار البترول لا يملكها اليهود، وإنما هم يفرضون سلطانهم عليها . يحركون الرخاء بها، والحرب

والاستغلال وخفض العملات وارتفاع الأسهم وانخفاضها. قوة اليهود في السيطرة على المال كله.

* * *

وصحا شيخ كبير.. حبر من أحبار اليهود اسمه «عبد الله بن سلام» صاحب رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، فقال: أنتم اليهود أهل بهتان.. قلتها لرسول الله، وأنتم اليوم في عرض الهلكة.. أهلكتم الكثير من بني الإنسان وتمارسون الهلاك للعرب، ولكن هلاككم، وفي أرض فلسطين، سيكون بيد العرب إن آجلا أو عاجلا.. ذلك حين ينقطع العون من هذه الحبال التي تمتد إليكم.. ابتداء من وعد بلفور إلى الجسر الجوي، وإلى أن يقول الشعب الأمريكي: كفى تخريفاً بالالتزام الخلقي، فالاتحاد السوفياتي قد أصبح الخطر على الشرق الأوسط أكثر من الخطر على غرب أوروبا.

إن سلاح حلف الأطلسي ينبغي أن يكون ضد سلاح وارسو في غرب آسيا وشرق أفريقيا، وقد بدأت الولايات المتحدة تصحو من التخدير اليهودي!.

- قال شمعون نحن شعب يهودي يلبس شعوبية أمريكية.. نجد الوسيلة التي نخدر بها الولايات المتحدة حينما نقول للاتحاد السوفياتي: تعال ننتصر بك لتنتصر في بولندا، ولئلا تهزم في الأفغان، وليكون كاسترو في غرب آسيا وشرق أفريقيا في قوة كاسترو في كوبا.

- قال بيجن: الدموع سلاحنا الأخير، والشموع زغاريدنا الآتية، فلا يأس، فإن الخوف الذي يحكم العرب الآن قد جعلهم لا يصدقون الولايات المتحدة!

إسرائيل. . مجمع الأحقاد الأربعة!!

إسرائيل اليوم مجمع الأحقاد الأربعة، فقه نستقرئه من التاريخ.. تاريخ اليهود مع الإنسان كل الإنسان.. ومع العرب بصفة خاصة..

أريد أن أستنفر قارئا أشدد به أزري إذا ما سمعني بتصويب ما رأيت. لو أعرف به قدري إذا ما أعانني على تخطئتي فيما أردت. فالموضوع سهل، لأن الفكرة أحضرت نفسها. والموضوع صعب. إذا ما غابت الفكرة عن قارئ يقرأ وهو واقف لا يستريح ليستكنه. ولا يريح بطرحه ما يستكين. أعني بالطرح الترك كما هو أصل الاستعمال. أبتعد عن الطرح والعرض. . كما هو المستعمل الآن اقتباساً من لغة أجنبية.

إن بني إسرائيل. . القبيل اليوم كانوا يتمتعون قبل الإسلام بحقد واحد. . على العرب. أولا وعلى الأمم ثانياً.

هو حقد قبلي. . حقد على الميراث. . مفصل في التلمود. . وإن اتضح بعد في البروتوكولات. . كان هذا الحقد على الميراث مقدمة لنجاح بني إسرائيل ضد قبيلتين من العرب. على يد الرسول النبي موسى في المرحلة الأولى. . وبسهم النبي الرسول. . سهم داوود في المرحلة الثانية.

برسالة موسى وملك داوود وسليمان أضيف حقد ثانٍ.. فعله الدين. في يدهم التوراة. فانتصروا على الفراعنة بالانفلات منهم.. وانتصروا على الكنعانيين بالحرب.

هم يزعمون أنهم ورثة إبراهيم.. وقد تحقق لهم بعض ذلك.. برسالة موسى والأنبياء بعده حتى ملك داوود وسليمان.. ولم يكن انتصارهم على الفراعنة والكنعانيين شيئا أوجد الحقد في العرب الآخرين.. استقبلوه إيواء

وحماية.. حتى جاء الإسلام.. يمجد انتصارهم على الفراعنة والكنعانيين.. لأنه ليس انتصار الحقد في نظر الإسلام.. ولأن الإسلام لا يراها معركة على الميراث.. لأنه وهذه عقيدته يرى ذلك نصرا لعقيدة التوحيد.. نصرا لرسالة الأنبياء.. ولأن الإسلام هو المبدأ الصالح.. ورجاله هم الصالحون فليس في حسابه عراك مع اليهود على الميراث.. فالأرض في مبادئ الإسلام.. يرثها عباد الله الصالحون.

وقد تحقق هذا على سرمدية القرون. تحقق به أن العرب وبإسلامهم هم ورثة أبيهم إبراهيم. لا بني إسرائيل. فبنو إسرائيل فسقوا عن الدين وحرفوا التوراة. وانحرفوا بالتلمود. يكبر الحقدان معهما، حقد عنصري. وحقد ديني.

كان هذان الحقدان هما الأساس في سلوك اليهود مع العرب في كل الأحقاب، وكانا أيضا هما الباعث لنقمة كالوا لهم العذاب في كل مراحل العذاب الذي ذاقوه. . حتى إن هذين الحقدين يستمرئان التعذيب كعامل يتصاعدان به.

وجاء حقد ثالث. . بهذا الدم المغولي الخزري. . الوالد الطبيعي لكل الإسرائيليين أصحاب الدولة الآن.

فالمغولية لا تنكر أحقادها وما فعلت بالعرب. . وما كادت لهذا الإسلام من عهد بابك الحزمي الخرري إلى عهد «هولاكو» و«جنكيزخان» و«تيمورلانك» والبقية التي تمت حقدها بالشعوبية في كثير من ملوك الطوائف ومن جاء بعدهم إلى آخر الحاقدين.

هذا الحقد المغولي هو مفتاح العلاقة مع السلافييت. إن كانت الجفوة

لسبب أو لآخر فستكون الصفاء للسبب الأصيل دم مغولي لعلّه أكثر الدماء انتشاراً في السلافيين.

الجفوة ستار العلاقة مع السلافيين. ففي السلافيين حقد مغولي على الغرب. ولكن الحقد المغولي. هذا الثالوث. لكي يعطي ثماره لإسرائيل. ولأنه بعيد عن المغولية الأم «الصين» فإنه في حاجة إلى حقد رابع لا يصلح أن يكون سلافيا لأن السلافية لا تملك الطريق لجني الثمار منه. . فما هو الحقد الرابع؟!

إنه الحقد الآري.. فالحرب الصليبية أساسها آري.. والاستعمار.. وكل الأفاعيل التي صبت الشر على العرب ما جاءت إلا عن طريق هذا الحقد الرابع.

إن الحقد الآري. . قد مارس ألوانا شتى في صب العذاب على الأرض الوسط بين الأرضين . . أرض العرب . قد مارس القتل للجنس الوسط بين الأجناس . . جنس العرب، قد مارس الفتنة يحدثها في الدين الوسط . دين العرب . . هذا الإسلام .

كل هذا عرفه الحقد المغولي في إسرائيل الخزرية فاستنام للآرية يتوج أحقاده الثلاثة بهذا الحقد الرابع حقد الآريين.

أحقاد أربعة تجمعت فاستكملت في إسرائيل. لتكون عادية مستعدية طاغية معانة.. يبكون في مجلس الأمن على قتلى إسرائيل.. على ضفة القناة لأن حقد الآرية.. بحقد المغولية، بحقد اليهودية، يضحك بهذه الدماء التي أريقت وتراق الآلاف من دماء العرب.

حقد لم نتعلم بعد منه. . كيف نزرع الحقد لنحصد النصر . . لنجني

الثمار . . لن يكون ذلك إلا أن نضرب فوق الأعناق، نقطع منهم كل بنان .

هذه فكرة في عرض سريع. . فهل أجدني في يوم. . أمزق اللثام عنها في تفصيل هذه الأحقاد، لعلّي بذلك أزرع حقدا كهذا الحقد الذي يزرع كل يوم في أفئدة الفدائيين؟

.. ما فصلناه من الأحقاد الأربعة في يهود.. في إسرائيل اليوم أن نكيل الصفعة له بهذه السماحة في الإسلام.. سماحة ليست من عمل البشر.. ولكنها عهد النبي محمد الإنسان، أوحي إليه أن يضع كل الأحقاد تحت قدمه.. كأنما الإنسان وقد أرهقه الحقد.. جاءه الإسلام بالتسامح حتى مع الحاقدين اليهود، وبالسلام لكل إنسان.

هذا نص نقتطفه من عهد النبي للأنصار والمهاجرين ولليهود.. نظام به السلامة للجميع، وأعطى السماحة للجميع.

قال ابن هشام. . . ٣٥٠: "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني مساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن اليهود بني عوف، وإن اليهود بني عوف، وإن اليهود بني مثل ما ليهود بني عوف، وإن اليهود بني عوف أول من اللهود بني عوف أول اليهود بني عوف، وإن اليهود بني عوف أول من غللم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد على أر جرح، وإنه من فتك فبنفسه (فتك) وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا،

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأتم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا إثم، وإنه لا تجار حرموا إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو استجار يخاف فساد فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه فإنهم على المؤمنين إلا يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا يهود الأوس مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة».

أين كان الصواب؟!

لا يبعثر الفكر العربي إلا كاتب أو خطيب يفترض رأياً من عنده أو يفترض رأياً من الأبعدين عن عقائدنا وأرضنا فيسعى كل منهما إلى تأكيدها ما يزعم يفرضه فرضاً علينا في الدندنة التي يستمرئ ذكرها كل يوم. أو كل أسبوع.. حتى أصبح ذلك الوهم له مكان الصدارة ليس في تفكيرنا فحسب وإنما في تخطيط التنفيذ وفي بناء العلاقات.. وحتى في عقد المعاهدات.. وإلى أكثر من حتى، جازف المعتدون لذلك لا بمستقبل الأمة كلها كما هو واقع الآن.

هذه المقدمة لا بد لها من شرح. . مثلا قامت العلاقات بين الاتحاد

السوفياتي وبين بعض الأمة العربية على أساس خاطئ كنا نحسبه صوابا. . أو بعبارة أدق كانوا هم يحسبونه الصواب، ولا أعني بذلك العلاقة المذهبية، فتلك تعلق بعض الأفراد لم يستطيعوا أن ينجحوا في فرض زعامة. بل إن العقيدة والتقاليد وكل التراث والتراب هي التي تطرد زعامة مثل ذلك. ولن يبقى على هذه الأرض من وجدان هذه الأمة إلا ما هو فيها ومنها ولها.

أما ما أريده فهو الحجة أو السبب التي صدقوا أنها هي تنظم العلاقات مع الاتحاد السوفيتي. فقد أشاعوا فينا أن الاتحاد السوفياتي ما سمح ولن يسمح أن تجاوزه على حدوده القريبة دولة فقد حال من قبل أيام الإمبراطورية القيصرية أن تكون ألمانيا أو بريطانيا أو فرنسا قريبة من حدوده فقد وقف دون أن تذوب الدولة العثمانية حينما أراد في أكثر من مرة أن يذيبها في حجره فلم يتمكن من ذلك لأن بسمارك ودزرائيلي وفي مؤتمر برلين بالذات قد أرجع الإمبراطورة كاترينا عن حدود الدولة العثمانية. إنه يحول دون تمكنهم، وقد حالا دون تمكنه.. حتى حينما غلبت روسيا الإمبراطورية على أمرها فرضخت لمعاهدة (سايكس بيكو) التي ضمت الأرض العربية جاءت النزعة الروسية على يد الشيوعية تفضح هذه المعاهدة يعلمها العرب، فأصبحت كأنها الأساس في معاركهم ضد ختل الخلفاء واستغلال الاستعمال هكذا كان حينما كانت الحدود الجغرافية هي السبب في الخصومات والحكم في المعارك.

أما الآن فمن الخطأ الذي وقعنا فيه مع الأسف بقاؤنا على هذا التصور، فقد أشاعوا فينا أن الاتحاد السوفيتي سيعين العرب _ كل العون _ لئلا تكون الولايات المتحدة قريبة من حدوده ونسينا أن الاتحاد السوفياتي

لم يحرك ساكنا ضد تركيا وهي دولة من دول حلف الأطلسي مع أنها الأقرب لحدوده..

وإني لأجد الجرأة في نفسي لأقول. إن الاتحاد السوفيتي في استراتيجيته التي لم تكن جديدة بعد الوفاق وإنما هي قبلة من زمن بعيد. بل لعلّها الأساس في دعم الوفاق بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، ففي يقيني أن الاتحاد السوفياتي يريد لحمايته من الصين ولتثبيت أقدامه في أكثر من بلد ـ يريد ويعمل لتحقيق ما يريد أن تكون الولايات المتحدة هي القريبة من حدوده. . تحمي واجهته فهو لا يخشاها كقوة لأن المواجهة بينهما مستحيلة. . وإنما هو يرجوها كقوة رادعة عنه هجمات الصين . فلهذه الاستراتيجية تعمد الاتحاد السوفياتي أن يثير العرب ضد الولايات المتحدة تحت ستار الحرب مع إسرائيل . بينما هو المعين لإسرائيل والناكث بالوعود لا يعطي أسلحة متطورة.

هذه سياسته.. تكون الولايات المتحدة قريبة من حدوده سواء بالدول التي هي في حلف الأطلسي أو في الحلف المركزي.. أو مع إسرائيل.

ولا أدري هل الذين يدرسون المتغيرات اليوم قد تطرقوا إلى هذا الفهم.. أم أني من دعا في السياسة وفي استقراء التاريخ.. لا يقوم برهان عندي دعا صواب ما ذكرت.. فلئن ألبسوني هذا الظن منهم لازالوا يلبسون على أنفسهم، وهناك ظاهرة، فقد سمعنا أن أكاديمية البحث الروسية قد أكدت أن العالم العربي ليس لديه مزاج يقبل الشيوعية.. كأنهم قد نفضوا أيديهم من الدعاية لمذهبهم.

هذا الخبر أهو الجديد على الاتحاد السوفياتي.. أم أنه معروف من زمن بعيد..؟

في أغلب الظن أنهم يعرفونه من قبل. وما أذاعوه إلا وفاقاً في أيام الوفاق يطمئنون الطرف الثاني في الوفاق من ناحية . ويثيرون بعض الأفراد من العرب على إخوانهم . . كل هذا من المتغيرات تسقط القيمة الجغرافية . . وتبقى المنفعة الاستراتيجية .

والأمر في هذا كله لا يحتاج إلى برهان. فالبراهين كثيرة فإن وجود الولايات المتحدة في غرب أوروبا هو الضمان ومحدد الاستمرار لوجود الاتحاد السوفياتي في البحر الاتحاد السوفياتي في البحر الأبيض ضمان لاستمرار وجود الأسطول السادس في البحر الأبيض. وبالعكس أيضاً. وإن وجود الولايات المتحدة في الشرق الأقصى في الفلبين واليابان بالذات، ضمان لوجود الاتحاد السوفيتي في منغوليا. ليس على حدود الصين فحسب، وإنما في أرض صينية. وإن وجود الاتحاد السوفياتي في بقاع من آسيا غرب الصين هو ضمان لوجود الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وفي الشرق الأدنى.

إن وجودهما متلازم فأسقطوا من حسابكم الاستراتيجية الجغرافية.. وضعوا في حساب المتغيرات الاستراتيجية الإمبراطورية.. هما قوتان لا تخاف إحداهما الأخرى.

خسرت المذاهب . . وكسبت الإمبراطوريات

في الواقع الملموس أن اليسار المتطرف. أو بالصراحة الواضحة. . الشيوعية العالمية . لم يكسبا شيئا . خسرا معركة الشيوع والذيوع في الشرق الأدنى . وفي الشرق الأوسط . ولا أجازف حينما أقول : أنها خسرت نفسها في الشرق الأقصى ما عدا الصين .

إن ذلك لم يكن عن غفلة.. وإنما هو العمد من هؤلاء الساسة كسبوا الإمبراطورية بهذا الخسران لمذاهبهم.

كىف؟

حينما تأزمت الحالة في كوريا. . غابت روسيا عن مجلس الأمن فكسب القرار الأمريكي معونة الدول التي اشتركت في حرب كوريا فوقعت الحرب الكورية ميدانها كوريا. . وشعرها الغلاف المذهبي . . والفائدة المكتسبة تمكن الإمبراطوريات الثلاث من الوقوف قوة تجاه الأخرى تنصب حبلها . . تكسب تجربة السلاح . .

هذا الكسب ما كانت تأخذه الرأسمالية الملعب ولا الشيوعية المذهب. . وإنما الذي أخذته إمبراطورية كل منها.

فهل غاب الروس أم أنهم انخذلوا لأنهم خافوا؟

لا أحسب الخذلان كان في حسابهم ولا أظن الخوف كان الحاجز لهم.. وإنما هو أعطاهم الفرصة الخصم والمناقض أن يخوض حربا يقفون وراءه ليربحوا موقفاً جديدا يجعل خصومهم يعرفون ما لديهم من قوة دون أن يجازفوا بسمعة في معركة خاسرة.. ويرون أن يدخلوا حرباً مكشوفة لا يعرفون مصيرها.. فالاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.. ومن جانب آخر.. الصين الشيوعية.. كل منها خاض هذه الحرب الكورية لحساب المذهب.

وحرب فيتنام هي على الصورة نفسها. وإن اختلفت الأساليب. كسبت إمبراطورية البيت الأبيض تجربة السلاح. وعمل المصانع وإبقاء الشعب _ كل الشعب _ في وضع الجنود لئلا يناموا بعد الحرب العالمية الثانية.

وكسب الاتحاد السوفياتي تجربة السلاح وإشعال العمل في المصانع وموقف الندية للولايات المتحدة..

فالمذهب ليس محسوباً حسابه وإنما قيمة الإمبراطورية دفعوا لها الثمن من دم الشعوب التي شنت عليها الحرب.

ومشكلة الشرق الأوسط هي أيضاً على الصورة نفسها.. عمل الاتحاد السوفياتي على أن تقع.. ولا يهمه في ذلك أن تنتشر الشيوعية في المنطقة. وإنما كل همه أن يتسع نفوذ الإمبراطورية في المنطقة.. أسطول روسي يشارك الأسطول الأمريكي.. وأساطيل الأطلسي في البحر المتوسط.. تجارب جديدة لمفعول السلاح.. موقف النديد للولايات المتحدة.. فكلما كان الأمريكان أن روسيا وراء فريق يحارب في هذا الشرق كان من حقها على نفسها.. أو من واجبها.. أن تنصب حبالها بكل القوة لتنصر العدو المحارب للعرب.. حاجزه للنفوذ الروسي أن يستغول أكثر..

إن الاتحاد السوفيتي ليس من الغفلة أن يجزع من خسران المذاهب لأن من الذكاء لديهم ما أكسبهم نفوذ الإمبراطورية.. إمبراطورية الكرملين وإن بكين قد بلغت من الذكاء ألا تتورط في فيتنام كما تورط في كوريا فيعطيها ذلك لومة الإمبراطورية المذهب ضاع والإمبراطورية كسبت، ولا يهمنا في هذه المنطقة أن تكسب الإمبراطورية.. أن تخسر المذهب وإنما المهم رغم كل ذلك.. هو أن حزب اليسار المتطرف في العالم العربي أنهم الخاسرون من تعلقهم بهذا المذهب، فالمنطقة العربية بأسسها وتقاليدها طردت هذا المذهب والقومية بحماستها وأصالتها ولا تخضع لمذهب يحارب القوميات كما يحارب الدين.

إن اليسار المتطرف قد خسر نفسه وليس هذا بمهم وإنما هو جلب كثيرا من الخسران على المنطقة. . جعل إمبراطورية البيت الأبيض تتذرع بوجود تخشاه على مصالحها. . وجعل إمبراطورية الكرملين تستغل وجوده لتزيد نفوذها. . وجعل إسرائيل تعمل ما تريد على يد هذا اليسار المتطرف في العالم العربي كان يعمل لها العملين فعله هو وردود الفعل منها. .

لقد قلنا من قبل إن حرب المبادئ قد انتهت بين الإمبراطوريات وإنما هي المصالحة تقوم الآن لمصالح الإمبراطوريات. فليس هو استجداء أمريكياً الذهاب إلى موسكو. وليس هو استعطافا أمريكياً زيارة بكين وإنما هو في الوفاق بعامل الندادة للتعايش السلمي بين الإمبراطوريات.. والاستغوال الإمبراطوري على كل الشعوب.

وليست هذه الكلمة تنديدا بالإمبراطوريات وإنما هي تذكير لهذا الإنسان المتطرف بأنه جالب الخسران لكل المنطقة . . وواهب الكسب للإمبراطوريات .

* * *

التاريخ يعيد نفسه

حين تتشابه الأحداث، فيعطي حاضرها صورة من ماضيها.. يقول المؤرخ: إن التاريخ يعيد نفسه. ولكن هذه الإعادة لا تعني أن تكون الصورة لأي حدث حاضر طبق الأصل لهذا المثل قوة الاستمرار، فالتاريخ زمان وإنسان. فالزمان يبتسم لأي حدث.. سواء كان مجداً وحضارة صنعها الإنسان، أو كان الحدث كارثة أو مأساة صنعها الإنسان، أو صنعت عليه. هو بالحروب والمذاهب وصراع المبادئ يصنع تاريخاً، وهو بالكوارث الطبيعية صنع عليه التاريخ، أو صنع به!

إن الزمان ابتسم ابتسامة عريضة حين اكتشف الإنسان النار، أو حين

صنع إدريس أول إبرة خاط بها ثوبه، ولكنه ضحك حين قتل قابيل هابيل، فمن طبيعة الزمان أنه ليس عابساً يضحك لأنه شمس في النهار وقمر في الليل. فالوضوح طبيعته، أما الإنسان فأكثر التصاقا بالعبوس حتى البكاء، ومن الغريب أنه يبكي حتى في الفرح. إذا ما صفق لبناء حضري تدمع عين صانعه ويبكي الآخرون حسداً أو تأكيداً أو غيرة من صانع هذا البناء الحضاري، فالإنسان من التجاوز القول بأنه صانع الكارثة، وإن تقدم خطوات نحوها. فالكارثة مصنوعة له، قبل أن تكون مصنوعة به.

* * *

إن الزمان أعطانا صورتين من تشابه التاريخ، فالصورة الأولى في حكاية عن حدث قرأناها للأمير شكيب أرسلان أيام كارثة التتار على بغداد، فبعد أن دمر التتار الحضارة والكتاب في العراق، يقول الأمير شكيب أرسلان: إن الرعب قد أخذ الأفئدة من عشرين رجلا عربيا انحشروا في قاعة ترتعد فرائصهم خوفاً من القتل، فبينما هم على هذه الحال دخل عليهم تتري لا يحمل البلطة، وليس معه أي سلاح.. مجرداً من أي قوة في يده، لكنه لم يتجرد من قوة الرعب في أفئدة هؤلاء العشرين.. طوله يبلغ أشبارا، ولو وضعته أمام جرة فول لكان أشبه ما يكون بها عرضا وطولا، دخل القاعة على هؤلاء العشرين. قال: أنتم هنا. سأذهب أحضر البلطة أقتلكم جميعاً، وتركوه يذهب ليعود يقتلهم، مع أن واحدا منهم أو اثنين لو قاما إليه لأمسكا به وقتلاه وبعد أن ذهب زال الرعب عن واحد، فقال: نحن عشرون نصبر حتى يأتينا ليقتلنا؟ فلنقتل ونحن نقاتله، أما أن ننتظر القتل كالدجاج.. دعوني أكمن وراء الباب أتلقفه وأمسك به ولتقوموا كرجل واحد تقتلونه بالبلطة التي يحملها. كانت هذه الكلمة من أحدهم قد أزالت

غشاوة الرعب وحتى إذا حضر هذا التتري المتملظ على الدم أمسكوا به وقتلوه ونجوا!

أفليست هذه الصورة من الماضي لها الشبيه في تاريخنا الحاضر.. سواء في عام ١٩٤٨، أو ما بعده فيما صنعه الخزري التتري الآخر «مناحيم بيجن» من قتل الفلسطينيين.. كأنما كل العرب أكلهم الإرهاب، وكأنهم إلى اليوم يتآكلون بالرعب!

* * *

ليس السلاح، وليست الإمبراطوريات، وإنما هو الإنسان إذا قتل الرعب في نفسه يستطيع أن ينتصر، فما أكثر الراغبين اليوم. يمدون أيديهم إلى العرب، ولكن العرب توزعتهم الرغبات المتلاحقة من كل صوب، كأنما الرغبة في الانتصار هي صانعة الهزيمة. لأن الوسيلة الأولى في الانتصار أن تقتل الرعب. أن تقتل الخلاف. أن نستنشق عبير الأرض. دم الشهداء يفوح منه كرائحة المسك. شهداء اليوم، وشهداء الأمس.

فهل زكمت الأنوف أن تشم العبير؟!

إن التاريخ قد أعاد نفسه: بالأمس «تتري» غزا بغداد، واليوم تتري خزري أشكنازي ضرب المفاعل الذري في بغداد.

- أما الصورة الثانية فالتشابه بها كان على صورة من الإيجاب بالحدث، وعلى صورة من السلب في معالجة الحدث، فقد اقترح وزير خارجية بريطانيا، وسموا هذا الاقتراح مبادرة كشأنهم في تضخيم الاقتراحات!.. اقترح على السوق المشتركة خطة لعقد مؤتمر على مرحلتين من أجل الأفغان، وأقرت دول السوق هذه المبادرة، ورحبت بها الولايات المتحدة، وذهب الوزير الخطير يحمل هذه المبادرة يستقبله وزير خارجية الاتحاد

السوفياتي «جروميكو» وتكون النتيجة أن الاتحاد السوفياتي قد رفض هذا الاقتراح أو هذه المبادرة.. ذلك أن هذه المبادرة تحمل في طياتها عامل الرفض لها.. كما المؤتمر الذي اقترحه الاتحاد السوفياتي من أجل فلسطين، فهذه المبادرة قد أقصت الأفغان، فكيف يقبل الاتحاد السوفياتي ذلك؟!

أنا لا أتهم هذه المبادرة بأنها كانت استهلاكاً محلياً، ولكن الاتحاد السوفياتي بعامل الرفض فيها قد أهلكها عالمياً، كما الولايات المتحدة أهلكت اقتراح الاتحاد السوفيتي عن عقد مؤتمر من أجل فلسطين!

هذه الصورة في الوقت الحاضر. . أين الشبيه لها فيما مضى؟!

* * *

إن الأيام دول. ففي الوقت الحاضر شن الاتحاد السوفياتي الحرب على الأفغان، ولم يجد رادعاً، وفي الماضي القريب شنت الإمبراطورة «كاترينا» وهي تلعب بقادة جيشها وشعبها - الحرب على الدولة العثمانية. حتى وصل الجيش الروسي على أبواب الآستانة - اسطنبول - عاصمة الخلافة العثمانية، فإذا بريطانيا أيام عز الإمبراطورية يقوم رئيس وزرائها «دزرائيلي» يذهب إلى برلين. يستقبله بسمارك. يعقد المؤتمر في برلين، وبقرار كان كالإشارة سحبت الإمبراطورية «كاترينا» جيشها ورجعت لا تحقق غرضها.

فالصورة موضوعها الاتحاد السوفياتي في الحالين، ولكن النتيجة اختلفت، لأن «بروكسل» اليوم غير «برلين» الأمس!!

واإسلاماه . . !

وأضاءت في سجل التاريخ صرخة نادت بها الهاشمية لطمت في عمورية، فقالت: وامعتصماه.. فإذا تاريخ الأمة يضحك لا بأشداق فارغة، وإنما بسيوف بتارة لامعة، فإذا ابن الرشيد أحمد المعتصم يقول: لبيك.

أضاءت في سجلات التاريخ هذه الكلمة حين امتلكت الأمة الإسلامية قوة صنعت التاريخ، وتاريخا صنع للقوة أن يعطي رجلا واحدا هذه القيمة، ولكنها بعد، ضاعت في أحقاب التاريخ لأنه لم يعد هناك الرجل الواحد، وإنما تفرق الرجال أشتاتاً، بعضهم صدق من عاهد الله عليه، وبعضهم عجز أن يكون على مثال يذكره التاريخ.

واليوم - وأنتم حول الكعبة ملوكاً ورؤساء، قد وضعكم هذا الاتجاه أمام القبلة وكأنكم الرجل الواحد، فالعبرة والحصيلة إذا ما عاهدتم الله أمام بيت الله ألا يسجل لكم في تاريخ الإسلام إلا أنكم الرجل الواحد، كأنما قوة المعتصم لم تعد قوة إنسان أمام هذا البيت، وإنما هي قوة الله، يمنحها لكم عندما يكون الأساس، كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

لقد كان الرجل الواحد خالد بن عبد العزيز فحين دعاكم ولبيتم كان معكم وبكم، وأنتم معه وبه، لن تكونوا إلا الرجل الواحد. كل منكم بلسان الرجل الواحد لا يقول: وامعتصماه، وإنما يقول: يا الله، وإنما يقول واإسلاماه.

كلمة قالها فارسي، شامي، مصري، عربي، العبد مرتين، استرقه السراق ثم باع نفسه من أجل جلنار، فإذا هو بعد ومن قبل، الملك مرتين، كان طفلا من بيت ملك فأصبح رجلا ملكاً قد تربى تربية مسلمة تجرعها جرعة جرعة من يد سلطان العلماء.. المعز بن عبد السلام.. كان معه في

عين جالوت إن لم يكن بالحضرة المباشرة فهو بحضور الوجدان، فحين حمل التتار كبعض حملات أعدائكم اليوم، صرخ الملك المظفر قطز ـ رضي الله عنه ـ صرخة ارتجت لها الأرض فانهارت تحت أقدام الأعداء، فإذا هو يحوز النصر في اليوم الخامس من أيام الإسلام كلها، بدر، اليرموك، القادسية، حطين، عين جالوت.

إن القبلة تدعوكم أن تقولوا: واإسلاماه.. فإن لم تقلها يَضِعْ منا الرجل سواء كان فرداً أو جماعة، لا تخافوا القلة، فالقلة في المؤمنين كثرة ﴿كَثِرَة وَكَثِم مِّن فِنكَةٍ قَلِيكَةٍ غَلَبَتُ فِنَةً كَثِيرَة وَاللّه ﴿ (البقرة: كثرة وَكَم مِّن فِنكةٍ عَلَي الصفا كانت الرجل الواحد محمدا عليه الصلاة والسلام، والهجرة كانت الرجلين محمداً وأبا بكر، وفي المسيرة إلى المدينة كان الثلاثة محمد وأبو بكر وعامر بن فهيرة، فهل هناك قلة أقل من هذا؟ ولكنها فيما منحها الله انتصرت على الأكثرية وأعطتكم الكثير، فلا تستقلوا كثيركم اليوم، وحين تصدق النيات، ويلتزم العزم مسيرة الجهاد يمنحكم الله النصر.. ﴿إِن نَصُرُوا الله يَصُرُكُمْ ﴾ (محمد: ٧).

المدينة تستقبل الملك

المدينة المنورة: مأرز الإيمان. دار الهجرة قاعدة الفتح الأول. أعلنت فرحتها بالملك خالد بن عبد العزيز، كما أعلن أبوه الملك عبد العزيز من قبل فرحته بها.

فرحت بالملك خالد. . يشد الرحال إلى مسجدها. . يصلي فيه، ثم هو يسلم على رسول الله، هي فرحت بذلك، وهو أشد فرحا به.

وفرحت به على صورة أخرى: صوَّاناً لأمنها. حفيظا على إيمانها. خادما لحرمها يفيض بالخير مقدمه الميمون بفتح المشاريع العمرانية بناء

وماء، فإذا هي كعادتها تفرح بالكمال، لأنها بفضل الله عليها صانعة الكمال.

من هنا فرح عبد العزيز المجمع بها، ففي اللحظة الأولى التي تسلم فيها أميرها ابن عبد العزيز الأمير محمد _ أخوك أيها الملك _ تم كمال البناء للكيان الكبير.. كأنما المدينة نادت عبد العزيز تقول له: ها أنا قد تم بي الكمال لك.. تؤسس هذا الكيان الكبير.. ترد لي الاعتبار. كنت لأكون اليوم معصومة بك فكل العطاء الذي أعطيته _ إن لم ألق له شاكرا _ يكفيني أني نشرت الإيمان والفتح، فإذا كثير من المشركين والكافرين في كل أقطار الدنيا قد زرعوا لي الحب في قلوبهم فحين يتجهون إلى القبلة، وحين يعلو خطيبهم منبراً.. لا ينسون مع أنّى لهم، فينالني بعض الذكر منهم حينما يصلون ويسلمون على رسول الله الذي عز دينه بالهجرة إليّ وارتفع مكان قبره في ترابي على كل أرض.. فاخرا به، شاكراً لأنعم الله عليه وعلي، فالمعدن النظيف نبعه من تراب نظيف، ولست أنت ولا أبوك عليه وعلي، فالمعدن النظيف.. نسباً وحسباً وعقيدة.

ولعلّي _ وأنت تعيش أياما في ربوعي تمدني بحياة جديدة _ ينبغي أن لا أنسى لأذكرك برحمة أبيك لأهلي وعمراني فأحب بكل الجهد أن لا يهدر دم، وأن لا يخرب بناء فأنت أيها الملك _ تعرف بمن حوصرت المدينة؟! في قباء كان «فيصل الدويش» شاهراً سيفه وسلاحه.

وفي العالية كان أخو حسنة «عبد المحسن الفدم» رديفاً للدويش حاجزاً له رقيبا عليه بأمر عبد العزيز لئلا تكون جامجة من الدويش.

وزاد لبوك هذا الاحتياطي احتياطياً أقوى حينما أرسل إبراهيم النشمي يحاصر المدينة من السافلة «العيون» يخيم في بستان الزهرة.

لقد سألت إبراهيم النشمي ونحن في الخرج وكان صديقا لي: كيف أبحت لشباب المدينة ورجالها أن يأتوا إلى مخيمك يحملون إلى المدينة سكراً وتمراً وأرزاً وقمحا، ففي كل ليلة يذهب أكثر من ثلاثين أو خمسين رجلا يحملون الأرزاق إلى المدينة. . ينفرج بها شديد الحصار كيف فعلت هذا؟!

- فقال: ما فعلته عن أمري، وإنما كان ذلك عبد العزيز أمرني أن أرخى الحصار ليطول الدويش. . حتى تصان المدينة من هتكة يهتكها!.

سمعت ذلك فأكبرت عبد العزيز، ذلك عمل الأبطال قادة شعوب الذين يقيمون الممالك.

هذا الخبر لا يعرفه كثير أو قليل من أهل المدينة ولا من غيرها... أعلنه تحية لك ولأبيك..

والمدينة عجيبة. . جماعة للقبائل جماعة لأسماء الأرض حولها. . أفلا تذكر يا صاحب الجلالة قبل سنوات أكثر من العشرين، وقد سألتني:

- هل المدينة نجدية أم حجازية؟

_ فقلت لك: إنها نجدية حجازية تهامية، فإن شرق منها راكب إلى الشرق في أول شبر منها كان في نجد، وإن غرب راكب منها كان في أول خطواته يعلو سفوح الحجاز «السراة» وإن شمأل راكب منها فخطا خطوات إلى السافلة فقد اتهم.

من هنا. . كانت الهجرة إليها، فقبائل العرب كلهم حولها: غطفان وأسد وتميم ومزينة في نجدها وأسلم وغفار ومن إليهما في حضن حجازها، وفي شمالها، جهينة وبلى وعنزة وفي جنوبها ما تفرع من أنصارها

وخزاعة وقريش ولحيان وهذيل. وهكذا المدينة.. فرحت بك، كما فرح بها أبوك..

وأسأل الله أن يديم عليكم _ آل سعود _ هيبة السلطان وأن يديم لكم هذا التفوق فلا تسألوا عن الشاكرين والناكرين، فقد تعود هذا البلد أنه عطاء بلا حدود ولا يهتم بالجحود فكم أعطى، وكم جحدوا!!

قمرية في «الهور»

لم أسافر منه حتى إلى الحج. . فلم يتيسر لذلك السبيل، وكتبت الرحلة إلى الهند في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٢هـ. ركبت سيارة «لوري» ليست هي سيارة البريد. . وإنما هي سيارة قريب لنا مسافرة إلى جدة تذهب إليها أنتظر أياما حتى تصل الباخرة (علوى) لتقل آخر فوج من الحجيج المسلم في الهند.

وصرعتني رائحة الدخان من (الشكمان.. كان محزوقا يرسل دخانه وسط السيارة.. فلم أستطع أن أكتم أنفاسي أو أغلق رئتي.. لا أشمه.. لا أتجرعه.. فقد استطاع أن يلفني جسداً داخله، يرغم على الاستنشاق.. أصارع بها إغماءة، فأستلقي على حجر الشيخ محمود شويل ـ يرحمه الله _ فيتلطفني لا أسقط أرضاً بين أرجل الراكبين أو لا أحشر بين أكياس تمر، أرسلها صاحب السيارة هدايا إلى أصحاب له في جدة.

واسترحنا في (آبار بن حصاني).. كأني بها الجنة المريحة، أستجم فيها من هول الدوخة وأحس فيها راحة النفس أتطلع إلى جبل يستعرض كأنما يريد أن يتناول الساحل أمامنا تذكرته.. عرفته، إذا هو (الأبواء).. يسمونها اليوم (الخريبة).

الأبواء. الأبواء. لها جرس ليس في الأذن.. وإنما في الوجدان من

حنين محمدي يتذكر محمداً. يتذكر طفولة أحمد النبي، عليه الصلاة والسلام، يتذكر كيف كان شعور (محمد) الطفل يوم دفنت أمه أمامه في الأبواء.

ماذا صنعت (أم أيمن)؟! أي كلاءة من السماء كانت تحيط البشير النذير؟! ترعاه. تحميه. بوسائل البشر المنظورة في شخص الحاضنة (بركة الحبشية) أم أيمن. أم أسامة. وترعاه وتحميه بالشيء غير المنظور ﴿أَلَمْ يَعِدُكَ يَتِيمًا فَاَوَىٰ﴾ (الضحى: ٦).

سرحت. أتذكر الأبواء في يومين. يوم اليتيم. ويوم الفتح. تذكرت الصحاب في حملة جهد.. في غزو وفتح. في مشقة من عبادة.

كأنما الصورة في الأبواء في الحالتين تفسيرهما هذه السورة الكريمة إذا اتحدت الأوضاع في الوجدان بين الحالتين حال اليتيم في الطفولة، وهذا يكون فيه محمد الرجل الإنسان، العظيم، النبي، الرسول القائد الهادي الفاتح، الرحمة.

أحسب أن كثيرا من الآيات إذا ما عرضت الصورة المجسدة لأسباب نزولها في حال الواقعة وحال المتلبسين اللابسين لأسبابها أمكن تفسيرها تفسيرا رائعا، يأخذ بلب المؤمن تتجسد أمامه كل المشاعر، حركة في وجدان، تحركا لإنسان.

وفسرت السورة فارتعشت نفسي حتى لم أسأل عن الدخان الخانق، دخان مادي، لأني أعيش النور.. من ذكري الحب، والإيمان والمجد لأرتفع ولترتفع عندي قطعة من بلدي، (آبار بن حصاني) كأبهى مكان، وأحلى بقعة.

(آبار بن حصاني) يسميها أمين سعيد في كتابه (الثورة العربية) (آبار بن حسان) أخذا عاجلا عن اللغة الإنجليزية. نقلا عن «لورنس» ومن إليه. لا يشعر بأنه قد حرف لأنه لم يألف المكان. وإنما هو ألف عما كان فيها فريق من الضباط العرب العراقيين أمثال نوري السعيد وجعفر العسكري ومولود مخلص _ يرحمهم الله _ كان هناك روما للثائرين كما حدثني مولود مخلص نفسه. أرخ «لورنس» فأخذ العرب تاريخهم من أفواه الأجنبي.

(آبار بن حصاني) يجعلها (فيلبى) النقطة التي يمر بها مدار السرطان. جنوب المدينة غرباً وشمال مكة غرباً هو يخطئ الذين يجعلون المدينة المنورة على مدار السرطان ٢٣°/٥ درجة عرضية.

ظهيرة حلوة في (آبار بن حصاني) تفيأت فيها ظلال النجيلات. أنام على (النجم) حتى لقد رأيتني أسترجع نفسي من وحشة الأبد النفور إلى أنس الدواجن والحضري. فالتدجين حضارة الحيوان والحضارة تدجين الإنسان. أو تهجنه يتفاعل مع الأحياء يصنع الحياة قسرا حينا وطواعية حيناً آخر.

وسرنا نقطع النفوز في (آبار الشيخ) في الأصيل. تبرد فيه الرمال. تسير عليها العجلات. لا (تغرز) أي لا تنغرز في الرمل. تذوب حوله أجسامنا ندفع السيارة إلى المشي. نعين قوة (الماتور) لا يستطيع أن ينقل العجلات إلا بسرعة دائرة على نفسها. لا تجد الأرض الصلبة تدور عليها. ولم (نغرز) (فالسواق) كان جيدا. والجودة طبيعة في سائق الأمس. لقلة السيارات وندرة السواقين. فالقلة جودة. والندرة أجود. سائق الأمس هو السيارة كلفة وتكليفا. وتسييراً. وشغلا. وإصلاحاً لأنه لم ينعم بما ينعم به سائق اليوم.

كان سائق الأمس قوة تحرك السيارة أما اليوم فمترف يتنعم طريق مسفلت سيارة مترفة (أوتوماتيك) واستعداد مريح. القوة في أولئك كان حديداً. والترف في هؤلاء (نيكل) براق. السائق كان هو (الماتور) أما اليوم فالسائق هو (الحلية)!!

الحال من بعضه. فرجل الأمس عضل ومشقة. وعرق. ورجل اليوم حضارة وترف. ذلك يحقق المطالب. يحفر الأرض بالأظافر. ويرضى بكوز ماء من شربة (منحسة) أما اليوم فالأرض. تحفر لنا. بأسلوب العلم والآلة. ونشرب الماء المثلج. يحفظ في الثلاجات. (الترامس) وحتى المقاهي استبدلنا فيها كلمة (شربة يا واد). بكلمة أخرى (هات ثلاجة) يعني قارورة ماء مركز بالثلج.

كانوا الحديد والفخار. فأصبحنا القوارير والحرير. ومع هذا فالرضا هناك. والقلق هنا. الرضا والقناعة في رجل الأمس. والسخط والتشهي والأماني والقرف في رجل اليوم. طبيعة العصر.

ونزلنا في جدة. في ضيافة الأفندي الشيخ حسين نصيف. فأكرمنا كما

هي عادته. لم تكن هناك (أوتيلات) تخفف عن الناس ألا يزحم الآخرين. ميزة ألا تزحم أحداً ألا تكرب أحدا. ولكن الفضيلة في أن تشبع من المودة إذا ما نزلت ضيفاً على كريم. حتى إذا ركبنا الباخرة (علوى) أصبحت كعلبة (السردين) قد كبست الأجسام فيها كبسا. وأخذت الباخرة تترنح. من ضربات الأمواج. وابتلعنا الدوار. الكل مسمر في سريره. لا يستطيع أن يتحرك. لا يطعم طعاما. ولا يذوق شراباً ولكن الشيخ محمود كأنما قدّ من حديد. كأنما هو عمود أسمر. قد نحت من صخيرات (سلع) أو من حجر الجرانيت لم يأخذ دوار. لم يستلق على سريره. فقد صادف ذلك أيام صيامه الموقوف. كل اثنين. وكل خميس فصام. وقام يسلق دجاجة يعدها لإفطاره فأوقد (الدافور) ووضع القدر عليه. وبينما هو كذلك جاء هندوكي من عمال الباخرة يهزه. يكلمه. يشير إلى الشمس بأنها كفت. تكلم الهندوكي وهو يرتجف ويقول: الله. الله. هو لا يعني الشمس. وإنما يعني الله حقيقة لأنه لا يؤمن بالله رباً خالقا. ويشرك به آلهة آخرين. وترك الشيخ محمود الدجاجة والحياة الدنيا. وقام يصلى صلاة الكسوف يقرأ البقرة وآل عمران وقض يتأرجح يميل مع الدوار لم يصب رأسه وإنما يحرك رجله لكنه سمرها كأنما قوة الوجدان في الصلاة قد قهرت قوة التحرك في الجسم .

وانكفأت القدر. واندلق المرق، سقطت الدجاجة على الأرض فلم يعرها المصلي التفاتاً. ولم أستطع القيام لأنقذه لأني كنت عديم الحركة في الجسد. لأتحرك معه. وأنا ساكت أسرح بالقيمة التي اغتصبها مني. وهو يصنع ما صنع. حتى لقد شمخ أرى إنسانا غير هذا الصديق. تبلغ به الحدة في القول أحيانا مبلغا ينكره الناس عليه. وأكمل صلاته. ورفع دجاجته يغسلها ليضع عليها ماء مرقا جديداً (تنوة) كأنما هي (تنوة القهوة) أو كأنما يغسلها ليضع عليها ماء مرقا جديداً (تنوة) كأنما هي (تنوة القهوة) أو كأنما

هي (تكحيلة الشاهي) يدغش بها طالب (البراد).

لم أتذكر شيئا حينما وصلنا إلى الهند، كل القارة كانت الإمبراطورية كدولة واحدة. تحكم بعشرات من الإنجليز يحكمون الملايين. وسرنا شوطاً طويلا نزعتنى فيه المادة من إلهام الذكريات.

ولكن الفجر قد بزغ. والصبح قد تنفس. يعيد الذكرى تهزني هزأ حينما أسمع صوتين: صوت المؤذن. وتغريد القمري. كانت قمرية تغرد على فنن. وأحسبني أعجبت بكلمة (تغرهد) أكثر من (تغرد). غرهدت القمرية فانتزعتني إلى مكان آخر. كل المكان (قباء). وكم لقباء من ذكريات تذكرت فجراً في (قباء) الحبيبة في الجزع على حافة (رانوناء). سمعت في القمري فسرقت نفسي من حمأة المادة إلى حمى الذكريات. بكيت ساعتها وأنشدت:

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو هتفت في فنن فاب خير أرقب المراب ما أرقب المراب ما أرقب المراب ما أرقب المراب ما أرقب عن أبي بالجوى تعرفنى

بكيت. فلو أني وجدت طائرة (البوينج) ساعتها لطرت عليها أرجع إلى المدينة المنورة أسمع قمريتي تغرد على نخلة. لا على شجرة ضخمة في (لاهور).

وأقام الشيخ الصلاة. وسمعت الضجيج في هؤلاء المبكرين. يهتفون. (لا إله إلا الله. محمد رسول الله) وهنا تذكرت السورة التي بعد سورة ﴿وَالشَّحَىٰ ﴾ كأنما قد انتظم سباق السورتين يعذر تاليهما إذا ما وصلهما ببعضهما كأنما هي سورة واحدة هي سورة ﴿أَلَمُ نَشَرَحُ ﴾ أقرأوها معي: ألا

ترون النسق فيها قد اتسق مع السورة قبلها؟! ﴿ أَلَمُ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. اللَّهِ وَ أَنقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرِكَ ﴾ (الشرح: ١ ـ ٤).

أليست هذه بعد الضحى فيها المن من الله تعالى؟ رحمة منه بهذا اليتيم في (الأبوء) يرتفع ذكره في (لاهور) يجيء اسمه بعد اسم الله. في شهادة لا يتم الإسلام إلا بها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله). تذكرت ارتفاع الذكر يصل إلى مداه إلى الهند. وإلى أبعد لتكمل الصورة في نظري. تضع الأبواء. تضع مكة. تضع المدينة. كشيء له قيمة حينما تتحد الأوضاع في أسباب النزول. في روعة المعاني. نفهمها من هذا القرآن الكريم.

ورجعت إلى وقاري أعد نفسي كأنما هو النذر أذهب إلى قباء أصلي ركعتين في مسجده ليطلع فجره علي أسمع فيه صوت القمري. وسمعت القمري في (قباء) بعد في فجر يوم جمعة. وفي الجزع نفسه فلم يكن شجياً كذلك التغريد في (لاهور) لأن هذا كان واقعاً ملموسا، أما ذلك فواقعة حركت الخيال أشعلت الذكريات. والخيال والذكريات أمتع لذة. وأقوى تأثيرا من الواقع. ليكون الواقع اليوم هو الممتع غدا حينما يصبح ذكرى. هذا الواقع أشعر بلذته وأنا أكتب لأنه أصبح ذكرى. فما أمتع الذكرى في القلوب المحسة الشاعرة. تعيش عليها. زاد معركة. رفيق حياة. مثار حنين. عزاء كرب. بينما هي كرب وجدان. في تنفس مشاعر. في لظى حب جديد. الذكرى تتجدد. في مذكر يستجد. فالذكريات في يقيني تفسير يتسع له ما ذكره الأستاذ مأمون الشناوي نقلا عن (فولتير) قال فولتير: الجراح القديمة تغني والجراح الجديدة تبكي.. ليس هذا تفسيراً للذكريات.. وليست الذكريات تفسيراً له؟

صورة:

وعلى ذكر التفسير لسورة ﴿وَالشَّحَىٰ﴾ أذكر ملحة طريفة سمعتها من شيخنا مهذب نفوسنا. شيخ المدينة العلامة الحبر (الألفا هاشم) رحمه الله حضرت أسمع عليه درساً في التفسير. مع تلامذته من قومه. السود الطوال. من قبائل الفلاتة ومن ولد (عقبة بن نافع الفهري) فقد كان سيدهم سواء في المدينة أو في مالي..

قال رحمه الله: يفسر قوله تعالى ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَى ﴾ (الضحى: ٤) فاستعرض التفسير الراجح المشهور ثم عرض تفسيرا آخر. قال: وفسر بعضهم هذه الآية: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ ﴾ (المدينة) خير لك من الأولى (مكة) سمعت ذلك وضحكت. أعتز كمالكي مدني بهذا الشيخ لم يخرج عن مذهب إمامه. أمام دار الهجرة فأعلن القول المرجوح. كأنما هو يرجحه. إنه تفسير ظريف يدغدغ العواطف. ولا يحجب به الفضل. لأي من المسجدين الكريمين. الحرمين الشريفين.

وكنت معك في أزمتين صنعت لي فيهما لذتين. فصنعت أنا لنفسي سعادتين. ثم أرجعتهما الممين. ثم عادتا تسترجعان في النفس والعقل فكرتين. أسطرهما على قرطاس تسود عليه الحروف بينما هي البيضاء حينما تحدثت أنت وحينما سمعت أنا وإذ أكتب الآن. حديثك عن الحب وعن صنع كل شيء في الازدواج المثنى، من الأزمة، واللذة، والسعادة والألم، والفكرة عشت أحلم في يقظة الهوى، كأنما (توفيق البكري) قد عاد حياة يفيض في عقله الذي أشاعوا فيه الجنون أو أشاعوا عنه لوثة العناد. في عرف الذين لا يرغبون أن تقال لهم الكلمة: لا. قد كنت أحلم قبل اليوم عنه سنة فصرت أحلم منذ اليوم يقظانا أو كأنما (مي) قد عادت تعقل كنه في سنة فصرت أحلم منذ اليوم يقظانا أو كأنما (مي) قد عادت تعقل كنه

الحديث معها. لا كنه الحديث عنها لأنها لا تطيق استكناه التحدث بالتوافه عن الآخرين. ولا تقبل من الذين إذا ما ذكر اسم واحد منهم أشارت بأنفها تمسكه بأصبعيها كأنما هي تفلة من الأنف. إسقاطا للقيمة. واعتزازا بالتقييم.

لقد أشعت الألم من سعادة الأمل. وأشعلت الأمل من تسعر الألم. في هذا اللقاء المفاجئ لم تصنعه أنت ولم ترده واحدة. وإنما صنعته العواطف المتراسلة عن بعد. بأسلوب أن لا قصد. أن لا عمد بطريقة التلبث. أو التلبانية كأنما هو النداء المشع من بطارية يتراسل أصحابها بطريق الإشارة. كأنما هم تلامذة (مورس) أو (ماركوني).

ما الذي ساقك أن تقف؟! ما الذي ساقها أن تمشي؟! ومن الذي سير الواقف؟! ومن الذي أوقف السائر؟! كأنما تسمرت الأقدام لا لتبصم الأرض بأرجل. وإنما لتضع البصمات على قلبين تدفقا فرحاً. مدفوعين إلى مصيرهما المحتوم. ليكون نور البسمة من نار الدمعة. في إشراقة المواعيد. في آلام التملك. من ألم الفقد. تقبض على النادر الثمين بين أصابعك. ثم إذا أنت تتركه يفلت من يدك. لأنك غير قادر على اقتناء الحلية النادرة وإن ملكتها ففرق بين القينة والمملوك. تضن بها ألا تعيش لك. بك. فيك. فدعها لتعيش فيك بس. لا لك. ولا بك. فالقدرة على الالتصاق. ليس فدعها لتعيش في ألم حرمان من عيشها في أزمة الوجود. من عيشك في الحيرة. بين ألم الحرمان وأزمة الوجود.

تاريخ وذكريات

وجاعت الحرة

- وجاعت الحرة فلم تؤكل بثدييها. وذابت ملابسها فلم يؤكل عرضها. فقد أمسكت بمغزلها ومنسجها تغزل الصوف وتنسج على القماش ما يحلو به فإذا هي تعيش الكفاف «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»..

وليست الحرة هذه واحدة من الأمهات وإنما كان واحدا من الآباء.. فقد كان في بلد عربي حين كانت بلده تخوض أزمة مع هذا البلد.. ما كان ينوي الإقامة غريباً عن بلده فظرف من القرف وظروف العلاج قد وضعته هناك فإذا هو في يم من الأيام وقد يعرفونه من مخالطة بعض الصحفيين. وحين ألقى خطابا في حفل كبير بين الأكرمين من الرجال بينما هو كذلك جاءه رجل له قدر يستطيع أن يتكلم باسم السلطان في بلده: قال أنت تقيم هنا الآن وتريد أن تطول إقامتك ونحن نعرف قدرك سنعطيك مبلغاً من المال يكفي لإعاشتك أنت وأسرتك.

فقال الرجل: هل أنا أجير عمالة أم هو ثمن مبادئ؟

فقال المتكلم بلسان السلطان «من ده على ده»...

فأجاب: إن كان المال أجر عمالة فإني أرفض ذلك وإن كان ثمناً للمبادئ فأنا أشد رفضا له.. فإن المبادئ لا تستأجر ولا تشترى.

وتخوف أن يبقى فإذا هو يعود لبلده. فلم يكن مرحلا منه ولم يكن عاقا له. ولا أدري كيف من يظن به العقوق لبلده. لترابه. لأهله. أن يظن به الوفاء لبلد آخر وأهل آخرين..

كان الرجل المستأجر الذي رفض هو كاتب هذه السطور.

وعدت إلى بلدي فإذا صديق امتلاً كرشه بما أطعمته وجبته بما أسعفته. يعرض علي أن أمارس مهنة خسيسة. عرفت بعدها لو أني أطعته لكتب تقريراً إلى طرف آخر يضعني فيه موضع الجاني والخسيس.

لكن الإغاثة جاءتني من الصديق الذي ملاك أخلاقه الاستقامة محمد عمر توفيق فإذا هو يشد أزري يرشحني مديراً لتحرير جريدة البلاد في معية الشيخ حسن عبد الحي قزاز أيام كان رئيسا لتحريرها. فرضيت واستفقت من الوحشة وإن وجدت بعض الاستيحاش من الذين أنكروا علي أن أكون أجيراً أو هم تنكروا لحسن قزاز أن أكون معه فلقيت منه ما يشرح الصدر وتطمئن إليه النفس.

وبعدها. وجرت أمور وأمور وأستشهد بقول الحارث بن عباد:

لم أكن من جناتها علم اللّه وإني بحرها اليوم صال كل من جناتها علم اللّه علي وصالح الأعمال كل شيء مصيره لزوال غير ربي وصالح الأعمال * * *

وتحدث إلي الأستاذ فؤاد شاكر يرحمه الله قال ما كنت أعلم أنك هكذا. فلقد سألت الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله وهو في مصر. فقلت له: كيف يقبل الزيدان أن يكون أجيرا عند حسن قزاز وعنده رصيد خمسة ملايين ريال.

فأجابه الشيخ محمد سرور تغمده الله برحمته يقول له:

«أسكت زيدان ما يعرف يسرق يومه عيده فلا تصدق ما يقال»...

وحكاية الخمسة ملايين ريال أشاعوا أني أملكها في أكثر من متحدث. وفرحت بذلك على حد قوله «لأن أكون الرجل المحسود. خير أن أكون الرجل المشفق عليه. فعلى أقل تقدير أنك تكون بهذه الإشاعة محترماً. والرجال في حاجة إلى الاحترام وليسوا في حاجة إلى الحب»..

فلقد أسلم الرجال أو الرحال الحنفي ثم ارتد يتبع مسيلمة وقتل زيد بن الخطاب أخا عمر ثم عاد إلى الإسلام. والإسلام يجب ما قبله. فإذا هو في حضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر أبو حفص الفاروق عبقري هذه الأمة: إنى لا أحبك فقد قتلت أخى زيداً.

فقال الرجال: وهل ينقص ذلك من حرمتي أو عطائي شيئا فقال عمر باسم الإسلام: لا..

فقال الرجال: إنما تبكى على الحب النساء...

أدب

الشاعر والناثر!

ـ الشاعر:

ومات «الشاعر» الذي استطاع أن يكون: شاعر الشباب في عصر شوقي!

ومات «الناثر» الذي يصوغ الكلمة. . يعبر بها عن السياسة في أسلوب مجنح، كأنما هو قد انتزع إلى عصره أسلوب «سهل بن هارون» و «ابن الزيات» و «ابن العميد»!.

الشاعر كان: أحمد رامي. . عاش البؤس فلم يرهقه، وإنما هو أرهق البؤس بترف الوجدان. استعصى على المرض. نال من ومضة الجمال فاستحال الجمال إلى جلال. . ذلك أن الوجه تعبير ظاهري، أما الوجدان فهو التعبير الحقيقي.

شاعر الشباب: ما نال هذا اللقب لأنه تزعم جيلا من الشباب يدخل في زمرة «أبولو»، وإنما ناله يستأهله لأنه عبر عن أماني الشباب في أغاني الشباب، فأثرته «أم كلثوم» ذيوعاً، وأثراها شيوعاً.

أحمد رامي: لم يتبطر لأنه أزاح الكدر، فكثير من إعلان البطر تعبير

عن الكدر! فإذا هو المتواضع _ تواضع الكبرياء _ ليس فيه اتضاع الأدنياء.

وتلاقينا في فندق «كارلتون» بالقاهرة، وكان حاضراً هذا اللقاء لفيف من الأصدقاء، ومنهم: ياسين طه، وأحمد فتحي يرحمه الله. وجرى الحديث عن مصر، فإذا بي أقول له: ما من أمة أراد أن يبطش بها الزمن بالمغيرين من الإنسان والمتغيرين من الأبناء.. إلا ومصر قد بطشت به!

فإذا دموع عينيه تنساب. . شاعرة من فؤاد شاعر.

- الناثر:

أما «الناثر» الفحل.. فحولة التزاوج بين العقل الراجح والعاطفة الراسخة..

عرفناه حين كان عقلا وعاطفة مع جمال عبد الناصر، فحين أرادوه عاطفة دون عقل ذهب قعيدة البيت، يكفيه ما ناله. . ما استأهله من إكبار العالم كله له: سياسياً واضح الهدف. مصرياً اتضحت به أهداف مصر. عربياً ما عق ولا انشق!

هو من جيل ثروت رغم أنف الشتائم للسابقين، ولا أقول من جيل لطفى السيد.

و «ثروت» هو بطل استقلال مصر.. لا يسأل عن الغوغاء، فأعطى مصر التاج والعرض والسفارات والوزارات في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، وكل ما جاء بعده حتى معاهدة ٣٦ كان نموذجاً مكبراً من تصريح ٢٨ فبراير!

قلت «ثروت»، لأن وزراء الخارجية في مصر الذين يعتد بهم التاريخ ستة: عبد الخالق ثروت، واصف غالي، حافظ عفيفي، عبد الحميد بدوي، محمود فوزي، إسماعيل فهمي.

من هنا. . كان محمود فوزي عظيما حين كان مثل هؤلاء، أو حينما كان هؤلاء مثله!

الناثر «محمود فوزي» لا زلت مغتاظا منه، فقد أغاظني وأنا شديد الحب له.. حينما انتزع مني الإعجاب به أكثر.. ذلك يوم خطب في مجلس الأمة المصري، وكان رئيسه أنور السادات، يحمل على شاه إيران ـ الإمبراطور الثاني في الشرق الأوسط بمقياس الفجيعة به أو منه كما هي الفجيعة من إمبراطور إسرائيل!

وقف محمود فوزي، كأنما هو عبر عن أسلوبه الثائر بهذه العبارة المجنحة. . يسمعها أنور السادات:

- «لقد شاه وجه الشاه»!!.

ما انتزعها من كانت قبله، وإنما هو قد انتزعها من كلمة النبي عليه الصلاة والسلام _ رسول الوحدة والتوحيد _ يوم قالها في حنين في وجه هوازن: (شاهت الوجوه). . كأنما محمود فوزي قد شبع من التراث، فأثرى لسانه باللغة، واغتنى وجدانه بالحب، وارتفع عقله بالثقافة.

خسارة.. أن يعيش الرجال يقدمون كل خير لأمتهم، ثم يقتل الرجال في حياتهم عقوقاً لما قدموا من هذا الخير!!.

إن محمود فوزى مات وهو حي، ومن عظمته أن يعيش وهو ميت!.

على حمد اللَّه

ومضت أيام كنت في غيبة عن بلدي. ومضت أيام كنت فيها أعيش في بلدي. . فلم أسمع خبر موت الصديق الذي أعزني بصداقته حينا من دهري في المدينة المنورة.

ولم أسمع الخبر إلا قبل يومين من الصديق السيد ياسين طه. . فحين سمعت الخبر منه عاتبته إذ لم يخبرني . . لأني أعرف مدى صداقة أهل السيد لهذا الفقيد . . ما تقدموا بها إليه أولا . . وإنما هو الذي تقدم بمواقف الشهم كأنه العزوة لهم كما كان العزوة لي . .

هذا الصديق كان شهما ما أبعده عن النذالة.. بذل مالا كثيرا حملته الشهامة عليه.. وبذل عزماً كبيراً دفاعا عن الصديق.. كأنه شيخ القبيلة لا يطيق أن يأكل مع نسائه.. فإذا عز رفيق يتناول الغداء معه أو العشاء.

عزاء.. وكلام عن النقد

قال الشاعر صديقك أحمد فتحي يرحمه الله. وأنت تعرفه . حريف الحرف العربي . وصانع الكلمة المترفة ناطقها بزخرف المهندسين وزركشة المترفين الواثقين من قيمة هذه اللغة الشاعرة . . لغة قومك العربانيين . . القوم السراحين .

قال: إن عندكم الشاعر الوحيد.. وسماك.. وقلت هو الشريف وأنت مهيار؟!.

فقال: لا تحاول. . فلن أجزع من ذلك . . لا يجزعني أن أكون المولى لسيد من هوازن كما كان مهيار المولى لسيد من هاشم.

وقلت له: ولن أكون الحاتمي يتعقب سقطات أحمد بن الحسين المتنبي فأنا بينكما رهين المحبسين يعجبه معجز أحمد ويتغنى بذكرى حبيب. . وترنم بعبث الوليد.

وسكت الفتح أحمد بالموت لا يتكلم عن مجد شاعرنا.. لأتكلم اليوم عن الحزن في قلب شاعرنا. لك العزاء.. ومن بارئك السلوان هو جل جلاله بارئ النسمة.. خالق الموت.. مانح الغفران والسلوان.

كلمة قلتها لا تقدم ولا تؤخر ولكنها تعبر عن المشاركة في الوجدان... جهد البشر لا يستطيع أن يرد مالا يقدر عليه بشر.

كنت أسير وأمشي بجانب أستاذنا أحمد أمين يرحمه الله وهو يطعم اليتامى في المدينة المنورة فسألته: وماذا صنع صديقك الزيات بعد فقده «رجاء» فقال: لقد دمعت له عين وانفطر منه فؤاد.. ورعف قلم وصبر إنسان..

ثم التفت إلى اليتامى يتلو هذه الآية بغنته الجميلة.. أخذ يتلوها وعيناه تدمعان ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَّكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمُ فَلْيَــتَّقُواْ اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (النساء: ٩).

وتركته لأجد في هذه الآية برهان طريق وصراط سلوك. وتذكرت حافظ إبراهيم وأنا أكتب لك. تذكرته يسأل المازني: ما بالنا لا نجيد كما أجاد ابن الرومي في رثاء ابنه؟!. ولا نطيل كما أطال؟! إنا نتحفز لنرثي عظيماً قد جاوز السبعين. فلا نتجاوز السبعين بيتاً. في قصيدة نرثيه بها. وابن الرومي قد جاوز هذا العدد إلى أكثر في رثاء طفل ولده محمد؟

وأجابه المازني إجابة مترفة فارهة: إنك ومن إليك ـ يعني حافظ إبراهيم ـ ترثون رجلا قد حددت أعماله في سنين عدة وانقطعت الآمال فيه فلا مجال للشعر والخيال لأن الواقع قد تحدد وانحصر. أما ابن الرومي فإنه قد انطلق بالحزن على غاليه يرثي آمالا تتجسد في خيال عن الطفل يكون منه كل العطاء. كل الأعمال المجيدة. . فمن هنا اتسع لابن الرومي ما ضاق علينا. . خياله طليق وآماله لا حصر لها. . وخيالنا حبيس.

واقتنع حافظ. . فهل أجد في شاعرنا السرحان ابن الرومي يصوغ آلامه دامعة في حياة لنا تتسع بما نقرأ له؟

ليس في هذا عزاء لك.. ولكنه كسب للفكر العربي كله.. يجبر شاعره أن يبكي ليعلم ويعد ويفتن.

ولك العزاء من أب يعرف قدر الأبناء وحزن الأبناء وحزن الأدباء يا صديقي الباكي!. وشكراناً موفوراً إن صبرت. وإنك لمن الصابرين بعون الله. يرحم غاليك ويرحمنا معه. في الموت ما أعيبا وفي أسبابه كل أمر رهن بطى كتابه.

وعن النقد يتكلم. . أثار الصديق الودود سباعي أحمد عثمان في كلمة لي نشرها في الصفحة الأدبية التي يحررها من جريدة المدينة في عددها الصادر يوم الجمعة الماضي. هذه الكلمة قد نسيتها. . ولا أحمد له أن ذكرنى بها وإن كنت أحمد له أن ذكرنى بخير.

كلام إنشائي. . أرسلته ولا أدري متى كأنما فيه غفلة معلم الصبيان حينذاك. . على حد تعبير الجاحظ.

أما ما أقوله عن النقد فكلام يطابق الواقع الآن.. إن النقد ليس هدهدة ولا دغدغة ولا تدليلا وإنما هو «الدغدغة بفهر تهرس به رأس الواضع قبل الموضوع». فالنقد الموضوعي أو النقد الباني مثل أخلاق الكتب لا ينطبق والمثال الواقع أو حتى المطلوب.

إن النظر إلى ما قيل لا يدفع إلى النقد. . فالقرية لرائحة الشواء أو طريقة «سنوسكين سنو مقص» لا يأتيان إلا إذا عرفنا من قال . . فالنقد لمن قال لا إلى ما قيل .

وليس هذا التفريق من عندي.. وإنما هو قبس من التفريق.. قد جاء على لسان العقاد فهو لا ينظر إلا إلى من قال.. ومن هنا جاءت قسوته حتى بلغت حد الهدم على كل الذين نقدهم.

وصحيح ذلك. . إنك لا تستطيع أن تنال ما قيل إلا إذا نلت من قال. . ولقد عرفها المازني بعد زمن. . كتب مقالا بعد عهدي به إلى أكثر

من الثمانية والعشرين عاماً التي حدد بها السباعي عثمان عمر ذلك المقال.

كتب المازني يتبرأ من النقد ويتوب منه لأنه هدم لا بناء فيه.. نشر ذلك في البلاغ.. وحكى قصة ذلك الروماني في الموتور الذي لم يستطع أن يصنع فنا فذهب إلى المكان المقامة فيه أروع التماثيل يمسك فأسا بيده يحطمها. لا لأنها الأصنام كما حطمها إبراهيم عليه السلام وإنما لأنها عمل بارع لن يستطيع أن يصنع مثله فأحب أن يهدمه. فعرف إبراهيم المازني من هذه القصة أن النقد هدم فتبرأ منه.

والنقد بذلك على ما فيه من سوء يمسك عصا المؤدب. يمنح الواغلين. لا يستحون من الجهل. ثم هم يستملحون التصدي ليقال عنهم، هؤلاء يعرفون.

أنت حر أن تباهي بجهلك وأن تضاهي العالمين. . لكن القبح أن تجلس بين الرجال تناقض المعرفة والعلم بالجهل الذي تتيه به أو تضاهي.

والمباهاة والمعاناة من شأنك أن تلبسهما أثواباً تغطيك. . أما إذا ما وقفت تنزع الأثواب عن غيرك فهذا شيء تدري بعد ماذا يصنع بك . . على الأقل يقهقه الساخرون.

فسوق الكلام

وفي أكثر من مرة نشرت هذا الأثر من علامات الساعة فشو القلم أي تفشي القلم بكثر الكاتبين والمتكلمين والقوالين فلم يعد القلم كلمة على قرطاس فقد انتشر انتشاراً واسعا في هذا العصر أكثر من انتشاره في أي عصر مضى. الصحافة جريدة ومجلة والكتاب والإذاعة والتلفاز والندوات والمحاضرات ووكالات الأنباء وخطباء المنابر ومعارك الساسة والإعلان عن السياسة. كل ذلك يجري على لسان القلم، فالقلم هنا تعبير عن الكلمة وما

يضرنا ونحن في هذا الكيان الكبير أن تنتشر الكلمة إعرابا عن الوعي إعلاناً عن الثقافة تعليما وحواراً ينتصر بكل ذلك الحق ويزهق به الباطل، فلا خير من فشو الكلمة الآن ولا مناص من أن يأخذ القلم حقه من الانتشار ولكن الضير كل الضير والإرهاق كل الإرهاق والضيم كل الضيم أن تهتز الأقلام مشرعة على القراطيس وأن يصول الكلام على المنابر لا تسمع إلا فسوق الكلمة ولم أقل فسوق القلم ذلك أن القلم لم يكن فاسقا وإن كتبوا به الفسوق، أما الكلمة فإذا ما أصبحت فاسقة تعرت من لباس الفضائل إلى التمرغ بأحوال الرذائل. فلقد انتهى الهجاء بين الشاعر والشاعر بين القبيلة والقبيلة. وتمطت أقلام تصول على المنابر وعلى صفحات القراطيس بالهجاء فسوقاً من الكلام كأنما الحياة قد حرمته الحياة وتعامت عنه العيون وتغطرست عليه الشفتان. فأي معنى لأن أسب الماضي وأي معنى لأن أتبذل في الحاضر كأنني أتراقص مع القلم أمام علبة ليل؟.

إن السباب بين قلم وقلم قد يكون فيه التشفي ولكن ليس فيه الشفاء. فالخصومة التي أمرضت بين اثنين ولهذين الاثنين لن تنال العافية بالسباب بل تزيد وتزيد أمراض التشفي حتى يعز الشفاء وليست الخسارة من سباب على شتم وإنما الخسارة هي أن تشير الأصابع إلى المجتمع تقول: لقد تبطروا فتسافهوا ولقد آمنوا من الخوف فتسابوا وقد رحموا من الجزاء فاستمرأوا وأن يصنعوا الهوان لأنفسهم ولمجتمعهم حتى إنهم يمدون ألسنتهم ساخرين يقولون ها نحن نفعل ذلك بلا رادع، فالذين يتسابون على المنابر لم يجدوا من شعوبهم من قال لهم تحلوا بالوقار وتجنبوا أن تضعوا بينكم حرب الفجار والقارئون أو هم الكاتبون على قراطيس أخرى إما أنهم أصبحوا الشامتين أو أنهم أصبحوا الخائفين.

إن فسوق الكلام يزرع الأحقاد، فإذا لم نجد التقويم لإنصاف القيم فإن هذا الداء وقد استنصر يتأتى على الشفاء كاتب يطعن في نسب قبيلة دون أن يرجع إلى كتاب في الأنساب وكاتب لو عاب نفسه بما صنع لما عاب غيره.

قبيح من الإنسان أن ينسى عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختفى ولو كان ذا عقل لما عاب غيره وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

اتقوا فسوق الكلام فإن كانت لهم سوق نافعة اليوم فإنها ستكون الكاسدة غداً.

علم

الثقافة تسخّر العواطف

العلم عقل يحجر على الإنسان أن تتبعثر له عاطفة...

والثقافة فؤاد.. يتسع بكل الحب بالمؤثرات الثقافية، كأنما الثقافة رحابة الوجدان.. تتقبل بكل ما تقرأ كل ما يرفضه تاريخ العلم، أو علم التاريخ، فلا ترضى إلا أن تقتنع بكل ما يرضي، أو بكل ما يغضب.

ولست بهذه المقدمة أضع قانوناً، وإنما أشرح تجربة كانت علي. . أعيش فيها. وكنت بها أحيا حياتي الثقافية.

فحين ثارت الحرب العامة، ولم تكن لدي روافد ثقافية، فكل ما أنا فيه: العلم البسيط بأني عربي، فلم تكن عاطفتي إلا وهي الراغبة تشتعل حماستها، لأن ينتصر العرب، فانعدام الثقافة حرمني أن أقف على الحياد بين دولة الخلافة: العاصم لجماعة الإسلام، وبين ثورة العرب: المحارب من أجل القومية. . الرافض للتتريك.

وحين ثارت الحرب العامة الثانية، وأصبحت أنهل من روافد الثقافة... أعبها عبا، من كل ما يرد إلينا مترجما عن اللغة الفرنسية، أو الإنجليزية، أو الألمانية.. فقد حفل تاريخ ثقافتنا العربية من بداية الخمسينات منه بما

ينشر في «المقتطف» و «الهلال» و «المختار» والصحف اليومية، وبما ترجمه لنا: فتحي زغلول، وعادل زعيتر، وعجاج نويهض، وشكيب أرسلان.. حتى الذين ترجموا لنا روايات الجيب.

كل ذلك جعل لأي مصدر ثقافي مكانة في الوجدان.. فرغم الاستعمار واستغواله واستغلاله.. تحملنا عواطفنا أن نفرق بين فرنسا في الشام، وفرنسا في باريس، وبين إنجلترا في مصر أو بغداد وما إلى ذلك وبينهما في لندن..

هذا التوزيع في مشاعر الوجدان. بغضاء لهم كمستعمرين، إعجاباً بهم كمصدر للثقافة، هو من صنع الثقافة. لا أقول إنها بعثرت العواطف، وإنما أقول إنها سخرتها! فرنسا في الشام: صفقت لسلطان الأطرش حين اعتلى سطح الدبابة الفرنسية. . أتغنى بقول أبي ماضي:

فيالك أطرشالما دعينا لثأركان أسمعنا جميعاً

وحين دكت جيوش هتلر الأرض الفرنسية، وأطفأت النور في باريس بكيت على مدينة النور. أضحك منهزمة في دمشق، وأبكي مهزومة في باريس.. أي تسخير أكثر من هذا؟!

وما كرهت الألمان، ولكني لم أكن نصيرا لهتلر، فرغم وعد بلفور، وزرع اليهود في فلسطين. . جزعت أيما جزع على أن تهزم بريطانيا، فأي تسخير للعاطفة أكثر من هذا؟!.

شماتة حين تهزم وهي المستعمرة _ بكسر الميم _ وإشفاق أن تهزم في أرضها. ذلك صنع الثقافة.

أما العلم، فهو في هذا الحوار بيني وبين شيخ لا أحسبه قرأ كتاباً، أو جريدة كان هتلريا متعصبا. يصفق على صراخ البريطاني من قنابل هتلر، وحين وصل «رومل» إلى العلمين يطل على الإسكندرية ومرسى مطروح، قلت له:

- ـ «افرح يا سيدي . . بكرة يصل للقاهرة»! .
- _ فقال وهو يصرخ: «لا.. لا، مصر فيها الله يحميها»!.
 - _ فقلت له: ألست تريد انتصار هتلر؟!.

- قال: اسمع يا ولد. أنا أريد انتصار هتلر على بريطانيا التي أذلتنا. ينديقهم مر العذاب الذي أذاقوه للشعوب. من أجل فلسطين لا أحزن على تهديم لندن. لعل الأمهات البريطانيات يلدن بعد الهزيمة ساسة يحترمون الشعوب ويحرمون أنفسهم أن ينزحوا ثروات الشعوب، وإلا فأي شأن لي بهتلر ينهزم أو ينتصر؟ عواطفي المبعثرة تتوزع كما ذكرت، وعلمه البسيط حصره في عاطفة واحدة. لا يتبعثر بها عقله، بل إن عقله قيد عاطفته في نطاق قومه وآمال قومه!.

من هنا.. لا أتنكر للثقافة، فاتساع الوجدان على الدنيا كلها علم بها، ولكني أدعو إلى ضوابط: أولها أن يزاوج القارئ بين الثقافة الموروثة ـ أعني التراث ـ والثقافة الوافدة، فثقافة التراث قيد على القاريء يحرمه من رؤية العالم بكل ما فيه، والثقافة الوافدة انطلاقة بالقارئ.. تسخر عواطفه حتى إنها لتبعثرها. فتسخير العاطفة أو بعثرتها هو الباب المفتوح لتقبل كثير من ما يرزح تحته المثقف حتى لا يكون لنفسه إلا بعض الوقت، وحتى يحرم قومه كل الوقت!.

ولست بهذا أجور على الثقافة، وإن جارت علي، فالأمر في ذلك إلى

قول المتنبى:

يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنا وعقول التمايز . . لا التمييز بين الجامعات

قرأت خبرا يقول: لقد صدر الأمر بمساواة جامعة الملك عبد العزيز بجدة بجامعة الرياض. . حين قرأت هذا الخبر لم أهتف له لأني استوحشت منه. فمنطوق الخبر فيه شيء مما يوجب الاحتفال به. وفيه شيء أوجب الوحشة منه.

فالمفهوم أن جامعة الملك عبد العزيز في وضع هو الأقل من جامعة الرياض فألزم ذلك صدور هذا الأمر. كأنما هو التمييز لجامعة على جامعة. وذلك غير صحيح ولا هو المطلوب فيما يلزم به هذا الكيان الكبير وحدة في الأرض والدولة والقصيدة قبل ذلك والإنسان بكل ذلك. ومن أجل ذلك. ولا أحسبني أقرر غير الواقع والمؤكد. ذلك أن الدولة _ كل الدولة _ في هذه المملكة العربية السعودية من أعلى مستوى. . الملك. ولي العهد. مجلس الوزراء. وزير التعليم العالي. ليس عندهم ذرة من هذا التمسن.

وكل ما هو مطلوب لهم وللجامعات ومنه. وللشعب كله. هو التمايز والتسابق لا التمييز لا التفريق وكل ما أعرفه أن واقع الجامعة _ أيّ جامعة في أرضنا _ هو الذي يحدد ما هو مطلوب لها. ما هو مطلوب بها. ما هو مطلوب منها. فقد يكون فرع في جامعة الرياض على مسمى واحد مع فرع بجامعة الملك عبد العزيز. . غير أن التوسع في هذا الفرع في إحدى الجامعتين يعطيه من مطلبه الكثير. فعدد الطلاب وعدد الفصول وقيمة السنوات والظروف الطارئة والآمال المتوقعة في أي جامعة هو امتياز حققته.

استأهلت به.. أن تعطي أكثر من جامعة واقعها من هذا كله لا يسأل الدولة أن تعطيه مثلما أعطت الجامعات تلك. فمثلا. جامعة البترول قد تعطي الكثير كمطلب لما هو واقع من التوسع وما إلى ذلك.

ولن يكون هذا تمييزا لها كجامعة سعودية على جامعة الملك فيصل مثلا. وقد تطلب جامعة الملك فيصل في ناحية أو إلى فرع أكثر مما تطلبه جامعة أخرى. فالتمييز ما كان ولن يكون. والتمايز هو المطلوب. كل على قدر ما يحتاج. كل بالقدر الذي يمتاز به.

من هنا أدعو إلى نبذ ورفض أي خبر تُشتمُ منه رائحة التفريق والتمييز. فهل كان افتتاح تحضير البعثات والمعهد العلمي والمدارس الأخرى في الحجاز تمييزاً له عن بقية السراة وكل نجد. وكل الخليج؟!.

لا. ثم لا. فلم يكن ذلك تمييزا وإنما هي الظروف والواقع. وحين تأسست وزارة المعارف ـ وقد كان وزيرها سمو ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز ـ ثم له وبه نشر التعليم وتأسيس المدارس في كل بقعة سواء على تاريخ السراة أو في مدن وقرى اليمامة والقصيم والإحساء. فحين افتتحت مدرسة في حائل. فتحت مدرسة في محائل. وفتحت مدرسة في ظهران الخليج. ففتحت مدرسة في ظهران الجنوب. وحين فتحت مدرسة في في الليث فتحت المدرسة في العقيل وتثليث. وحين فتحت مدرسة في وادي الرمة فتحت مدرسة في مرج فتحت المدرسة في وادي الحمض. وحين فتحت مدرسة في مرج فتحت المدرسة في وادي بيش.

هكذا توحد العلم. وهكذا انتشر بلا تمييز وإنما هو التمايز. ولعلّي في هذا أدعو إلى طرد التربص والاقتناص لخلفيات الأخبار.

طـــب

التطبيب في البادية أو النار والعطار

- العربي المسلم هو صانع تاريخ الإنسانية الجديد بالحضارة الأصيلة للإسلام:

كم خطر على بالي أن أكتب بحثا مطولا أو حديثا مطولا أو مقالة عن التطبيب عندنا نحن في البادية في السنوات الماضية الكثيرة، يوم تركنا هكذا إلى صحرائنا، إلى باديتنا، إلى مدننا التي كانت أشبه ما تكون بالقرى منقطعة عن بعضها، فلولا صلة الحج لانقطعت صلتنا بالعالم كله، هكذا أفصح التاريخ على دعوة الإسلام من اللحظة الأولى على حراء، واحتفل التاريخ بالفتح المبين والفتح العظيم بصنع العربي المسلم حينما توحد تحت كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة فصنع التاريخ كله، ليس للعربي الزاحف للهداية، وليس للمسلم الذي واكب الزحف، وليس للعالم المسلم من كل أرض مسلمة، وإنما هو صانع تاريخ الإنسانية الجديد بالحضارة الأصيلة لهذا الدين الحنيف.

الإنسان في حاجة إلى النار

- فالإنسان في حاجة إلى النار لم يعرفها إلا بعد أن رآها، والنار لا أستطيع أن أقرر أن مكتشفها واحد لأن الإنسان كحيوان كان يسير في حياته

البدائية بالتهدي عرف الكثير بالتهدي، عرف الطعام القاتل والطعام الصالح، عرف حبة القمح، عرف الفاكهة، فهو ابن الغابة وابن الغيث وابن النهر، فالنهر والغابة والغيث كلها كانت معلمة له تنبت له الزرع، يشخب الضرع فاقتنى الحيوان واعتنى بأن يتكتل في قرية وأن يتجمع في قبيلة وأن يصير إلى أمة وهكذا التهدي علمه الكثير فلماذا لا نقول إن صاعقة أحرقت شجرة فشبت النار فعرفها، لربما احترقت غابة، لربما ارتطم حجران نبع منهما شرار فعرف النار، فالنار لعلها معرفة الإنسان كله في كثير من أماكنه من قارات، حين عرف النار بدأ بعد معرفة ما يأكل أصبح يعرف النور على أشكال شتى ما أضعفها، ما أقلها.

قناديل الزيت كانت لمبات كشافة

كانت قناديل الزيت لمبات كشافة أشياء ضعيفة حتى جاءت الكهرباء، من هذا كله خطر لي أن أجعل التهدي بالنسبة للتطبيب، وأجعل التجربة عندما أكتب بحثا عن ذلك لعلّ بعض الباحثين في الجامعات يعنى به فيعطينا نظرية هذه العمليات التي قامت بالتجربة، ولقد قالوا إن هناك من تطورات المدنية فيما قرأنا من قديم ثلاثة اكتشافات، وأنا لا أقول اختراعات، فلا خلق ولا اختراع ولا إبداع إلا الله وإنما هي اكتشافات كما تعلمنا من المفكر الجزائري «مالك بن نبي» حينما قال إن كل ما يسمونه اختراعا وهكذا إنما هو معالجة الطبيعة بقانونه، يعرف الإنسان قانون ذلك الشيء كالبخار مثلا قانون الحركة وهو يسبب الحركة فإذا هو تضخم في الحركة سارت القطارات وغيرها، أريد أن أصنع التهدي كهداية لشرح نظرية هذه العمليات التي قامت بالتجربة لهذا سميت موضوعي أو أعلنته «النار والعطار» فالطب كان عندنا ناراً وعطارا، آخر الدواء الكي ـ الشفاء في ملعقة من عسل فيه شفاء للناس كنص القرآن.

الإنسان والوصول إلى هدفين

_ وهكذا الإنسان وصل بالتهدي إلى هدفين أريد أن أذكر طرفة ذلك أن الأمريكان بقيادة ماك آرثر عندما كانوا يحاربون اليابان لينقذوا الشرق الذي يتكوّن من سنغافورة وماليزيا وإندونيسيا والفلبين وما إليها فقد استولت اليابان على تلك البلاد في جزائر سليمان في المحيط الهادي فرقة من الجيش الأمريكي أكل بعض الجنود كثيرا من الأعشاب فأوجعتهم أو سممتهم فأبرقوا إلى البنتاجون _ وزارة الحرب _ ووزارة الحرب ليست جنرالات فقط وإنما علماء ومهندسون وهكذا، إمبراطورية واسعة لا بد أن يكون فيها كل شيء لأي شيء، سألوا لقد أكلنا بعض الأعشاب فأصبنا بأوجاع أو بتسمم أو هكذا فكان الجواب مضحكاً وعمليا في الوقت نفسه، قالوا لفرقة الجيش الموجودة في جزائر سليمان «كلوا مما تأكله الحمير» ليس لديهم علم أو وقت يبين أي نوع من الأعشاب يأكلون ولم يعطوا فرقتهم الهداية ولكنهم أعطوها التهدي، التهدي عندما يقلدون الحمير والحيوانات، كلوا مما تأكله الحمير، ذلك أن من شأن الحيوانات كالأغنام والخرفان والأبقار والحمير أو غيرها عندما يطرح لها أي طعام أو أي عشب أو أي علف تشمه أولا وترفض ما تخافه أو تحذره وتأكل الصالح.

قانون ابن سينا وتذكرة داوود

- بهذا التهدي وصل الإنسان إلى كثير من أعمدة المدنية والحضارة، وهكذا كنا في جيلنا والجيل الذي قبله وإلى ألف سنة وأكثر، لا أعتقد أنه قد وصل إلى جزيرتنا قانون ابن سينا أو تذكرة داوود الأنطاكي أو أخبار الرازي أو أخبار ابن النفيس من هؤلاء العلماء الذين امتلأت بهم الدولة العباسية وبلاد فارس والشام ومصر وغيرها.

الكي بالنار

فالكي بالنار والسفوف من العطار عملية حققت التجربة في الانتفاع بها والتطبيب بها والعافية والشفاء.

أريد نظرية علمية

فأنا أريد أن أشرح هذه العمليات للباحث في الجامعة لعلَّه يضع نظرية لها ويضع أسباباً لنجاح الكي في المكان الفلاني للداء الفلاني للمرض الفلاني، أطمعني في ذلك ثلاث خطوات خطوة في جامعة الرياض بكلية الطب فتحدثت عن النار وعن بعض الأمراض والأدوية، لعلّ بعضهم انتفع ولعلُّ بعضهم رفض، وأطمعني بعد ذلك الابن الصديق الدكتور البروفيسور عبد الله باسلامة، فقد دعاني وأخذ منى نوتة كبيرة جدا، قائمة بما أتحدث عنه حول النار والعطار والكي والسفوف والأدوية، وأطمعني أكثر من ذلك الدكتور فؤاد زهران فقد سمعته في الإذاعة يتحدث حيث قال إنه ينبغي للجامعة أن تتفرغ للأبحاث فالأبحاث عالميا في تقدم كبير جداً، كل يوم اكتشاف، كل يوم تحسين، كل يوم تطور، فالذي يقرأ المجلات الطبية أو المجلات العلمية يجد زحمة شديدة جداً من هذه الاكتشافات وهذا الإبداع، فالعلم في تقدم كأنما هم في سباق مع الحياة، أو كأنما هم يريدون إنقاذ الأحياء من كل ما يعوقهم أو يمرضهم، فجامعة الملك عبد العزيز ممثلة في الدكتور عبد الله باسلامة والدكتور فؤاد زهران أطمعوني أن أتحدث عن النار و العطار .

ثلاثة اكتشافات كبيرة

كما قلت إن هناك ثلاثة اكتشافات كبيرة قرأت عنها قديما هي اللاسلكي أو التلغراف والنسبية والكهرباء، فقد قرأت مقارنة لعلّ ما قالوه الآن قد تغير

لهذا التطور ولعلّه حدث أكثر مما أقول أو انقلبت الآية في بعض ما قالوا، ولكني أذكر أن ماركوني أسس نظريته في اللاسلكي أو التلغراف وأن نظريته ذات قوانين أسس عليها اكتشافه أي إن هناك نظرية تحققت بها علميا، أما النسبية وهي نظرية إينشتاين فهي نظرية لا تزال قائمة على الأوراق في الدفاتر وليست هناك نظرية بارزة لها سوى بعض التبريرات حتى إنهم قالوا إنه لولا نظرية إينشتاين لما كان انشطار الذرة والقنبلة النووية وما إلى ذلك.. ومع هذا كله فليس هناك عملية قائمة بذاتها أبرزت نظرية النسبية.

الكهرباء لا قانون لها!

الكهرباء قالوا إنها عملية بلا نظرية، يعني ليس هناك قانون لها، ومعنى ذلك أنه لو قامت حرب مدمرة وقضت على كل معلم من معالم الحضارة لأمكن وجود النظرية في كهف من الكهوف أو تحت حجر من الأحجار فيمكن على أساسها أن يبرز التلغراف واللاسلكي مرة ثانية.

ونظرية النسبية ليست هناك عملية تمثلها، فلو ذهبت النظرية لانتهت النظرية. ولكن قد توجد في دفتر من الدفاتر في أي مكان.

ومصابيح كهرباء أديسون

أما الكهرباء خصوصا المصباح الذي صنعه أديسون لو زال ودمر ولم يجد الإنسان الآتي بعد نوعاً من المصابيح يصنع مثلها لما وجد نظرية تقوم عليها صناعة المصباح. لعل هناك نظرية تحققت للمصباح وهناك عملية تحققت للنسبية فأنا أريد أن هذه العمليات: الكي بالنار والسفوف من العطار أرجو أن تتحقق لها نظرية ثم هي معالم حضارية قامت عليه جماعة في هذه الجزيرة أو كل الجزيرة بدون تحضير أو روافد من الخارج قد يكون التلقي من شامي عرف الكي لهذا الداء أو مصري عرف الكي لهذا الداء أو عراقي

أو حجازي أو نجدي أو كذا فكما يتناقل الخبر بالرواية يمكن التطبيب بالكي والنار يتناقل من الناس.

التضخم في الطحال

أذكر مثلا أنني كنت أعاني من تضخم في الطحال وتعب والدي في علاجي ولا يعرف له كيا أو سفوفا ولا شيء فإذا برجل أسود لعله كان من الموالي وكان أردنياً جاء فاشتهر بأنه يعالج الطحال. عالجني فعلا.

قطع الوريد بين الخنصر والرسغ

هل تعرفون كيف عالجني، في نهاية الخنصر المرتبط بالرسغ هناك عرق قطعه، لعلّه الوريد، قطع الوريد ووضع يدي في ماء دافئ. أصبح الدم يخرج في هذا الماء الدافئ لمدة ليست قصيرة، وحماني على الشريك أو الفطير في الجمر مع الزيتون فإذا أنا قد انتهى مني تضخم الطحال وكأنما الطحال قد أفرغ دمه من هذا الوريد.

أنور المفتي يعجب

عجب من ذلك الدكتور أنور المفتي عندما زرته في عيادته للكشف الطبي علي وشرحت له الوضع كله من الإصابة بتضخم الطحال وأريته ولا تزال هذه العلامة في يدي فاتني أن أصورها لعلّي أصورها الآن مع الصور التي أدفعها مع هذا الحديث لتعرفوا هذا الوريد ومكانه فلا يزال أثر قطع الوريد في إصبعي هذا كما رآه الابن أيمن حبيب أريته للابن أيمن الذي تلقى التسجيل مني فهو واضح ولكني لعلّي آتي بصورة، لأتحدث عن الوسائل مثلا.

علاج الفتاق بالكي

الفتاق. . معروف بأنه تمزق يصيب الأطفال ويصيب الرجال، من الغريب أنه يعالج بالكي.

كان والدي يرحمه الله يأتيه المصاب بالفتاق وهم كثر كثر بالمئات في أكثر من خمسين سنة أو ستين سنة أنا عاصرت منها أكثر من عشرين أو ثلاثين سنة. . يأتيه الناس وكان يضع المسمار في النار فإذا احمر كواه بين خنصر القدم وفي الحفرة التي تنتهي بين الخنصر والبنصر في القدم كوية بسيطة، وكوية ثانية يرتفع الفتاق.

ليسوا فقط من عامة الناس

- ليس هم من العوام أو البادية بل الكثير من المتحضرين ومن كبار السن أنا شاهدتهم، وأذكر قصة.. جاء الدكتور معاذ رئيس البعثة المصرية إلى التكية المصرية وكان ناظرها إسماعيل لطفي شاباً متحضرا أصيب بالفتاق فبواسطة السيد محمد صفوت أخذه إلى أبي وكواه فارتفع فقص القصة على الدكتور معاذ.. أنكرها فأراه الكي وأراه وكشف عليه وقال نعم كان هنا فتاق فارتفع الفتاق.

عملية تشافى منها المئات والمئات

- لماذا الكي يكون في هذا المكان بين خنصر القدم والبنصر في تلك الحفرة التي بين الأصبعين؟. عملية تمت تشافى منها مئات ومئات وأنا فعلا قد عالجت خمسة أشخاص مصابين بالفتاق قبل سنوات أكويهم في نفس المكان وقد عافاهم الله. . هذه العملية أريد أن تبحث. . يكشف على المكان الذي كواه . . ولو جربها بعض الأطباء ليعللوا لنا هذه النظرية ويعطونا نظرية لهذه العملية .

وعلاج اليرقان بالكي

هناك اليرقان ـ الصفراء ـ رأيت مئات الأشخاص يأتون وجوههم كالهرد. كالكركم أصفر اللون، العيون صفراء. . الطبيب يعرف الصفاري والناس يعرفون الصفاري واليرقان. قد رأيت مئات من الناس يتشافون بالكي، والكي أيضاً في نهاية الإبهام ـ الأصبع الكبير في اليد ـ في الحفرة والتي يسميها البعض حفرة النشوق.

اليد الأخرى في النشوق

أغرز يدك الثانية في الحفرة كالصورة الموجودة الآن. لعلّي أضع عليها رقم ٢ كوية بسيطة بالمسمار وكوية أخرى يتشافى المريض باليرقان مئات من الناس شيبان أنا قد تعاملت قبل سنوات قبل أن تكثر عندنا المستشفيات والأطباء العارفون. كويت ١٦ شخصا شفاهم الله. يعني الشفاء مائة في المائة. منهم رجل بلغ فوق السبعين وهو أخونا وصديقنا يونس بن حمد. لقيته مرة في سوق حراج مكة عند السبع أبيار وهالني الاصفرار عليه. قلت له يا عم يونس تعالى لي بكرة الصبح على الريق أكويك. فجاء العم يونس. فحميت المسمار على النار وكويته باليد. فضفاه الله. ١٦ شخصا أكثرهم حي إلى الآن. هذا بالنسبة للكي بالنار.

الكي لعلاج ذات الرئة

نأتي إلى ذات الرئة. لو كشفت لكم عن جسمي لوجدتم فيه أكثر من ثلاثين أو أربعين كية . لأني أصبت بذات الرئة مرتين . مرة وأنا طفل لا أكاد أعرف طريقي بل لم أر إلا صفحة وجه أمي . ماتت ولا أعرف وجهها ولا شكلها . لقد جاء الذي يكوي وكان مشهوراً . رجلا عظيماً اسمه جزى الظاهرى ، من الظواهر . والظواهر مراوحة من ربع بن نحيت

في نجد وفي الحجاز.. كواني فلم يمض أسبوع إلا وشفاني الله، وأصبت وأنا عمري دون الثلاثين في ذات الرئة أيضا في الخامس من شهر رمضان.. لم أخرج ولم أنزل للفطور.. طلع إلى المجلس والدي يسأل عنى.

هي بنت الكلب

_ قال افتح فمك . . فتحت فمي . . وجد زراقا بين الثنايا في لحمية اللثة . . فقال هي «بنت الكلب» يتكلم بلهجته الصعيدية لأن والدي من صعيد مصر . . هرع إلى سلامة الريفي «وجزي الظاهري» مات يرحمه الله . . بقي سلامة الريفي كواني ست أو سبع كويات كان فيها الشفاء .

من الغريب أنه يخطط لهذا الكي في مواقع معينة عنده.. أحب للباحث الطبي أن يعرف أنه لا يزال هناك من يمارس الكي على ذات الجم كولد سلامة الريفي أو غيره في البادية.. أحب أن يعرف الأطباء الأماكن التي يحصر فيها الالتهاب الرئوي.

شربت مرق الديك فأصبت بنكسة

- كما قالوا مرضت في الخامس من رمضان ولعلّي كدت أتماثل للشفاء فجاءت أختي الكبيرة بديك سمين. تبغي لي العافية. سلقته لي وشربت المرق. أصبت بنكسة المصاب بذات الرئة يمنع عن الدهن وعن السمن وعن اللحم وعن كل شيء. لا يأكل إلا فطيرا على الجمر وعسلا. فهي أعطتني المرق طبعا أنا مللت العسل والفطير وكنت شرها ساعتها. شربت المرق فانتكست وأصابتني إغماءة وكان على رأسي أستاذنا السيد ماجد عشقى وصديقنا على حمد الله يرحمهما الله وأقبل صديق نحبه وهو يعرف

السيد ماجد مقدار ما أحب هذا الشخص فقال فلان فلان.. فصحوت من الإغماءة وأنا أشعر بوخزة بجانبي الأيسر.. كان أبي ينتظر خبر موتي.. ولا أنسى أن جاء الدكتور سعيد مصطفى والدكتور الخاشقجي فأعلنوا اليأس من شفائي، أرسلوا لأبي طلع رأني صاحياً فهش وبش.. قلت وخزة بجانبي الأيسر أحضر الكانون في الحال لأن سلامة الريفي مشغول بالحصاد ولا يأتي إلا إذا أدى مهمته الأولى.. وتناول المهمة والدي، وهو يعرف الكي على الفتاق وعن اليرقان وغيرها سواء كان تعلمه من صعيد مصر أو تعلمه من البادية هنا لأنه كان عشراؤه وأصدقاؤه غالبيتهم من البادية كانوا من حرب أو جهينة أو مطير.. فالمدينة ترتادها هذه القبائل.. شب النار.. احمر المسمار.. وضع الرماد يعلم مكان الوخزة التي أشرت إليها فكواني ولم أشعر بصوت لأن كل كوية يكوي بها المصاب بذات الرئة تشعر بطق وأما أصبت النار. لا تقولوا هذا تخريف.. إنه واقع.. قلت له ما أصبت فأعاد المسمار مرة أخرى.

سمعت «طق» فقال قم سالم

حدد الموضع.. كواني فإذا بي أسمع «طق» سمعته قال «قم سالم» في ٥ رمضان مرضت وفي ١٩ رمضان خرجت إلى المدرسة وكنت أستاذا فيها، بالجنبين بالتهابين.. كويت أكثر من كوية.. رأى الأخ أيمن الكوي.. هذا هو في الزند في الرقبة هنا في الذراع لو كشفت لوجدت كمية كبيرة من الكوي ولكن العاقبة مطلوبة ولا بأس بالنار.

الحطابي الذي كوى الحجيلي

- أرجو من الباحث في كلية الطب أن يسأل من يتعاطى هذا الكي...

مرض صديقنا الأستاذ محمد سالم الحجيلي الذي كان مدير المالية بالمدينة ورئيساً لمؤسسة النقد شفاه الله وأمد في عمره مرض مرضا خطيرا جداً زرناه وزاره الدكتور مصطفى والدكتور محمد الخاشقجي فخرجا من عنده يائسين وركبني اليأس وبعد أن خرجنا وعلى وجه الفجر هبط من جماعته الحجلة حطابة ينزلون عندهم فأحد الشيبان من هؤلاء الحطابة رأى محمد سالم الحجيلي وقال هي «ملعونة الوالدين» كواه كيتين في الرأس فإذا محمد سالم الحجيلي الذي قرر الأطباء موته يعيش إلى الآن بكيتين في الرأس، أنا أصبت بهذه الحمى فكواني والدى هكذا.

الذين ماتوا والذين عاشوا

في أبها انتشر التيفود.. فكل الذين طببوا بالطب الحديث من الأطباء الموجودين هناك ماتوا.. عمر مهدي، حسن طه.. ماتوا ولكن الأستاذ عبد المالك الطرابلسي وغيره الذين طببوا بطب البادية.. بشربة العسل والسمن وكووه، أحياء إلى الآن.. الأطباء عندنا الآن يمنعون أي طعام لمرضى التيفود.. صحيح أن حمى التيفود الآن أصبحت لا شيء بالمضادات الحيوية.. من مركبات المايسين.. وما إليها طببوا بالكي.. في أبها يطببون بالكي.. لو ذهب دكتور إلى أبها وسأل هل مات أحد الذين يتعاطون الكي، لعرف ولهدانا بنظرية عن الأسباب التي سببت ذلك.. أصبت الكي، لعرف ولهدانا بنظرية عن الأسباب التي سببت ذلك.. أصبت بناشفة، وغيرها.. يعني لصقات يضعونها ويطببون بها.. يستوي الداحوس وينفقع ينزل القيح لكن بقي الأصبع كأنه ميت.. فوالدي يرحمه الله كواني على ظاهر يدي وأنا صغير عمري ١٢ سنة في اليمنى بعد ذلك وأنا كبير في اليسرى.. وانتهى بالشفاء.. ما السبب؟ أنا مستعد عندما يتفرغ أستاذ

للبحث أن أعرض جسمي للكشف. . أريه مكان الكي . . إذا لم يقتنع بالصور المنشورة أريه مكان الكي في اليرقان ومكان الكي للفتاق ومكان الكي للحمى وما كانوا يعرفون أن يفرقوا بين التيفوس والتيفود والملاريا والصفراء وغيرها. . أي حرارة أو سخونة يقولون حمى . . يعالجونها بالكي . . غريب جداً أن تتنوع الحميات لكن كيف تتشافى بالكي في الدماغ . . هذا يحتاج إلى البحث .

صبغة ريح لشفاء مرض العين

شخص من الشبان كان يسبح في البركة كثيرا.. وكانت صفعة من الهواء أصابته بنقطة بيضاء في عينه.. جن أبوه.. لا يوجد أطباء عيون.. كنا نعيش في عدم.. لكنه راح للعطار جد حمزة أطلني يرحمه الله.. أعطاه صبغة ريح.. قال له حط على نقرة العين وصله وبخر له بصبغة الريح.. أقسم إنه بعد ثلاثة أيام زالت الغشاوة البيضاء التي على عينه.

الفلفل الأسود. الطبيب الأبكم. الكمون، النانخ. اليانسون، زيت حبة البركة. كان واحد قال أنا بردان قلت له اشرب شربة عدس تدفيك وإلا أنا أعطيك قطرتين على الماء من زيت حبة البركة وتشوف كيف تسخنك. زيت حبة البركة من أحسن الزيوت لدهان ألم الروماتيزم. للتدفئة. ولهذا اعتدت وأنا أذهب إلى أوروبا في الشتاء في البرد أن آخذ معي قارورة زيت حبة البركة. الحبة السودة أدهن بيها. أنام دفيان لا أسأل على البرد وما يسبه.

الشربة النبوي ما هي؟

لو دعونا طبيبا يصل إلى الشلبي العطار أو إلى أي عطار من القدامى في مكة سله عن الشربة النبوي.. عن النشرة.. عن اللبان الذكر كيف ينفع

للكحة.. عن البندق لازم يدقق قشره ويسخن في الحليب.. القشر يترسب واللباب يصعد فوق الحليب كأنما القشر أثقل من اللباب.. يشرب الإنسان البندق بالحليب يتطهر الحلق من الكحة.

تذكرة داوود وعلاج الكحة

لعلاج الكحة هناك تذكرة داوود ما قرأتها مع الأسف وإنما كان يقرأها أستاذنا ماجد عشقي.. أخبرنا تعرفون أن المجروح كالمصاب بحجر أو المصاب بسكين نبع منه الدم _ يعطبونه بعطبة.. يعني يطهرونه بعطبة.. خرقة يحطونها في النار.. إذا كان مفقوشاً يكبسون له كبسة بن.. لكن أحسن من هذا كله «بيت العنكبوت» يسميه كما أخبرني أستاذنا ماجد عشقي.. داوود الأنطاكي برغ الساعة.. جربناه فعلا.. بوضع بيت العنكبوت على الإصبع المجروح ثاني يوم ينضب الجرح كأننا أعطيناه دواء ذا مفعول كبير.

أريد من الطبيب أن يتحقق من بيت العنكبوت. يحلله لعلّه بنسلين، لعلّه أقوى من البنسلين، لعلّه من مركبات السلفا، لعلّه من مركبات الميوسين وهو أقرب ما يكون إلى البنسلين أو إلى الميوسين أقرب من السلفا.

معالجة الجرب بالزرنيخ

الكبريت والزرنيخ عرفه الناس يعالجون به الجرب.. يعالجون به جراحاً كثيرة.. لا أريد أن أنسى إلى الآن بعض الذين يصابون بكسر في أرجلهم أو ذراعهم لا يؤمنون بالأطباء وإنما يذهبون إلى المجبر البدوي.. كيف يجبر.. كيف يفعل.. كيف يعرف؟.

يمكن معرفة كيف يعالجون الأمراض

ـ ممكن وصفهم وعرضهم على الطبيب هؤلاء المتطببون لكي يعرف كيف يعالجون. . يدرس هذه الحالات. . فيه ظاهرة لهذا التجبير كان يفعلها الدكتور أمين رويحة وهو طبيب ممتاز سوري تخرج من ألمانيا كان يجبر الكسور ليس بالأخشاب وإنما بشرائح القماش. . يسخن المستكة . . ويدهنها فيها ويضعها على الكسور.. كذا عرف أهل مكة وبعض إخواننا أنه أكثر من مكسور رجل أو ذراع طببوا بطيبان ليست من الخشب وإنما بشرائح من القماش معبأة عليها المستكة . . السخنات كلها ما كانت موجودة عندنا . . مرة أصبت ببنت الآذان «التهاب اللوز» أصيب بها السيد أبو الهدى رفاعي فتوفى . . لعلُّها كانت دفتريا أو غيرها . . لكنهم قالوا «بنت الأذان» أصيب بها ياسين الرواق وانتشرت في المدينة «معاون أمير المدينة» أبرقوا للأمير فيصل يرحمهم الله جميعاً.. أرسلوا له سيارة.. جابوه في جدة وفي مكة اتعالج. . أنا أصبت بهذا انسد حلقى . . ما أقدر لا أبلع ماء ولا أكل . . رحت للطبيب. . الدكتور محمد على الطرابلسي رحمة الله عليه دهنني بشوية صبغة يود.. ما سوى شيء وأنا واقف كده وما سوى شيء.. جن والدي هو ما يعرف يكوي هذه الأشياء فإذا به يفطن إلى عجوز.. «أم سحلى» امرأة قصيرة جاءت. قالت عندكم نخالة. قلنا لا . قالت عندكم لبه. . قلنا لها عيش ناشف . . . دقته وسخنته في النار وحطت شوية رماد وفلفل أسود فيه. . . لخبطته . . . حطته على خرقة وعملت لبخة على حلقى. . فما كادت تبرد اللبخة إلا انفك حلقى كأن اللوزتين خرج منها دم وفقت في الحال... بلعتني بيضة مسلوقة وإلى الآن زال الألم... لبخة يعنى انتيفرجستين بدوي. .

منديل في ماء ساخن على ثدي امرأة

الدكتور سعيد مصطفى مرة مرضت إحدى النساء بالتهاب في الثدى... لا زال يضع عليه ثلجا يبرده . . فليس هناك ثلج في المدينة . . ما كان فيه ثلج ولا ماكينة ثلج ولا شيء.. شراب بارد يطبب فجاب منديل أو منشفة خفيفة من الشاش غطسها في ماء ساخنة فايرة . . حركها قليلا . . حطها على الثدى. . طبعاً سخونة شديدة جدا إذا عرضها للهواء أصبحت كالثلج على طريقة الشراب والدوارق في المدينة تكون حارة لكن متى ما هب عليها الهواء تبرد. . أتحدى أي إنسان الآن أن يروح في العراء ويتروش . . إذا ما مات من النفاضة تعيب عليه. . في المدينة هكذا الدوارق والمشارب تبرد بهفة السموم عليها. . هذا الدكتور سخن الخرقة ووضعها على الثدى كأنما وضع عليها ثلج. . ومريض آخر لا أريد أن أسميه أصيب بإسهال يقول صديقنا السيد ياسين إسهال متدارك حاول أن يعالجه بكثير من السفوف والعلاجات الأخرى.. ما أفاده.. لكن لعلُّه قرأ في تذكرة داوود أو في قانون ابن سينا أو في أحد كتب الطب لأنه كان رجل يعلم نفسه، متصل بالقراءة بالمجلات وبالكتب القديمة. . تعرفون ماذا صنع ليتشافي هذا الرجل من الإسهال المستديم. . جاب حنة بلها بالماء لمدة ساعتين. . ثلاثة . . صار يعطيه حقنة شرجية بماء الحنة . . وانتهى الإسهال .

التعامل مع الحنة والحرمل

- أريد من الطبيب أن يتعامل مع الحنة ويشوف نتائجها.. كما أريد منه أن يتعامل مع الحرمل.. أنا أعرف شخص تسمم.. جماعة من الأشقياء بلعوه من معجون أفيون أو حشيش تسمم.. كاد يقضي عليه.. شخص من الأشخاص قطع كم قطعة من الحرمل وفوره على النار سقاه لهذا

المتسمم.. دقائق وأسهل وإذا هو بعد نصف ساعة زي الحصان.. تعاملوا مع الحرمل.

كما تعامل الدكتور قناوي مع بذر الخلة وأعطاكم الخلين كما تعامل أطباء مع الملح وكان الكثير ممن أصيبوا بضربة شمس يدهنونهم بالملح ويحطون في أذنهم ملح يغسلون رأسهم بالملح. . كان كثير من المصابين بضربة الشمس والأشياء هذه كلهم يتشافون لما يحطون في أذنهم ملحاً ويصكون لهم رأسهم بالمفتاح . . هذه عملية قد تكون نفسية لكن الملح هو المؤثر .

إبر الملح في الصيدليات

الآن أنتم عندكم في الصيدليات إبر ملح.

تعاملوا مع الحرمل ومع العشب. مع الشيح. كانوا يعرفوا واحد مجروح ما يتعافى جرحه. يقولوا والله لحمه حلو. ما كانوا يعرفوا مرض السكر. يعرفوا أن لحمه حلو. كانوا يسقوه الشيح. الشيح موجود في الهدى مقطر. قليل من الشيح يضعوه في الماء يشربها. سمعت أنهم في الشام قد صنعوا الشيح إبرا أو علاجا للسكر ولا أريد أن أؤكد هذا الخبر. الثوم تعاملوا معه أيضا لتقشيع البلغم فخصائصه كثيرة. عبد الوهاب القنواتي الصيدلي الكبير في دمشق كتب عن هذا في المجلة وكتب عن خصائص التوم شيئاً كثيرا. ممكن طلب هذه المجلة ليدرسها بعض الأطباء للمحث.

الطب الهندي تعلمنا منه الكرات. . أي أكلة بيض دايما ندخل فيها الكرات. . المطبق لازم معاه كرات البيض المطجن يطجنوه بالكرات. . لماذا الكرات. . يظهر أن البيض قال فيه ثقل عسير الهضم. . الكرات يعمل

تخفيف.. النفساء يأكلون ليجفف الرحم.. إذا تعاملوا مع الكرات وعرفوا ما فيه من الأشياء فقد تعامل العلماء في الغرب وغير الغرب مع العطار.. فقطرة العين لما تسأل العطار ما تقدر تقول له قطرة زنك تقول له توتياء زرقاء أو توتياء بيضاء.. يعني قطرة الزنك.. صحيح الأول كان يكبسوها بالمرة تبقى محرقة كثيرا، الغرب الآن أخذ التوتيا من علمكم القديم وقطرها بالماء المقطر ١٠٪ أو ١٥٪ فقطرة الزنك هي التوتياء البيضاء والزرقاء.

الرمل في العين ثم الكحل

تسأل العطار الأول عن العين كانوا يقولون العين فيها رمل يحكونها إما بالجنزارة أو بحجر جهنم. ايش الجنزارة. . أنتم تعرفونها الآن إنها سلفات النحاس. . فيها قطرات موجودة سلفات النحاس وإن أغرقتها قطرات السلفا الآن والكبريتية الآن. . حجر جهنم يجيبوا وصلة كقدر الإصبع وتعقد العجوز تحك عن الولد علشان تندر له الرمل من عينيه. . متعب. مكرب. . مبكي . . الطب الحديث خفض حجر جهنم سواه ١٠٪ و ٤٪ أو ٥٪ وهو نترات الفضة .

إذاً الجنزارة سلفات النحاس وحجر جهنم نترات الفضة والتوتياء زنك. وفي الحديث تراب أرضنا به شفاء. ريق بعضنا شفاء لمريضنا. لا تنكروا ذلك أنتم على قمة العلاج الذي قضى على السعال الديكي وقضى على التيفود من عفن الخبز ففيه أشياء كثيرة عندنا أنا أسجلها الآن لتكون دليل بحث عمليات أريد أن تقوم عليها نظريات. ما في تعب أن تبحثوا وتخرجوا للناس شيئاً من علم. . كما قلت إن الدكتور قناوي أتعب نفسه وأعطاكم من بذر الخلة الخلين. . أما السنة مكّي كشربة لماذا لا تبحثونها. . الحنظل لما يحطوها في النار ويدعسها الإنسان بكعبه يسهل. .

ايش التأثير هذا. نسيت أقول لكم الخاطر مع الكي. يأكل الإنسان رز بايت. أشياء باردة تحدث سوء هضم عنده يصاب بقيء أو إسهال لا يكووه في رأسه أو في المعدة في الكعب بالنار يكووه كويتين على طول يخف. بعض الأطباء من زملائكم تعاملوا بها. إذاً إسألوا الكعب واسألوا النار. لماذا يكون الشفاء من هذا الموقع؟ . هل أطيل أم أنا انتهيت؟ . كذلك من علاجات التسمم الليمون بنزهير . يسموه ترياق بعض الفواكه مثل المشمش والتين وبعض بذور الفواكه . كل هذا لا تسألوني أنا الذي عندي أعطيته لكم ، لكن ممكن الإنسان يزور العطار . يجيب البدوي اللي يكوي عن كذا وكذا كثير .

خسر الإصبع وكسب حياته

يقال إن بدوياً كان راكباً ناقة مر في أشجار تطاولت أغصانها وناقته أمامها غصن بالليل أراد أن يزيل الغصن فلما وضع إصبعه لكي يزيله عن وجهه إذا به ثعبان قرصه ايش سوى؟؟ . . بالبديهة البدوية . . بالذكاء سل الخنجر في يده وقطع الإصبع . . السم راح مع الإصبع المقطوع . . جاب شوية تراب حطه فوق صباعه . . خسر الإصبع لكنه كسب حياته .

شراب يزيل أثر قرصة العقرب والثعبان

بجانب القرية حقل به عقارب كثيرة ما فيها خطر أبداً ليه تقرص الواحد على طول فيه شراب يزيل الخطر.. كذلك بعض الأفاعي فيه شراب لها كأنها هي أمصال يجب البحث عن هذا.

الثوم يضعونه على قرصة العقرب

ما دمنا على ذكر العقارب فالثوم يضعونه على قرصة العقرب كعلاج وكذلك يمكن الفصادة محل الحجامة. . الآن كل شيء بطل . . نحن تعبنا

من أمراضنا. . كانت لعيني الشمال شعرة وأنا في مكة قبل عام . . وفي المستشفى الدكتور زكي الورع طبيب العيون بمستشفى جياد وإذا بالمنقاش يعملها لي . . قلت له يا دكتور المستشفى هنا . . إذا كان بالمنقاش أروح لقملة معوض وإلا لواحد حلاق . . أتعرف الذي أزال ذلك وأريد أن أذكره وأسجل له الفضل الدكتور الإنجليزي لانجنيتو . . جاء فتح المستشفى وأصبح يعالج البادية كلها . . كفاهم شر السفر للخارج .

أنا عالجني بالكهرباء خلال دقائق إلى الآن لم ترجع إلي الشعرة.

وعلاج مرض العيون

وما دام ذكرت لانجنيتو بالنسبة لأمراض العيون يجب أن أذكر بالثناء الدكتور الجاوي الذي كان في بيت هولندا في مكة بسوق الليل أيام احتلالها لأندونيسيا بيت الجاوا.. هذا الطبيب تغص عيادته بالبادية.. كانوا يتعالجون من الزهري.. يسمونه الشجر.. يعالجهم بستمائة وستة إبر الزرنيخ ويأخذ جنيه ذهب أو كم ريال.. تعرفون أن هذا الدكتور الجاوي قد قضى على علمت البدوي من المائة من أمراض الزهري. ولعلّه من الأسباب القوية التي علمت البدوي من البادية ألا يشك في الطبيب وأن يزور الطبيب. فقد كانوا يهربون من الطبيب الآن تصوروا كلما دعت وزارة الصحة إلى التطعيم من الكوليرا أو الجدري وجدت المستشفيات والعيادات بالشعب كله.. يمكن الذوات أو الأرستقراطية الجديدة أو القديمة يأتي لهم الأطباء في البيوت أو ما يعبأوا بذلك.. إنما الشعب أو الطبقة الدنيا هي التي تأتي لتأخذ التطعيم ضد الكوليرا أو غيرها بأطفالهم وأولادهم.. ففيه وعي صحي.. الوعي ضد الكوليرا أو غيرها بأطفالهم وأولادهم.. ففيه وعي صحي.. الوعي الصحي أعطانا كثيراً من الفوائد.. الآن ما فيه عور عندنا لأن الجدري انتهى والنظافة أصبحت حقيقة لأن النظافة أزالت العور والكثير من أمراض انتهى والنظافة أصبحت حقيقة لأن النظافة أزالت العور والكثير من أمراض

العيون. . على إقبال الشتاء تمر تلاقي واحد حاطط خرقة مصبوغة بصباغ أحمر على عينه يداريها من الشمس لأنه كان ما في نظارات.

نسأل الله الشفاء والعافية

وهكذا يعنى شاهدنا من التعب والمر نسأل اللَّه الشفاء منه والعافية.

أما جيلنا هذا فتعالوا يا مستشفيات ويا رحلات ويا لندن وأسبانيا ويا.. ويا.. احمدوا ربكم على ما أنتم فيه من نعم الآن.. اشكروا ربكم.. أما نحن فلا نقول إلا الحمد لله.. والإملاء قد ينسيني.

زمزم وما فعلت

ما أذكر، فلقد نسيت زمزم وما فعلت. وزمزم كما بالحديث (طعام طعم وشفاء سقم) ماء زمزم لما شرب له، فلقد مرض صديقنا السيد ياسين طه، بمغص قال الأطباء إنه كلوي تعاطى الدواء الموصوف له، أتعبه كثيراً، ذهبت معه إلى الدكتور صادق، طبيب التكية المصرية في مكة، ولعلّه شك بأنه المغص الكلوي ولم يتيسر الكشف بالأشعة فإذا الدكتور صادق يقول للسيد ياسين اشرب زمزم ولا تشرب غيرها، وخف المغص كثيرا وليس القصد أن أذكر ذلك وإنما هي العجيبة التي أدهشت الدكتور أنور المفتي الطبيب النطاسي البحاثة يرحمه الله، أجرى الكشف على السيد ونظر في الأشعة فإذا هو يندهش. يقول للسيد ياسين، هل أجريت عملية في الكبد لا أجد أثراً للعملية. كيف شفيت. من هذا الخراج في الكبد انظر ها هو قد تكلس. بأي علاج تكلس. قال السيد ياسين لم أتعاط بأي علاج، ولم تجر لي أي عملية، كل ما صنعت أني أكثرت من ماء زمزم ولو عاش تجر لي أي عملية، كل ما صنعت أني أكثرت من ماء زمزم ولو عاش فابحثوا عن ماء زمزم وما فيه أبعدوا عن أذهانكم كلام المرجفين وابحثوا فابحثوا عن ماء زمزم وما فيه أبعدوا عن أذهانكم كلام المرجفين وابحثوا

عن زمزم ومائها كيف تم بها الشفاء، كيف يتم بها الغذاء.

وحادثة أخرى، في مدينة ضباء كان السيد هاشم عشقي مديراً للاسلكي والسيد ياسين طه مديراً للمالية وأخذ العشقى يقود الأتريك فانفجر وكبت النار في وجهه وأحرقته كل وجهه قد التهب نارا، وفتشوا عن علاج حالا، لا طبيب ولا علاج فإذا واحد من أهل ضباء يدلهم على عجوز أسرعوا بها فجاءت ولم تلبث أن قالت للخادم معها اذهب جيب العجينة الخميرة التي في البيت، جاء بالعجينة المخمرة، وكانت أحضرت قطعة من القماش نظيفة فصلته على وجه هاشم عشقي وأخذت العجينة ووضعتها عليه، وربطت وجه السيد هاشم وقالت لا تفكوها إلا بعد ثلاثة أيام، وجاءت تفكها بنفسها فإذا الجلد الظاهر من وجه السيد هاشم أصبح قشرة ملتصقة بالعجينة كأنما قد قشر أو سلخ وإذا وجه السيد لا أثر فيه للنار، كان أسمر فلم يبيض وجهه، ورأيناه بعدها كما نعرفه من قبل، وليس في وجهه أي قطعة من الحريق، اسألوا وابحثوا عن العجين الخمير كيف يكون شفاء من الحريق، فلا يترك أثراً، أرجو أن تعرفوا أنى ما بالغت وما كذبت، وما قصدت إلا أن يتحقق ما يريده الدكتور عبد الله باسلامة وما وعد به الدكتور فؤاد زهران.

ونسيت أن أذكر علاجاً آخر من ضمن الحمية عن ذات الرئة سواء في حالة المرض أو في دور النقاهة فإضافة العسل ولا غيره وإلى الفطير على الجمر ولا غيره يضاف إلى ذلك الماء المغلي فلا نشرب إلا هذا الماء ويضاف إليه ويوضع في الوعاء. قارورة. أو غير ذلك والأفضل القارورة ملعقة أكل أو قليلا من الشب الأسود المسحوق تترسب ولكن الطعم تذوقه في الماء قلت لسلامة المريض لماذا هذا الشب الأسود قال: يا وليدي يطرح البلغم. ولديكم الآن في الصيدليات أنواع من الأدوية لهذا الغرض. .

صناعة

كلمة عن رابغ . . ؟!

وعجيب أمر هذه الأرض في جزيرتنا، فكل قرية أو مدينة، وكل فدفد أو سهل، وكل الجبل والوادي قد حف بشيء من الثناء علينا، وبكثير من الدعاء بالبركة علينا. . كأنما العربي قبل الإسلام، وقد تغنى بالأطلال، إنما يعرب عن حب الطلل البالي. . كأنما هو يريد أن يكون الطلل القديم جديدا في وجدانه. . وتطور هذا التغني بالطلل والحب للصحراء، والراحة إلى الوادي، والعيش في ظلال النخلة، إلى تعريف مسلم. . فهجر ونجران واليمامة ويثرب قد كانت في وجدان رسول الله عِلَيْ وهي الأرض ذات النخلة. المكان الذي سيهاجر إليه.. يصف النبق ثمرة سدرة المنتهى بأنها كبيرة كبيرة كقلال هجر. . هجر هي المنطقة الشرقية الآن ـ ويرحب بوفد نجران، وتعطيه اليمامة بالحصار الذي فرضه ثمامة بن أثال الحنفي. يمنع حنظلة اليمامة عن قريش، فإذا هو عطاء اليمامة، تضيق قريش، بالحصار... يأتون يستشفعون برسول الله. . أن يأمر ثمامة وهوزه بن على، ألا يمنع حنطة اليمامة عن مكة . . وكأنما فتح خيبر كان زلزالا في نفوس المشركين لا يرون إلا أنه السبيل إلى فتح مكة والبركة لوج والعقيق ووادي القري... كل ذلك الحب للوطن. . فهل أجد كل أهلى أن يحبوا كل قرية . كل مدينة. بل كان التراب في هذا الكيان الكبير.. نعم، لقد أعطى الملك خالد _ أطال الله بقاءه وولي عهده الأمين فهد _ البرهان لهذا الحب.. تعمر الجبيل كأنها للفينيقيين.. هناك الجبيل ذهبتم عن الجبيل تحسبونها لا تعمر بعدكم فها نحن العدنانيين من ربيعة الفرس قد بدأنا نبني الجبيل مدينة صناعية.

وكان العطاء لينبع مثل ذلك. . فقد قال لقضاعة (جهينة ويلي) لقد عشتم في أساطير القحطانيين وتعيشون الآن بما نصنع لكم في حقيقة واقعة يصنعها تفوق هذا الكيان الكبير.

وإذا اللفتة الكريمة من خالد وأخيه.. وفي أيام الحج تلتفت إلى رابغ.. يوضع حجر الأساس لصناعة البترول.. لتكون تحلية الماء لتزرع النخلة.. لتكون رابغ ثغرا ثالثاً على البحر الأحمر.. يضاف إليه ثغر رابع وخامس في الليث والقنفذة.. وكأنما التوفيق حالف التوقيت.. أو أن التوقيت جاد به التوفيق. فرابغ الميقات كأنها باب مكة يحرم من سمائها الحجاج، وعلى ثبج البحر إن مرت السنون وكذلك من كل مار بها كأنما رابغ الميقات قد وقت لها عطاء الميقات في هذه المصانع والمصفاة. وكأنما إذ كانت ميقاتا استصرخت الوفاء للحرم ومن الذين حول الحرم. وهل تستأهل رابغ الوفاء؟ نعم. بل إنه حقها يحتمه التاريخ يلزم به التفوق.. يعطي وحدة الكيان الكبير التمايز بهذا العطاء لا التمييز.. فالدولة واحدة والأرض واحدة، والعطاء واحد. ولن يأتيني رجل لم ينزع الفولة منه بعد.. يفخر بقرية على قرية. وبمقاطعة على مقاطعة. وبواد على آخر..

فالدولة الواحدة والكيان الكبير الواحد حتم أن يتوحد كل فؤاد بالحب الكبير والعميق لكل ذرة من هذا التراب.

وهل لرابغ وفاء ساهمت به في دعم هذا الكيان الكبير؟ نعم. . لقد كان ذلك يوم كانت الثغر المستقبل للأرزاق تأتي من الهند ومن بومباي بالذات يرسلها أعيان القصيم ومن أعيان عنيزة الذي رسخت له قدم التجارة في الهند إبراهيم الفضل صالح الفضل كبير بيت الفضل في الهند وفي عنيزة وفي جدة .

وكان هنالك ثلاثة رجال من أبناء المدينة المنورة.. أبناء القصيم. أبناء عنيزة.. عبد العزيز الخريجي يرحمه الله ومحمد الخريجي أحسن الله إليه وناصر العبد الله العقيل كانوا بما لديهم من مال يستقبلون ما يرسله إبراهيم الفضل.. يمدون مكة وجيش الملك عبد العزيز يرحمه الله بالأرزاق.. فإذا كل نجد وكل الحجاز لا يخشون جوعا من حصار.. ولكن من أرباح لهم أن تكون رابغ كذلك؟ ذلك الرجل الكبير الشيخ إسماعيل بن مبيريك أمير رابغ فقد كانت تحت إمرة آل مبيريك لا يقصيهم منها أحد في عهد الدولة العثمانية وفي عهد الأشراف وحتى هذا العهد الوفى لإسماعيل بن مبيريك.

إن إسماعيل بن مبيريك عرف بنظرة سليمة أن يكون صديقا للملك عبد العزيز.. ولم يقتصر مسعى ابن مبيريك على أن يضع رابغ ثغر التأمين والأمان.. فحين امتن عليه الملك عبد العزيز يرحمه الله تقديرا لوفائه أن يكون الأمير لقبيلة حرب فهو حربي من الغوانم يستكثر بابن عسب البيت الكبير في حرب.. ولم يستغول بسلطة زبيد.. لم يأخذ هذه أمارة على حرب مأخذ المستأثر بها. الجافى لأشياخ هذه القبيلة.. بل كان كل مسعاه

أن يبعد كل وحشة في نفس هؤلاء الرجال. فقد كان يقربهم إلى جلالة الملك عبد العزيز ليستأنسوا بعطفه وليعرفوا من هو؟..

فيأخذ الشريف أحمد بن منصور أمير حرب قبله.. ووكيل أمارة المدينة أيام حكم الحسين بن علي يرحمه الله.. يصحبه للسلام على الملك عبد العزيز فإذا هو يلقى التكريم كما لقي أخوه عبد المحسن من قبل وكذلك فعل مع ناصر بن بنيان أمير اللهبة. كما أنه حين لجأ إليه الشريف عبد الكريم بن بديوي أحد أمراء جهينة وأمير الأشراف ذوي هجار احتضنه فأكرمه وأعز شيبته.. وحين أخذ بيد شيخ بشر ومعبد من بني عمرو من حرب ليقدم السلام على الملك عبد العزيز.. كانت هناك ملحة طريفة أرويها للتاريخ.. فقد تبسط الملك عبد العزيز يرحمه الله.. يؤنس الوحشة في الرجال.. فسأل محمد بن حمادي: (أنت أكبر والا إسماعيل؟) فاستمهل ابن حماد قليلا كأنما يطلب الرضا عن الإجابة فقال: (إسماعيل أكبر بعطفك، وأنا أكبر بعدلك) فاستحسنها الملك عبد العزيز وما غضب إسماعيل بن مبيريك. فأصحاب فاستحسنها الملك عبد العزيز وما غضب إسماعيل بن مبيريك. فأصحاب القيم يعرفون القيمة لهؤلاء أصحاب القيم.

إن رابغ اليوم ستكون متنفساً لجدة.. ستكون زاخرة بالعمران. وعساني بعد، أن أطلب من معالي وزير الزراعة عبد الرحمن آل الشيخ أن يزور رابغ يبشر السيل فيها لعلّه يستحسن أن يكون هناك سد.

ولعلِّي في النهاية أكمل بعض الجغرفة التاريخية لثغرنا الحبيب رابغ.

رابغ: بعد الألف باء موحدة. وآخره عين معجمة: واد يقطعه الحاج بين البرداء والجحفة دون عزور، قال كثير:

أقول وقد جاوزت من صدر رابغ نهاية غبرا يفرغ الأكم لها أألحى أم صيران دوم تناوحت بتريم قصراً وأستحث شمالها

أرى حين زالت عبر سلمى برابغ وهاج القلوب الساكنات زوالها كأن دموع العين لما تخللت مخارم بيضا، من تمنى، جمالها

تمنى: موضع، وقال ابن السكيت: رابغ بين الجحفة وودان، وقال في موضع آخر: رابغ واد من دون الجحفة يقطعه طريق الحاج من دون عزور، وقال الحازمي: بطن واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب، وقال الواقدي: هو على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الأبواء والجحفة؛ قال كثير:

ونحن منعنا يوم مر ورابغ من الناس أن يغزى وأن يتكنفا

يقال: أربغ فلان إبله إذا تركها ترد أي وقت شاءت من غير من يجعل لها ظما معلوماً، وهي إبل مريفة أي هاملة، والرابغ: الذي يقيم على أمر ممكن له، والرابغ: العيش الناعم.